


شخصيات حية من الأغاني



درية

د. محمد المنسي قنديل

Bibliotheca Alexandrina



0005714

شخصيات حية

من

الأفاني

د. محمد المنسي قنديل



المهنية المصرية الصمامة للكتاب

١٩٩٠

الإخراج الفني : محمد المحجوب

شخصيات حية

من

الأفغانى

أبو الفرج الأصفهاني

لو وجد أبو الفرج الأصفهاني في أيامنا . هل كان يستطيع أن يؤلف «الأغان» ؟ .
ناهيك عن ضيق الوقت . وكثرة المشاغل . واللهاث خلف لقمة العيش . وعدم ملاءمة
هذا النوع من المؤلفات الموسوعية لعصرنا .

وهل كان يستطيع أن يجد بيننا مادته الحية ؟
ذلك الكم الكبير من فرسان الصحراء ، والخلفاء ، والندامي ، والشعراء ،
والجواري ، وربات الخدور ، والقيان المغنيات ، وسلاطين الخيرة والصعاليك والشواذ ،
والظرفاء ، والمتأدبين ، وعلماء الكلام ، ومشيرى الفتن ، والشعوبيين والعذريين ،
والهازلين ، وقاطعى الطرق .

هل كان يستطيع أن يعيد أنس الليالي الخوالي . ويبعث الضوء في سماواتنا الخاوية
النجوم ؟
أم أنه سوف يجردنا متعيين . نادمين على اليوم الذى نعيشه خائفين من اليوم الآتى .
سوف يجردنا في ذيل القائمة بعد أن كنا في أولها . لن يجد أبو الفرج في ليالينا مادة الاسمار
الحية . ولن يجد في اشعارنا ذلك الوضوح والرغبة الصريحة ولن يجد أيضاً في قصص حنا
ذلك الهوى المستعر . حتى أغانيها سوف تؤذى اذنيه وهى تتكرر وتعيد نفس المعانى الركيكة
كأنها اسطوانة مشروخة .

ليبق أبو الفرج بعيداً . وليبق الأغانى كتاباً فوق الرف . فالايام لم تعد هى الايام .
ونحن لم نعد نحن . وهذا الكتاب الغريب يحمل من الاسى بقدر ما يحمل من المتعة . كأن
نواده وأخباره وتراجم شعرائه مرثية طويلة لشمسنا الغاربة .

ذات ليلة أرق هارون الرشيد ، ظل يتقلب فوق فراشه . لم تكن به رغبة في أى شيء ولم تكن المسكنات قد تقدمت لهذه الدرجة . نهض وأمر حجابيه أن يحضروا كل ما في بغداد من مغنيين وندماء ، ولم يمر وقت حتى جاء جمعهم . بعضهم يعانى من أثر النوم والبعض من أثر السهر كان الخليفة متجهها وأمرهم أن يختاروا أحسن مائة صوت ترنم بها المغنون . وتنفس الجميع الصعداء ، وأخذوا يرتبون له الأصوات حسب جودة الحانها وكلماتها . ارتاح الخليفة قليلاً وأمرهم بالانصراف . حاول أن ينام لكن النوم ظل جافياً . عاود النهوض والأمر بإحضار الجميع مرة أخرى . جاءوا يرجفون وهم يظنون أنهم أخطأوا في الاختيار . لكنه أمرهم أن يختاروا من المائة صوت أحسن عشرة أصوات . اختاروا وانصرفوا . وللمرة الثالثة ظل النوم جافياً فإستدعاهم وكانوا عند باب القصر لم يغادروه فأمرهم أن يختاروا أحسن ثلاثة أصوات . فأختاروا الصوت الأول من شعر أبى قطيفة وهو ليس من الشعراء الفحول . وثانيهما عمر بن أبى ربيعة . وثالثها الشاعر الأسود نصيب . . وهذأت نفس الخليفة وامتد حبل المجلس وهم يغنون الصوت الأول .

القصر فالنخل فالجاء بينها

أشهى إلى القلب من أبواب جيرون . .

وظلوا يرددون هذه الأغنية حتى غارت النجوم وجاء الصباح .

هذا هو المنهج البدائي الذى وضعه أبو الفرج أمامه قبل أن يقضى خمسين عاماً يخطب فيها موسوعته الضخمة «الأغانى» ، يرتب الأصوات المائة . الثلاثة فالعشرة فبقية المائة . يترجم للشعراء وللمغنيين ويعقبهم بفصول في غناء أولاد الخلفاء . ويتعرض من خلال ذلك لكافة جوانب العصر السياسية والاجتماعية . خمسون عاماً كاملة وهو يفتد الأخبار ويفاضل بين الروايات ويجهتد في جمع الطريف والمفيد ، حتى استطاع أن يتم نسخة واحدة ذهب بها إلى سيف الدولة الحمداني فأعطاه ألف دينار .

الاقدمون قالوا عن أبى الفرج أنه عبقرى فذ . صنع ما لم يصنعه أحد . وقالوا بل هو أكذب الناس . كان يذهب لسوق الوراقين فيحمل إلى بيته ما يمكن حمله . ويعكف في البيت على سرقة ما يجيد من أخبار وينسبها لنفسه . وحكى الصحاب بن عباد أنه كان يصطحب معه إلى موسم الحج حمولة ثلاثين جماً من الكتب . فلما ظهر كتاب الأغانى إستغنى به عن كل الكتب والجمال . لكن ياقوت الحموى يتساءل شامتاً . أين هى هذه المائة صوت ؟ إنها تسعة وتسعون فقط . ويضيف طه حسين بذوقه الادبى الراقى . أن أهم كتابين في التراث هما : تاريخ الطبرى وهو المرجع في تاريخ الاسلام السياسى . وكتاب الاغانى وهو المرجع أيضاً في وصف الحياة الاجتماعية والادبية والمزاج الحضارى الاسلامى .

ان رجال السياسة يتراجعون قليلا ليتقدم الشعراء . يخفض الفرسان سيوفهم حتى يعلو صوت الغناء . يتوقف صليل السيوف ويتواصل إيقاع اللحن والسمر . لقاء

محبوبين . سهرة في الصحارى البعيدة حول عين ماء . . يجلس اعرابي حوله مجموعة من الفتيات لا يعرفهن ولا يعرفنه يسامرهن ويروي لهن الأشعار . . ثم يذبح ناقته إذا أقبل الفجر فيأكل ويأكلن ويمضى دوماً وداع . عشاق معذبون . . عندما يسمعون حذاء القوافل يلفظون أنفاسهم الأخيرة . ما بين حرارة اللقيا ومرارة البين . يؤرخ ابو الفرج لهؤلاء الصفوة من الناس الذين رفعهم جهدهم العقلي عن طبقتهم العادية وزرع داخلهم بذرة الطموح القلق . هكذا ظلوا يتأرجحون بين الاحلام التي يقبضون عليها في الشعر والقصائد ، وبين قوانين الانساب الارستقراطية القائمة والتي لا ترحم . .

ولد علي بن الحسن بن محمد القرشي الكاتب المعروف بالاصفهانى في آواخر القرن الثالث الهجرى وقضى شبابه وكهولته في بداية القرن الرابع الهجرى . ولد عام ٢٨٣ هـ نفس العام الذى مات فيه البحترى الشاعر . وهو شاهد على عصر مضطرب . مثل كل العصور التي تحمل مخاضاً كاذباً يوهم بالتغير ولا شيء يتغير . كانت الدولة الاسلامية التي فتحها الراشدون والامويون وسلموها للعباسيين قد ذهبت شيعاً . في بغداد استولى الفارسيون على الحكم . وفي دمشق قامت دولة سيف الدولة الحمدانى وفي مصر كان الفاطميون . وفي المغرب والاندلس كان بنو أمية . وكل فريق يدعى الشرعية وأحقيته بحكم المسلمين إما بحق النسب الشريف أو بقوة السيف .

في بغداد كانت الخلافة العباسية قد هزلت وتحولت إلى صورة هشّة كلما نفختها جماعة من العسكر سقطت . ولعل أسماء الخلفاء في هذا العصر تعكس ما وصلوا إليه من هوان . مثلاً . . الخليفة المطيع لله . الخليفة المتوكل على الله ، وكلها صفات حافلة بالخنوع والطاعة لله اسماً . يكفي أن ينام الخليفة فوق سرير الخلافة ويأت عليه الصباح فيما يجد نفسه نائماً في السجن أو نائماً في القبر .

في عام ٣٣٤ هـ أى في صدر شباب أبى الفرج اقتحمت عائلة فارسية من الديلم بغداد وتمكنت من الاستيلاء عليها ووصل قائدهم الحسن أحمد بن بويه واجتمع بالخليفة المستكفى بالله وبإيعافه فرضى الخليفة عنه وهل كان يملك إلا أن يرضى . وخلع عليه لقب نصر الدولة . واستقر آل بويه احتلوا ما أعجبهم من دور وقصور وسط بغداد . غيروا ما غيروا ونهبوا ما نهبوا والخليفة راض تمام الرضى خاصة عندما رتب له نصر الدولة كل يوم خمسة آلاف درهم يتسلمها كاتبه لنفقات الخلافة .

كان ابو الفرج ابن عصره بحق . عرف أن هناك أكثر من مائدة وأن عليه أن يجلس عليها مخلصاً لكل صنوف الطعام . منذ اللحظة التي اقتحم فيها آل بويه بغداد وهو يسير في ركابهم فينادمهم ويؤلف الرسائل استجلاً لرؤسائهم حتى حسبه معظم مؤرخى سيرته متشيعاً . وظل فترة طويلة من جلساء الوزير المهلبى وزير آل بويه . ولم يكتف بتدعيم مركزه

في بغداد لكن طموحه تعدى الحدود، فأقام الصلات الوثيقة مع سيف الدولة وراسل بني أمية في بلاد المغرب، وأرسل لهم أكثر من كتاب لم يبق منها شيء غير فصول متفرقة من كتاب «أدب الغرباء».

كان سؤال العصر الحائر . . أين يمكن أن يكون الولاء لأي دولة ؟ ولأي حكام ؟ أمة مفتتنة ترقص رقصة الموت . تنبئ القصور الباذخة . وتفرق في المملدات ، يزداد الاقطاعيون وحشية ويزداد حرافيش مدنها فقراً ، تهب رياح الخطر من كل جانب . على الحدود الشرقية لدولة العباسيين تتخلق أقوام جديدة . تتجمع جحافل من البشر الحفاة الجوعى كان مقدراً لها أن تجتاح العالم المتحضر - وبغداد في المقدمة - اجتياح الجراد ولا تترك خلفها إلا الخراب . هؤلاء هم التتار يتكئون وسط شرنقة السهوب الباردة .

دولة سيف الدولة تقيم نوعاً من التوازن الخطر بين الروم في الشمال والصليبيين في الجنوب . وتدخل كل فترة من الزمن في غزوة قصيرة لا ينتصر فيها أحد ولا يهزم فيها أحد . معارك هدفها الوحيد فقط هو حفظ التوازن .

بنو أمية أيضاً في المغرب والاندلس ترصد لهم قبائل القوط وتتأهب لطردهم عبر البحر ليذهب الاندلس إلى الأبد ويخرج العرب من فردوسهم المفقود .

عن تلك البقية من الأمة اعتكف ابو الفرج خمسين عاماً في بيت على ضفة دجلة يسمع غناء الفلاحين والموالى وهم يرددون المواويل عما حل بالبرامكة من نكبات . عن عز الرشيد وذل شريمان . ويشهد راية العباسيين السوداء تخالطها نقوش الديلم السلاجقة . ظل وحيداً كالسيف المفرد يبعث لىالى الاسمار على الورق ويحى ريح الصحراء الدافئة . تتحرك حوله القطط الكثيرة التي يهوى اقتناءها وتربيتها حتى أن رائحة البيت لم تكن تطلق ولا يقبل أحد على زيارته وغير ذلك كما وصفه معاصروه . كان وسخاً إلى حد مقزز لم يعرف الاستحمام قط رغم معرفة العرب بالصابون . كان يفصل الثوب ويلبسه فلا يخلعه من فوق جسده إلا وقد بلى وتقطع . يخرج من بيته يتبعه سرب من القطط حتى إذا وصل إلى مجلس الوزير المهلبى أمسك الجالسون أنوفهم ونثر الغلمان العطر في أرجاء المكان والوزير المهلبى يتحمل منه هذه الفظاظ لأدبه وغزارة معلوماته . وكان أكولاً نهياً . يظل يشمس أصابعه في الأطباق التي أمامه حتى يأتي عليها ، في الوقت الذي كان فيه الوزير المهلبى رجلاً شديد الاناقة . يقف غلام عن يمينه يحمل صينية عليها حوالى مائة ملعقة نظيفة . فيتناول الوزير الواحدة ويأخذ بها الصنف الذي أمامه ثم يعطى الملعقة لغلام آخر عن يساره ويتناول واحدة أخرى ويظل يبذل الملاعق بعدد المرات الى تدخل فيها فمه . وأبو الفرج يأكل ويتجشأ ثم ينهى طعامه بأن يزدرد مقدار خمس دراهم من الفلفل الأسود ليساعده على الهضم دون أن يبدو على وجهه أى تعبير .

خمسون عاماً وهو يسود الصفحات دون كلل . يساعده على ذلك وحدته الممضية وغروره الشخصي ، وفقره الذي لا يوازي طموحه . ويساعده أيضاً تقدم صناعة الورق حيث استطاع علماء بغداد ان يطوروا البادرة التي أدخلوها من الصين ، وانتجوا أنواعاً جيدة لا تتشرب الحبر وعندما إنتهى أخيراً لملل الكتاب إلى سيف الدولة الحمداني فأعطاه ألف دينار وهو يعتذر لأن نفقات الحرب - كالعادة - لم تبق للمثقفين شيئاً . وظل فرحاً بالمبلغ حتى قابله أحد الأمراء ممن سمعوا بخبر الكتاب وقال له متأثراً . إنه لو أعطاه الكتاب بدلاً

من سيف الدولة لنقده الفين من الدنانير في الحال . وصدم ابو الفرج ؛ إذ لم يكن في مقدوره أن يخط الكتاب مرة أخرى . وأيامه الأخيرة تمضى حثيثاً . لقد أصاب عقله الوهن . وأمتلأ البيت بالفئران بعد أن هجرته القطة ، وأخذت تقرض خشب السقف طوال الليل فيحسبها خيول المهدي المنتظر جاءت ترفع رايات الخلاص . وأصابه الفالج ولم يعد يقوى على السير أو الحركة فأخذ يداوم على الجلوس في نافذة بيته المطللة على نهر دجلة ، ويسب الجميع ويشرب بدمار مثل دمار سدوم وعموره . وذات يوم اكتشف الجيران أن سبابه قد انقطع ، وأن رائحة العفونة التي تشع من البيت قد ازدادت فأقتحموا البيت . كانت جثته ملقاه جنب السرير والفئران تلعب فوقها وحولها . شيعوه في جنازة بسيطة لم يحضرها إلا نفر قليل أقل من عدد مجلدات الاغانى ودفن في مقابر الصدقة على اطراف بغداد .

كان أبو الفرج يحب الامويين . لأن أخبارهم كانت تحمل له - مثلما تحمل لنا الآن - بعضاً من الكبرياء . كانت ريح الصبا إذ تهب . تهب من دمشق وسنابك الخليل إذ تنطلق وتفتح الامصار تنطلق من دمشق . صحيح أن دولتهم كانت حافلة بالفتن وقتل احفاد الانبياء والصحابة الاجلاء . وانتزاع عروش واغتصاب بيعات . وكان فيهم ذلك الصنف من الاعمام الذي يأكل حق أولاد أخيه قبل أن تبرد جثته . . فيهم كل جنون التراحيديات التي نعرفها . لكن أبا الفرج نفذ إلى روح هذه الدولة الغربية . شيء من رومانسية الانتصار والزهو . وبكارة اكتشاف العالم . كان القواد ينتصرون والشعراء بمدحون ويعشقون . وتتسع مساحة العالم الاموى ويزداد تلاصقه .

أما حديثه عن العصر الجاهل فيغلفه طابع الخرافة . وهو يحاول الايهام بتحري صدق الأخبار ويورد سلاسل من الاسانيد الطويلة حتى انه لا يتحرج في أن يسلسل نسب شخصية حتى يصل بها إلى سيدنا آدم . . ويظل الطابع الاسطوري لا يفارق روح الخبر . وفي كتابته عن الدولة العباسية تقترب درجة السرد من التاريخ اليومي . إن الأخبار تصيغ عادية والأقوال ناهتة خالية من الحكمة . حتى أن نوازه الشخصية تغلبت عليه فلم يذكر تراجم لشعراء مهمين مثل أبي الحسن بن هانئ الشهير بأبي نواس ولا ابن الرومي وفي الوقت الذي أفرد فيه الصفحات الطوال لأولاد الخلفاء وأغانيمهم وأشعارهم الركيكة .

إن الأمر لا يخلو أحياناً من فكاهاة . حتى ولو كان الحدث سياسياً هاماً .

« دخل أهل المدينة المسجد وأتوا المنبر وأعلنوا خلعهم يزيد بن معاوية فقال عبد الله بن عمرو خلعت يزيداً كما خلعت عمامتي ونزعها عن رأسه ، وقال آخر خلعت كما خلعت نعلي . وقال آخر خلعت كما خلعت ثوبي . وقال آخر خلعت كما خلعت خفي . حتى كثرت العمائم والنعال والخفاف . . » .

ولا يخلو من بعض الرومانسية . مثل حديثه عن عذاب المحبين العذريين ويقابل ابو الفرج ذلك بنوع خفي من السخرية . كان حسياً بدرجة ما . لذا لم يسلم عاشق دنف معذب مثل مجنون ليلي قيس بن الملوح من لمزاته . . يقول :

« سألت بني عامر بطناً بطناً عن مجنون بنى عامر فما وجدت أحداً يعرفه . . » .
ويتحدث باحترام عن الأذكياء . يروي عن ابن عباس الصحابي ذي الذاكرة الحديدية أنه كان يسد أذنيه عن صوت النائح حتى لا يحفظه . وأقبل عليه عمر بن أبي ربيعة فقال انشد . فأنشده :

تشط غدا دار جيراننا . .

وسكت . فقال له ابن عباس :

وللدار بعد غد أبعد

فقال : له عمر كذلك قلت اصلحك الله - اسمعته .

فقال لا : ولكن كذلك ينبغي . .

خلف كل هذه الأخبار موج عالم الحركة والفعل . عالم حى له القدرة على الكسب والخسارة . لكن السؤال يطرح نفسه . هل اضاف جديداً أكثر من كونه ألف كتاباً متمماً . لا شك أنه فند الكثير من الروايات الأخبار . ولا شك أنه كان أكثر صدقاً ومنطقية من الكثير من الكتب لكنه اشترك في نفس العيب الذي يغلب على معظم كتب التراث العربى . وهو ما يمكن تسميته بالكتابة «اليقينية» أو بتعبير «أدونيس» ان يتحدث الكاتب عما يعرف وأن يتعد عما لا يعرف . من ذلك نشأ ذلك الاهتمام البالغ برواية الأخبار ، ورصد تلك السلسلة الطويلة من الاسانيد السخيفة عن فلان . عن فلان . عن فلان وهكذا حتى يصل إلى أنه قال . ثم يروى خبراً اسطورياً لا يمت للواقع بصلة . هذا الاهتمام هو محاولة للايهام أن ما قيل حقيقة . لذا لا تكسب الكتابة طابعاً وجدانياً بقدر ما تغلب عليها الصفة الموسوعية وعدم التخصص . وتبديل الرغبة في الكتابة الحقيقية إلى محاولة محاصرة العالم بدلاً من الغوص خلف ظواهره المرئية واكتشافه .

ولكن تبقى شخصيات الأغاني واقعية كانت أَوْ خيالية حليطاً من الحب والجنون والرعبة
تصلو للتخليق الصوفي وتمهبط للسطولة الدون كيشوتية ولعل هذا أحد اسرار إمتناع هذا
الكتاب الفريد .



إمرؤ القيس احزان الملك الضليل

... قرر أبو الفرج الاصفهاني أن يبحث عن أمرىء القيس ...

كانت بلاد الروم غيمة رمادية ممطرة . وأمرؤ القيس يموت .. منذ أن أرسل له قيصر الروم هديته . ثوب مسموم . وجلده يتساقط قطعاً صغيرة ، لا تترك خلفها إلا قروحاً مليئة بالصديد . وكان الصدا يأكل شمس العرب المعطلة .. ويبحث أبو الفرج في داب . قالوا له . . لقد رحل للشمال . ثلج وضباب ونسيان . وأمرؤ القيس يهذى عن جده أكل المرار الذى قسم القبائل بين أبنائه وجعلهم ملوكاً عليها . وعن أبيه الذى ملك كندة وبى أسد وتغلبا وبكرا . وعن نسوة «دائرة جلجل» وكيف نحر لها ناقته . عشق وصيد ورمل ملتهب وشمس لا تغيب . هذيان وسط الثلج . وملاك الموت ضئيل الحجم متدنثر في عباءة سوداء . رابض كطفل على حافة نافذة القصر .. أمسك أمرؤ القيس قطع جلده المتساقط .. وفكر .. هذه هى النياشين التى أنعم على بها قيصر . وعندما وصل أبو الفرج إلى بلاط الروم أكد له الحرس أن امرأ القيس موضع تكريم القيصر . حتى أنه سوف يزوجه من أبنته .. تساءل أبو الفرج في سخرية ..

- منذ متى هذا الوفاق بين الروم والعرب ؟ .

واعترف أمرؤ القيس للندامى .. قبل أن يجف النبع .. وقبل أن يتحلل دم النائر ..

- لما قسم جدى قبائل العرب بين أبنائه . قسم بيننا ميراث الكراهية . وهذا ميراثى . أب مقتول . وعرش لا أريسه .. وثأر ثقيل الوطأة ..

عنكبوت ينسج حيوطه بين الدرع والسيف . وجواد يتقيأ العشب الرخو . وطائر الصدى تائه عبر الفيافي المنغطاة بالثلج . واجتاز أبو الفرج الاروقة ، وجده منزوياً في حجرة حقيرة ، وملاك الموت متربص على النافذة . وأمسك أمرؤ القيس بيده وتوسل .

خذني إلى الصحراء . . عد بن للشمس . لكن «أبو الفرج» نفص يده في حنق وهو
يهتف . .

- لماذا لم تأخذ ثأر أبيك ؟ . .

غامت الذكريات في عينيه . ومضة خاطفة كأحلام الموت . يجتاز الصحراء وحيداً .
مغضوباً عليه من أبيه ومن قومه ومن حبيبة قلبه فاطمة . هدده أبوه :

- « أنت تقول الشعر وهذه صفة يأنف منها الملوك » . وقال قومه في امتعاض : « كيف
نرضى بمن يصاحب الخلعاء والسكراري » . وهفت فاطمة : « أنت لا صلاح لك . تهوى
صيد الخيف ويغايا النساء » . كلهم لفظوه . نزعوا منه صفة الامارة . وتركهم دون أسف .
كان الأب عملاقاً قاسياً . يرفع سوطه فلا يفرق بين حليف أو عبد . يمتحن شيوخ القبائل
عندما يتأخرون في دفع الاعشار . ويغدر بالندامي . ويدخل بالنساء قبل أزواجهن وكانت
فاطمة . . زهرة شقائق النعمان الوحيدة . تنتظر في صمت وحزن وهو عاجز عن أن يكون
مخلصاً لها . وكان قومه كالماشية . . ينهضون من تحت العصي . . ويخرون تحت السوط .
وأمرى القهيس يهرب من الجميع . . يحاول أن يوهم نفسه أنه ليس نباتاً شيطانياً ، لا ظل له
ولا جذور .

ثم قتل الأب . قتل الحارث بن عمر بن آكل المرار . . أخيراً حدث الشيء الطبيعي
والمنطقي . . فعلها بنو أسد عبيد العصي الذين نهضوا من ذل الاسر وفداحة الاتاوات
المفروضة . كانوا قد حاولوا العصيان وعدم دفع الجزية للملك . لكن حجراً لم يهلهم .
وضع رقاب الرجال تحت السيف . وساق النساء سبايا . لم يستطيع بنو أسد وقتل إلا أن
يحنوا رؤ وسهم للعاصفة ويطهروا الخنوع . . رفع حجر كأس انتصاره وهو يمضي نفسه بيوم
يملك فيه كل العرب كما ملكها آكل المرار . لكن خيول بنى أسد حاصرت خيمته هاجمه
بكل مرارة العبودية . . ذل شهر وملك دهر . هكذا صرخوا والسيوف تهوى كالنسور
الجائعة . .

تركه بنو أسد يمتضر وحيداً مشخناً بالجراح حتى تزداد درجة عذابه . . لم يبق بجانبه إلا
تابع قديم فأوصى له وصيته الأخيرة :

- « إحمل سلاحى وخيلى وقدورى ووصيتى واذهب إلى أولادى . اذهب إلى ابني
الأكبر وأخبره بموتى . إن بكى وجزع فاتركه إلى غيره . لا تعط اشياى إلا لمن لم يجزع
على . . » .

وأسبل الرجل عيني الملك . وأقام بنو أسد الأفراج عشر ليالٍ . . ويعث لهم النعمان
بن المنذر ملك الحيرة وفدا يهنتهم . . وسار الرجل إلى «نافع» أكبر الأبناء وأحقهم بشأر
أبيه . . قال له . . مات الملك . . صرخ . أهال التراب على رأسه وانخرط في البكاء .
تركه الرجل متمعضاً إلى الإبن الثانى . ولطم الثانى خديه بالنعال . وشق الثالث ثوبه وناح

كالنساء . . ووقع الرابع مغشياً عليه . . ولم يبق منهم إلا امرؤ القيس اصغرهم وأبعدهم عن
الثار . وأحس الرجل بالأسف وهو يؤكّد لنفسه أن كل ما سيفعله امرؤ القيس هو ارتجاله
لمرئية طويلة مليئة بالمواجع لكنه حمل السلاح والقدور والوصية . وسار إليه .

كان جالساً يلعب النرد مع أحد رفاقه . حولهما كؤوس الخمر وبقايا قصف الليلة
الماضية . . القى امرؤ القيس النرد . . قال الرجل . . مات الملك . . أمسك الرفيق عن
اللعب متردداً . . قال امرؤ القيس دون أن يلتفت . .
- الق نردك . . .

القي الرفيق النرد . . تتم امرؤ القيس . . ما كنت لأفسد عليك دورك . . القى
الرجل ما يحمل من أشياء بين يديه . . والح . . مات الملك . . قال ساخراً
- ضيعني صغيراً . . وحملني دمه كبيراً . . لا صحو اليوم ولا خمر غداً . اليوم
خمر . . وغداً أمر .

ولكنه لم يكن يعنى ذلك . . هتف أبو الفرج في حنق . .
- لم تكن تعنى ذلك . . لم تكن تعرف قدسية الثار . لم تكن تعرف ماذا يعنى إهدار دم
ملك . .

تتم امرؤ القيس :

- ملك فاسد مغرور . . كنت أنا أيضاً أتمنى أن أقتله . لقد حقق بنو أسد ما كنت
أتمناه . . إذا قاتلتهم فقد قاتلت بعضاً مني . ألا تفهم ا

كانت الصحراء مازالت بعيداً . وبلاد الروم أكثر ظلمة . والناقة تحمل جسد امرؤ
القيس النازف . وأبو الفرج فوق الناقة الأخرى . يشم رائحة القروح وقد أصابها التعفن .
حتى أنه فكر أن كل شمس الصحراء لن تطهر هذه الرائحة . . هتف متضايقاً . .

- كان يجب أن تقاتلهم . هكذا حملتك وصية الملك الأخيرة . .

عندما أفاق امرؤ القيس من سكرته قرر ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمرًا . ولا يتطيب
بطيب ، ولا يصيب امرأة ولا يغسل رأسه حتى يدرك ثاره . . اللعنة على أيام الصيد
وصبابات العشق ونزوات الشعر . . ما جدواها وطيور الثار عطشى وقبائل تغلب وبكر ما
تزال على وفاتها الأبله للموتى . وبنو أسد يشدون الصف للصف ويستمرخون العصبية
ضد بني كندة . والمنذر بن ماء السماء دخل في لعبة الصراع . . استعان بجيش من الفرس
ليصفي حسابات قديمة بينه وبين الملك المقتول . . أعلن أن كل من يعادى أسداً فهو عدو
له . . يا امرؤ القيس . . هذا ثارك . وهذا عارك . صرخ . .

- يا لثارات الملك . .

نهضت كندة وبكر وتغلب وساروا خلفه . لم يكونوا يحبونه وكان يكرههم . . لكننا

نواميس الصحراء والعقل الجماعى عندما يصيبه العجز فلا يرى الخلاص إلا فى الحرب . كلهم اتفقوا على طلب الثأر واتفقوا أيضاً على كراهية الملك المقتول . . كان غائباً عن وعيه الحقيقى وهو يستحث الخيل ويطلق صيحات القتال الوحشية يحاول دفع مشاعر التخاذل التى يحس بها فى أعماقه . فكر . سوف تكون مفاجأة عندما يكتشف أن بنى أسد يحملون ملاحه . . هل يقتل الانسان ظله ؟ . . قال له أحد الاتباع . . يا مولاي . . نرسل من يرصد خيامهم ؟ . . صرخ فيه . . ما جدوى أن نرصد العدو وهو أمامنا . وهو فى داخلنا . هذه هضابهم وهذا نخيلهم . . وكانت الطيور الجارحة تتبع الفرسان وتنتظر الرمم . .

وصلوا للتلال رجدوا القبيلة هاجعة كأنها ليست مطالبة بدم . أقل عدداً . ولا يشبهون ملاحه . صرخ . يا لثارات الملك وانقض عليهم فى فرح شرس . تفجرت نافورات الدم وتقوضت الخيام . وفرت النساء مدعورات وهو يقتل ويقتل . . يطهر نفسه فى بحر الدم . الندم عن كل بيت شعر قاله . وعن كل امرأة عشقها . والدم البشرى يرسم على درعه حروفاً غامضة كلما غيره بدرع آخر ارتسمت نفس الحروف . . لكن عجوزاً وقفت فى مواجهته . شهر سيفه وحجم الجواد . . ولم تهتز العجوز صرخت فيه :

- « أبيت اللعن . لسنا لك بثأر . نحن من كنانة » . .

شهى . أخفض الفرسان سيوفهم . واصلت المرأة القول :

- « بنو أسد كانوا خلف هذا التل ثم رحلوا ، نحن من كنانة ودمائنا حرام عليكم . . » .

سقط السيف من يده وسكنت الجياد عن الحممة وانقضت الطيور . كان القتلى كثيرين . ورائحة الدم ثقيلة . وأمرؤ القيس قد أخطأ . وتحول الثأر إلى جريمة .

سار الفرسان خلفه منكسى الرؤوس . وتركوا أرامل بنى كنانة يندبن . وكانت الطيور هى المنتصر الوحيد . تزايد حنقه على بنى أسد . فقرر أن يقاتلهم ولو فى أقصى الأرض . وساروا وقد زادت خيبة الأمل من ضرورتهم . ما أهمية الخطأ إذا كان القتلى هم الآخرون ؟ .

وفى اليوم الثالث عثروا على بنى أسد . كانوا يستسقون وقد حطوا الرحال وفكوا أعنه الخيول . صرخ البلهاء . . يا لثارات الملك واندفعوا خلفه .

لم يكن بنو أسد فريسة سهلة . وقفوا . قاتلوا . وانخلطت دماء الجميع . . والطيور الجارحة وقفت متخمة ترقب نتيجة المعركة فى تكاسل . ويحث عن قتلة أبيه . عن الأسماء التى ذكرها فى وصيته والملاح الذى تشبه ملاحه . . ولم تهدأ السيوف . ولم تقل ضراوة المقاومة حتى حل الليل . واضطر فرسان كندة ويكر وتغلب إلى التراجع بعد أن اقتنعوا أنفسهم أنهم قد انتظروا وظفروا بثأر الملك الهمام . وتراجع بنو أسد . وبقيت

الجثث ملتحمة . والطيور شبعى . والنيع ينبثق بالدم . .
وفي الصباح أبوا أن يتبعوا بنى أسد . كانت رائحة القتل تعبق المكان وآلاف الطيور
تكون غيمة كثيفة . صرح يستحثهم . قالوا . .
- « قد أصبت ثارك » . .
- « كلا . لم أفعل . لم أقتل احدا ممن قتله لا من بنى كاهل ولا غيرهم » . .
قالوا فجأة . . وقد نسيوا أنه ملكهم المقبل . .
- نلى . . ولكنك رجل مشثوم . .
وتركوه وحيدا مع الجثث والطيور . .
قال ابو الفرج فى تهكم . .
- آه يا سيدى . . أتريد أن تلقى اللوم عليهم وتصور نفسك بطلا أو حدا .
قال امرؤ القيس . . اننى أموت . . اسمع وقع دبيب ملاك الموت . .
وكان ملاك الموت يتبعهم متخفيا خلف الهضبان والكثبان الرملية . . لم يعد أمامه الآن
إلا الموت . . وقدما لم يكن أمامه سوى الهرب . . هو وفرسه الشقراء . . ودروعه
الخمسة . ووصية أبيه وقائمة القتل . توقف عند أحد الاصنام التى كان العرب يقدسونها .
تمهل ليضرب اقداحه ويعرف ما قسم له .
كانت للصنم اقداح ثلاثة - الأمر والنهى والتربص - ضرب قدحه فخرج الناهى . ضربه
ثانية فكان الناهى . وثالثة كان الناهى قذف بالقدح فى وجه الصنم وهو يدمدم .
ولكنه كان يعرف أن الصنم قد قسم له ما فى داخله . . ومضى . .
بدأت رحلة التردى . وتحول الامير الشاعر الى الملك الضليل . ما أصيبق الصحراء فى
وجه المطارد . كل قبيلة تسلمه الى أول قافلة عابرة وكل جبل الى مغارة . وكل الى فخ
جديد . ما أسهل التنصل من الوعود . والخوف وقت الاستجارة . خاصة اذا كان العدو
قويا . . مثل المنذر بن ماء السماء والجيوش موجهة من أباء وبهراء وتنوخ . . بل وأمدهم
أنو شروان بجيش من الاساورة خير مقاتلى الفرس . . كلها تطلب امرأ القيس حيا أو ميتا .
وكان هو وسط زمرة من بنى آكل المرار وكندة يبحثون عن نصير . وساقتهم الدرب
الوعرة الى بنى يربوع وقيل زعيمهم الحارث بن شهاب أن يجيرهم فى شهامة مطلقة .
وأعطى لهم الأمان ألا يغدر بهم تحت أى ظرف لكن المنذر أرسل إليه مائة جندى فقط .
طافوا حول المضارب . فأسرع الحارث بنفس الهمة وسلمهم كل بنى المرار . ولم ينج سوى
امرىء القيس وزوجته وابنته هند .

ثم بدأ يفقد دروعه . كانت خمسة دروع . يتوارثها ملوك كندة ملكاً بعد ملك . لكنه فقد درعاً في بنى يربوع . وثان في أرض طي . وثالثاً عند بنى جديلة .

وكان يجلس في خيمته تاركاً خيوله ورواحله مقيدة ومجهزة حتى يهرع إليها عندما يباغته الهجوم . وذات مرة سرقت الرواحل والخيول . وعندما حل بأرض بنى نبهان لم يجد أمامه سوى رعاية الأبل حتى سرقت الأبل أيضاً وأعطوه بدلاً منها قطعاً من الماعز . ونزل بأرض عامر عند أحد الخلعاء ويدعى عمر بن جوين فطمع في ابنته هند وقال فيها أشعاراً بذيئة . واضطر الفارس المهان للرحيل عاجزاً حتى عن الثأر لكرامته . . وفي منتصف المسافة بين قبيلة وأخرى . بين هرب وهرب . شعر بالأشمزاز من نفسه . . شعر بحدة المهانة . كل الناس تموت مرة واحدة وهو يموت قطعة قطعة . يغوص في بئر عميق . يفقد ما يجمل . يتعد عن كل النجوم التي ترشد طريقه في الليل وكل الطيور التي تحمل بشارة النجاة .

ثم نزل في بنى فزارة عند جابر بن مازن وكان حكيماً فأبلغه حقيقة هامة . . أنه لا قدرة له على مقاومة الذين يطلبون دمه . وأنهم حالملاً يصلون فهو حل من كل وعوده . . قال . .

- أن أراك في خلل من قومك وأنا اضن بك أن تحتال هكذا . وقد كدت بالامس تؤكل في أرض طي . وأهل البادية أهل بر لا أهل حصون تمنعهم . هل أدلك على حصن لم أر مثله عند قيصر أو كسرى . . ؟

قال: امرؤ القيس مستسلياً . . . من هو . . واين منزله . . ؟ . .

- حصن السمؤل ببلدة تيباء . هو الذي يمنح ضعفك حتى تصلح شأنك وهو حصن حظهين وخشب كبير . . .

قال . . كيف لي به . . ؟ قال الرجل . . أوصلك إلى من يوصلك إليه ؟ . .

وهكذا . سار امرؤ القيس وأمراته وأبنته إلى تيباء حيث حصن السمؤل . والدليل يلح عليه . قل قصيدة تمدح فيها السمؤل . قل حتى يرضى عليك . لكن معين الشعر نضب . واللاحاح يزيد من شرود القوافي . وأخذ الدليل يرتجف آياتاً وهو يحاول اكماها . والجرح يزداد غوراً واتساعاً . وعندما لاح له الحصن الشاهق أدرك أن عالمه قد أصبح ضيقاً خانقاً وأن أحلامه القديمة قد ماتت وضاع دم الأب هدراً . وكان يجب أن يضيع . واصغى السمؤل راضياً للقصيدة الرديئة وسمح له بالاقامة . .

توقف ركب أبي الفرج وأمريء القيس . سأل . . أين نحن ؟ قالوا لها . . أنتما في إحدى بلاد الروم تدعى «أنقرة» . هتف امرؤ القيس يائساً . . لازلنا في الشمال وسط الثلج والبرد . . وفكر ملاك الموت . أنه يحاول أن يساقني . مازال يحلم بالشمس . أشار امرؤ القيس إلى شاهد قبر . . دعنا نسترح قليلاً بجانب هذا القبر . . قال أبو الفرج . . وسوف تكون فرصة لكي تقول لي لماذا تركت حصن السمؤل . . ؟ .

كان الحصن عالماً متكاملًا مكتوم الانفاس . جدرانه صماء وآباره لا تروى العطشى .
واشجاره تثمر حنظلاً . . وهو ساكن تماماً . يخنق الشعر ويتطاول الليل وتشد النجوم
بالحيال . ثم جاء قادم جديد هو علقمه الفحل . أحد الشعراء المغمورين . جلسا
يتناشدان الأشعار . . واختلفا . . من منها أصدق تعبيراً وأدق وصفاً للخيل . وكان امرؤ
القيس غيباً كعهده في المدة الأخيرة فقال . .

- سوف تكون زوجتي حكماً بيننا .

ورضى علقمه الفحل على الفور . ولا ريب أن له نصيباً من اسمه . فمن ذا الذي
يذكره الآن كأحد الشعراء . ومع ذلك كان حكم زوجة امرئ القيس لصالحه . . حكمت
أنه أشعر من زوجها وأصدق منه تعبيراً . ولم يكن هذا الحكم خالصاً لوجه الشعر . وفطن
امرؤ القيس لذلك فطلقها في اليوم الثاني وتزوجها علقمة في اليوم الثالث . .

وكان يجب أن يفارق الحصن . خاصة وقد تحول احترام السمؤل إلى سخرية . .
ولكن إلى أين يذهب ؟ . . لم يكن أمامه في الشمال إلا الغساسنة ومن خلفهم الروم .

عالم آخر تحكمه قوانين جديدة . . هناك سوف تجمد البرودة دم الثار الحاد وتراكم
الثلج على شبح أبيه . .

وبدأ الرحيل إلى أرض الغساسنة . وجدهم يتحدثون عنه احاديث خرافية . يتبادلون
أشعاره . كان مازال يتنفس خلال الأبيات المروية لقد فقد عرش آكل المرار لكنه اكتسب
وهج الكلمة وسحرها الذي لا يفنى . . قال . . خذوني إلى قيصر . . قال الملك الغساني .
أن قيصراً قد أعد جيشاً من أبناء الملوك وسوف يضمك إلى صفوفه . هذا هو مكانك
الطبيعي . لكنه كان مروراً . ومكانه الطبيعي حيث لا يقدر إن يكون . وسافر إلى بلاد
الروم . ولم يفهم قيصر شيئاً من أشعاره وإن هز رأسه وهو يتظاهر بالرضى . . ولم يستطع
المترجم أن ينقل إليه أية صورة شعرية . .

وتناقلت ليالى الشمال الحزينة . وأمتدت ثلوج الشتاء . محت الدروب وغطت وجه
الشمس . وبدأ يسعل . قالوا . . هذا مرض مألوف في الشمال ، وبدأت ذاكرته في
الكلل . قالوا . هذه أعراض عادية في الشمال . . وبدأ يدمن على الخمر ويقضى الليل في
المواخير . قالوا . هذا سلوك شائع في الشمال . وبدأ يموت . .

قالوا أبو الفرج . أنا أقول لك ما حدث بعد ذلك . . كانا مازالا مستندين إلى شاهد
قبر المرأة الوحيدة وجاء ملاك الموت واستند إلى الجانب الآخر من الشاهد وأخذ يشهد
منجله في بطنه . وسمع امرؤ القيس صرير الشحد الحاد وقال أبو الفرج . إنه «الطماح» من
بنى أسد . قتلت أنت أباه وتبعك هو إلى بلاد الروم . هو الذي قال لقيصر إنك غوى
عاهر . وإنك تراسل ابنته . بل أخرج له رسائل مكتوبة بخطك . تذكر امرؤ القيس ابنة
قيصر وهي تطل عليه في الحديقة . وهي تعرض صدرها العاري أمامه . وهي تخرج لسانها

أحمر كالجمر . . قال أبو الفرج . . من أجل هذا أرسل لك ثوبه المسموم . . ومن أجل هذا يتساقط جلدك تأوه امرؤ القيس . . حتى في الموت . فلو أنها نفس تموت سوية . ولكنها نفس تساقط أنفسا . أغمض عينيه . كم مرة أموت ؟ كم نفس بداخلي ؟ . التفت إلى أبي الفرج . إذا مت هل ستدفني بجانب المرأة الوحيدة . قال . إذا أردت . قال لقد أحببت النساء . وكرهت الملوك . أدمنت الخمر وتعبت من الثأر ، وعشقت كل الكائنات وأبغضت أبي . . والتفت فرأى ظهر ملاك الموت وهو يشهد منجله . . رآه ينهض . ويستدير ويقف أمامه ويتنسم في لطف . . وقال امرؤ القيس آخر بيت شعر للمرأة الوحيدة السارقة في قبرها .

أجارتنا إنا غريبان ها هنا . .

وكل عريب للغريب نسيب . .

وهز أبو الفرج وملاك الموت رأسيهما طرباً من بلاغة الكلمات . وتقدم الملك ببطء كأنه

خججل . . . ومس جبين امرئ القيس بطرف منجله . . .



شهود حرب البسوس

الشاهد الأول :

جلييلة بنت مرة

بدأت الحكاية بالدم . وإستمرت الحرب أربعين عاماً فلم تنبت بحور الدم زهرة واحدة .. إمتلأت القبور بالجثث . والخيام بالأرامل . فلم يبعث كليب ولم تبدأ وإئل .. أنا جلييلة بنت مرة . زوجى كليب . وصهرى المهلهل . وأخى جساس . وأبى المهجرس . القتلة والمقتولون ، طالبو الثأر والمغدورون وأنا فى وسطهم . الحق فى جانئى . والباطل فى جانئى .. كل ثأر يطيب جزءاً من قلبى ويفتح جرحاً آخر ..

يقولون جلييلة السبب .. هؤلاء الرجال الأقوياء عندما يملقون أسبابهم بنا يضمعون الطموحات القاتلة فى موازاة النزوات الصغيرة . يقولون أننى وخالتي البسوس . وإبنتى اليمامة . أشعلنا الضرام . ودفعنا بآلاف الرجال الحمقى إلى حرب أتت عليهم جميعاً . بكر .. وتفلب . ونحن فى خيامنا . نغزل الاكفان .. ونردد المراثى

منذ أن ولدت وكليب بن ربيعة بن وإئل هو قدرى . من لحظة الطفولة حتى الموت قال أبوه لأبى . ابنى ضبيع جائع . ولن يسلس قياده إلا امرأة عاقلة كجلييلة . ووافق أبى دون أن يبالى بسؤالى . وهبوه مستقبل أيامى . هل أحببته حقاً . أم أن الخوف إختلط بالأنهار وجدتنى مشدودة إليه . هو وحده دون أخوق العشرة الأقوياء .. كان الزمان رخياً . والمواسم مواتية .. والصحراء كاللحم ..

كبرت . وعشقت الشعر . شاع أمر جمالى . أحببت شقائق النعمان لكهم لم ينثروا على دربى إلا زهور الصبار .. جاء كليب لزيارنى وعلى ثوبه دم الايائل والظباء .. كنت فى حاجة لقدرة من التآلف معه .. بدلاً من هذه الغربة الحارقة . لكن كليب لم يجد الشعر اجادته للصبيد ..

ثم جاء فرسان «تبع» .. انطفأت نجوم الحب قبل أن تضاء ..
جاءوا تحت الريح العاصف وفوق الرمل المتوفز . ووقف أبى . وأعمامى

يرتعدون . ورسول الملك يعدد مطالبه . . الجزية . . وهدايا الطاعة . . ثم قال بشكل
عابر كأنه لا يعبر هذا الطلب أى أهمية :

- وبالمناسبة . . تفضل مولانا «تبع» واختار جليلة بنت مرة زوجها له .
صاحوا فى دهشة :
- ماذا . . ؟ . .

واصل الرسول قوله دون مبالاة برد فعلهم :

- عليكم بتجهيزها للسفر إلى بلاد اليمن خلال عشرة أيام .

وأداروا أئنة جيادهم . كانت أمى تعد طعاماً فإحترق . وكنت أغزل فتداخلت
الخيطوط مثل متاهة . وعاد أبى مرخى الشارب . وأخوتى العشرة يثغون كالأغنام . . ولم يأت
كليب ، واصل صيده . مد تبع أظافره من بلاد اليمن البعيدة ليغرسها فى قلبى . كان كل
ليلة يتزوج فتاة جميلة وسرعان ما يختفى أمرها . لا أحد يعلم ولا أحد يجرؤ على السؤال ،
قصره الواسع الملىء بالأقبية والتوابيت كان مفتوحاً وها هو دورى قد حان . وعلى أن أعد
المضجع والتابوت . . وكان أبى ضعيفاً . . وأخوتى بلهأ . . قالوا عدة كلمات حماسية عن
العرض المصان والشرف الرفيع . . ثم صمتوا جميعاً . جساس . . وهمام . . وسلطان
حلم طفولتى وعز المضارب . . ظلوا جالسين حتى جاء كليب . . وعلم بالأمر فخلع
قوسه . . وألقى رمحه وقال :

- لن يحدث هذا . .

ونفضوا . . أصابتهم العصبية من قدرته على الاستهانة . . وصرخ أبى :

- وكيف نتحدى تبع . . ؟

قال كليب وهو يدير ظهره :

- هذا ما يجب أن تفكر فيه بدلاً من الجلوس ورعى العشب .

عاد فى صباح اليوم التالى . كانت غريزة الصياد متوثبة فى أعماقه فأخذ يعد الشراك
المناسبة . . أمر أن يعدوا صناديق العرس . أحد عشر صندوقاً كاملاً . كل صندوق مكون
من طابقتين طابق أصغر علوى توضع فيه ثياب العروس وهداياتها . وفى الطابق السفلى يرقد
أحد الأخوة ومعه سيفه . ثم تحملهم الجمال ويمضى موكب العرس إلى بلاد تبع . . قرر
كليب أن يذهب للقيصه فى عرينها . وحين رأى دهشة أبى وبلاهة أخوتى . هتف . .
- مقامرة . . هكذا الصيد دائماً .

كنت أنا مذهولة . لا أصدق أن هذه الفكرة السخيفة يمكن أن تنجح . وأن تمحدد
مصيرى . تكفى مصادفة واحدة فى طول الطريق . يكفى إكتشاف صندوق واحد فقط
لينتهى أمر الجميع دون رحمة من تبع . . وأنا . . سوف أعتصب . . ثم أقتل . دون أمل فى
ثأر . . ولكننا أطلعنا الأوامر كالنيام . حين تحدثت معه قليلاً أكتشفت أنه يعرف جيداً مدى

سخافة الفكرة وحماتها . . لم أعتقد لحظة أن هذه المجازفات لأنه كان حريصاً على . . كل ما في الأمر أن غريزة الصيد اللعينة استيقظت في داخله . . ليته كان شاعراً حالمًا رقيقاً عاجزاً . . ربما أحبيته قليلاً . .

لبست ثوب العرس . . وارتفع الجمل بهودجى . . وأغلقت الصناديق على أخوتى . . وسار صندوق كليب في المقدمة . . وسار أبى . . وقومى . . خلفنا . . وامتدت الصحراء حتى أحسست رملها في عروقى . .

وجاء تبع . . وأنا في هودجى واجفة القلب . . أشار إلى أحد الحراس . . اقترب من أحد الصناديق الموجودة في الوسط ثم غرس فيها طرف ريمه . . أوشكت على الصراخ . . أين كانت الطعنة في الطابق السفلى ؟ أم في الطابق العلوى ؟ لم أصرخ . . وكذا الصندوق . . لم ينبعث منه صوت . . ولا حركة . . ولا أى احساس بالألم . . همهم تبع في ارتياح ورضى . . تقدم أبى مرتجفاً . . يشير إلى هودجى وينحنى . . يشير إلى الصناديق وينحنى أكثر . . ويشير إلى نفسه وينحنى أكثر وأكثر . . أيها الملك القاسى المعظم . . كم ليلة بقيت لى . . كم ساعة . . ؟

كان تبع قصيراً . . لحيته مدببة . . وعينه مستديرتان كالعقاب . . وتجاه ضخم . . لا بد أنه مجوف من الداخل حتى تستطيع رأسه الصغيرة أن تحمله . . انجبه بصره إلى هودجى يريد اختراقه . . أنزلى الخدم . . أدخلوني إلى قصره المرصع البارد . .

أوصلنى إلى حجرتى . . ورسوا الصناديق العشرة أمامى . .

وضموا على وجهى قناعاً كثيفاً من المساحيق . . ورسموا على وجهى ابتسامة كاذبة . . أصبح الملك على وشك الوصول . . انصرفت الجوارى وأصبحت وحدى أخيراً . . أسرعت إلى الصندوق الذى طعنه الحراس . . كان خيط من الدم ينساب منه إلى الأرض . . كنت اعرفه جيداً . . صندوق زياد أخى الأصغر صرخت صرختى الحبيسة المؤجلة ، وفتح الباب ودخل تبع . . تراجع إلى الجانب الآخر مع الغرفة . . حاولت ألا أنظر إلى خيط الدم . . كان يتأملنى في نهم . . لم يسألنى عن سبب صرختى . . لعله تعود أن يصرخ الجميع في وجهه . . كانت رغباته تستيقظ من خلال فزع الآخرين . .

اقترب . . مد يده يجذب ثيابى . . صرخت في صوت عال أن ثيابى تتمزق . . وكان تبع مدرباً على كل فنون الهجوم . . صبوراً . . هل تخلوا عنى . . ؟ صرخت في لحظة اليأس . . وصرخ كليب . . لبيك يا جلييلة . . تكسرت الصناديق دارت الغرفة . . اقتحم الحراس الباب . . والسيوف . . السيوف . . خيط رفيع ينسال من الصندوق الوحيد الذى ظل صامتاً . . وسط بقع الدم والاعضاء المبتورة . . صرخ كليب في وحشية وطعن تبع . . جز رأسه الصغيرة ورفعها على طرف سيفه حتى يراها الحراس واليمينون وينو وائل وكل الغرب . . وزعق :

- مات تبع ..

جريت إلى الصندوق . كان زياد راقداً في الطابق السفلى وأظافره تحفر في الخشب أربعة خطوط من الدم .. وصاحت وفود القبائل . كل الذين اصطلوا بظلم «تبع» وبكيت زياد وحدى اشغلوا بالغنائم .. بالجوارى . والذهب ثم رفعوا سيوفهم يعلنون الولاء لكليب . وكان زياد صغيراً فحفروا له حفرة صغيرة . وفي ليلة عرس الكئيبه قامت لكليب .. ألم تظن ولو للحظة واحدة أن زياداً قد مات .. فقال وهو يخلع سيفه وعباءته . وعمامته :

- المهم أن تبع قد مات .

أصبح كليب ملكاً . وأصبحت أنا ملكة العرب ورحل جساس . وهمام .. وبقية الأخوة .. انتقلت من بكر إلى تغلب . إلى قصر كليب وكل لحظة يتضاعف شعوري أنني سبية ولست زوجة . لم يدخل المهلهل أخو كليب لزيارتي مرة واحدة .. لم يحمل لي هدية .. لم يلق على تحية .. كان دائم الرحيل . ينصب خيمته على حافة الأقب . وجاء أبي «مرة» لزيارتي .. قال لي في كآبة ..

- فتحنا الرمل . ورأينا الطالع . هذا المهلهل أخو كليب سوف يكون سبباً في هلاك قومنا ..

طالع مضحك ولكنه زاد من كراهيتي للمهلهل .. بل اكتشفت أنني لم أحب كلياً . كان قد أصبح ملكاً . مغروراً . قاسياً . تغلغل زهو التملك في داخله واختلط مع عطشه للدم . وقومي . وكل بني وائل كالغنم . يجمي مواقع السحب فلا يرعى حماه . إذا جلس لا يمر أحد من بين يديه اجلالاً له . ولا توردد أبل مع ابله . ولا توقد نار مع ناره . ولا يجرؤ رجل من بكر أو تغلب أن يجير رجلاً أو بعيراً أو يجمي حمى إلا بأمره .

كليب زوجي .. وأو بناتي يزهو كالطاووس وفوجئت به يسألني ذات يوم :

- هل تعلمين على الأرض من هو أمتع مني ذمة ..

سؤال أحمق لم أشأ الاجابة عليه حسب أنني عاجزة فازداد زهواً .. وكرر السؤال للمرة الثالثة وهو يتشدد في طلب الاجابة .. فقلت له .

- نعم . اخواي .. جساس .. وهمام .

وحدق في دهشة غاضبة . لم يتوقع جوابي . ألقى على نظرة حادة لعل أتراجع فلم أتراجع . لم أعتذر . تشاعلت بأشياء أخرى ولم أدر أى خطأ قاتل ارتكبت .. وعاد سؤالاً في الأيام التالية .. وكل مرة كانت اجابتي صدمة جديدة له .

كانت التحديات قد بذرت بذورها . ولم أكن بالتي تتراجع .. مهما غضب .. ومن هذه الشرارة بدأ الكابوس الذي استمر أربعين عاماً .

«شهادة اعتراضية من أقوال ابن جساس بن مره»

جاءت خالتي السوس من تميم ووزلت في جوارى . كان معها ناقة غريبة . هحين من نوق الملك النعمان . . ونوق اليمس . . حلدها مشرب بحمرة . وقوائمها طويلة صلبة وصوت احترارها عال . ناقة نادرة كما يبدو من شكلها . وكذا صغيرها . حرجا يرعيان مع ابلى . ولم أكن موجوداً بالمضارب . ومر كليب على الابل . ورأى الفصيل الصغير بلوبه المميز . سأل الراعى :

- ما هذا ؟

انحنى الراعى قائلاً . .

- هذه لخالة سيدي جساس .

وفوجيء العبد . . كما فوجئت أنا فيما بعد . بكليب وهو يدمدم في ضيق : أوبلع من أمر ابن السعدية أن يحير على بغير اذى .

وأخرج قوسه وسهمه ورمى الناقة الصغيرة رمية قاتلة . . حاء العبد يصرخ . . وخالتي البسوس تولول . . وأمرت الجميع بالصمت . . كل ما حدث أن فصيلاً صغيراً قدمات . لست أفهم السبب المباشر لكنها دعوة وتحذير لا أدري ما دوافعه . لذلك اخترت الصمت . . والتجاهل وموت أيام قليلة ولم يدع لى كليب فرصة

مرت الابل وفيها ناقة البسوس بعيداً عن أرضه ومرعاه . . لكنه جاء مسرعاً وأعاد السؤال على العبد ولم يتنازل هذه المرة أن يقتلها . قال كلمات أكثر اهانة ثم أمر غلامه .

- ارم ضرعها يا غلام . .

ورمى الضرع فاختلط الدم باللبن وجرت الناقة تحتصر وتصدر عجباً هائلاً

وخالتي البسوس تلطم وتصرخ . .

- واذلاه . .

وحثت مهرولاً على صوت النعيب وصحت فيها :

- اسكتي فلك بناقتك ألف ناقة .

لم ترض . ظلت تصرخ وأنا أزيد في عدد النوق عوضاً لها

لكنها أخذت تهيل التراب على رأسها وتواصل هجائي أنا وقومي

لكنى أصبحت في دار معشر متى .

يعد الذئب فيها يأت على شاق .

التقطت أنفاسى بصعوبة وأنا أنتفض من الغضب . والحجل . والاهانة وأصبح من

بين أسنانى .

- اسكتي . . لا تراعى . سوف أقتل من هو أعظم من هذه الناقة .

وسرت . . أرى في كل عين نظرات الازدراء . وأسمع في كل كلمة اهانة خفية . .

لقد إستغزنى كليب بما فيه الكفاية .. ولكن لماذا لست أدري ..
ثم ارتحلت بكر بإبلها ورعايتها .. مروا على غدير «شبيب» . لكن كليب أصدوا وأمره
القاطعة ..
- لا يدوقوا منه قطرة واحدة ..

وارتحلت بكر .. ذهبوا إلى «الاحص» .. ونفاهم كليب عنه أيضاً .. ارتحلوا إلى
«الجريب» .. إلى «الزنايب» ، على رأس كليب وبضع غلمان وجرو صغير يلاحقهم ..
ويطردهم . يقف شاغماً مثل إله صخرى قاس .. وبنو بكر يتضائلون أمامه . وكنت أنا
وابن عمى عمرو بن الحارث .. فلم نجد بدا من الذهاب إليه .. قلت له محاولاً أن أتمالك
نفسى :

- طردت أهلنا عن الماء حتى كدت تقتلهم عطشاً ..
رد على بصلف مبالغ فيه :
- ما منعناهم من ماء .. إلا ونحن له شاغلون ..
- هذا كفعلك بناقة خالتي .
ضحك في سخرية قائلاً ..

- أوقد ذكرتها . أما أنى لو وجدتتها في غير ابلك لاستحللت الابل كلها .. أحمد آلتك
ان بقيت لك الابل ..
كان هو كليب الذى لن يتغير مريضاً بداء الملوك . متوقفاً ان يتضائل الجميع أمام
كلماته .. ووجدتني — كأن هناك من يرفع يدي ويوجه رعى — إستدار ليرمقني بنظرة
احتقار أخرى فطعنته تحت إبطه . لم يصرخ من الألم . صرخ من الدهشة . هوى من فوق
جواده . والرمح في يدي . وتخسرت أنفاسه وهو يهتف بى ..

- يا جساس .. اسقنى شربة ماء ..
قلت ..
- ما عقلت استسقاءك للباء منذ ولدتك أمك حتى لحظتك هذه ..
التفت إلى عمرو بن الحارث وهتف به ..
- يا عمرو .. أغشنى بشربة ماء ..
وهبط عمرو من فوق جواده .. واقترب منه ثم طعنه طعنة أخيرة قصمت ظهره ..
(إنتهت أقوال جساس بن مرة وعودة إلى أقوال جلييلة)
ارتديت السواد قبل أن أصدق أن كليياً قد مات . وأن قائله هو جساس أخى ..
أنا .. زوجة المقتول وأخت القاتل . دخلت دائرة النار .. وأحاطتني نسوة تغلب .
اخوات زوجى وبناتى الثلاث . غربان سوداء تلقى على نظرة معادية .. وسألت
نفسى ...

- هل أرحل وحدى .. أم أنتظر حتى أطرده .
ويكيت لا كليياً .. ولا جساس .. إنما بكيت نفسى . أصبحت جسداً غير صالح
لسكنى الروح . شقية معذبة .. خدعت نفسى طويلاً بإننى فى بيتى .. ووسط أسرتى
وبنائى . لم تقل لى واحدة من النسوة كلمة من كلمات العزاء جلست فى خيمتى وقد لفظنى
الجميع . وسمعتهم يلحفن على «ضباع» أخت كليب :

- رحلى جلييلة عن مأمك .. ان قيامها بيننا فيه شماته .. وعار علينا وسط
العرب ..
ولم تتحرك واحدة من بنائى . ليدافعن عنى بكلمة .. ووقفت ضباع على باب خبائى
وهى تهتف بى ..
- يا هذه .. اخرجى عن مأمنا

التفت إلى بنائى .. واجهتني نظراتهن الصلبة الباردة .. كن موافقات على طردى
واهدار حقى فى الحزن .. جمعت ثيابى فى صرة صغيرة . حملتها على ظهري وسرت وسط
صرخاتهن !

وجدت أبى فى انتظارى . منكسر الرأس .. شاعراً بفداحة المصاب .. هتف بى :

- ما وراءك يا جلييلة ..

قلت :

- نكل العدد . وحزن الابد .. وفقد حليل . وقتل أخ عن قليل وبين هدين
غرس الاحقاد وتفتت الاكباد ..

نكس رأسه صامتاً . ثم قال ..

- أويكفى ذلك .. كرم الصفح وإغلاء الديات

قلت ..

- امنية مخدوع ورب الكعبة هل تدع لك تغلب دم ملكها لقاء دية حقيرة مهما
علت .

اجتمعوا حولى ، شهود الجريمة ووقود الحرب . جساس أحمى الراشد . وأنا ..
أيعرف أننى رفعت رجمه وشحذت نفسه .. أنه يحمل ثأرى على كتفيه وينوء به .. أيعرف
أننى أجهل فى أحشائى من سوف يذيقه الموت سماً زعافاً .. يا جساس عذراً يا كليب
عفواً .. إذا حم القضاء فما جدوى الاعتذار . لبس ما فعلنا معاً . فرقنا جمعاً . وأطلقنا
حربنا . والله لا تجتمع وائل بعدها أندأ ولا تقوم لها قيامة . يا جساس قتلك كليب قبل أن
تقتله .. وضع بذرتة فى بطنى حتى يدور الزمن ويتحقق الوعد
(إنتهت أقوال جلييلة بنت مرة) .

الشاهد الثاني

المهلهل بن ربيعة

كنا جالسين . همام بن مرة وأنا . وبيننا شراب وندامى ودم ومصير مجهول . . كنت
ثملاً . والسقاء ملبدة بالسحب الوحشية . والأرض خادعة . ومام نديى . . وصنو
روحي . تعاهدنا الأيكنم أحدنا سراً عن الآخر . ومر جساس على خيمتنا مفزوعاً فوق
جواد مفزوع . مكشوف الركبتين . لم يلتفت ناحيتنا وانحدر مع التل إلى ديار بكر . . قال
همام وهو يتابعه :

- إن له لأمرأ . والله ما رأيتك كاشفاً فمخذه قط في ركض .
قلت ضاحكاً :
- لعله فشل كعادته في صيد الظباء . .

ضحك همام . حاول أن يشاركني الشراب . لكن منظر ركبتى أخيه العاريتين لم
يفارقه . شربت كثيراً . والقيان تغنى من أشعاري . . وخيول النشوة تركض في
عروقي . . هذا هو عالمى الأمن مادام فيه كليب . . من خلال باب الخيمة لمحت جارية
تقود جواداً . صاعدة من ناحية بكر . . ورأيت «ماماً» وهو يتسلل خارجاً من الخيمة .

يتحدث مع الجارية . لم يكن حديث حب . هذا ما لاحظته . . كان كلامهما
مرتعباً . شديد العصية . . أشار إلى . . وأشارت إلى بعيد . ثم انصرفت هابطة على
المنحدر . وربط همام الجواد بجانب الخيمة وعاد . . جلس أمامى صامتاً ينتزع أنفاسه
الثقيلة بصعوبة . . لقد تلقي رسالة قاسية بلا شك . . وبعثت حالته في نفسى نوعاً من
الترقب الخبيث . . كان حائراً مثل غريق . . قلت له دون مواربة :

- ما شأن الجارية والفرس . . وما بالك . . ؟
- تردد برهة . ثم مد يده مرتعدة إلى كأسه وهو يقول . .

- اشرب ودع عنك الباطل ..
- قلت : وما ذلك ..
- زعمت هذه الجارية أن جساساً قتل كليياً ..
- ولم أملك نفسي .. ضحكت في صوت عال وأنا أقول ..
- هيهات .. همة أخيك أضعف من ذلك ..

ملأت كأساً وأشرت للقيان أن يواصلن الغناء . شربت في نهم وأنا أرقب وجه همام .. إذا كان كليياً قد قتل حقاً .. فلماذا لم تتقوض الصحراء . ولم تنطفئ الشمس ولم تتناثر النجوم . رفعت كأسى وشربت بمخب الأشياء المستحيلة . أخذت أشرب والعالم يدور بي .. غرقت في قبوى المظلم الذي أغيب فيه كل مساء .. وجاء كليب . صاح بي . مضى زمن الندامى . وجاء زمن الموت . أفقت فلم أجد أحداً . لا همام .. ولا الجوارى سرت وحيداً .. فرأيت جواداً شاحباً يرعى عند حافة الافق . يحمل جثة أبي مذبحاً .. هكذا أراه . منذ عشرين عاماً .. منذ أن ذبحه التبع اليماني بعد أن رفض أن يدهع الجزية .. استسلم ربيعة . واستسلمت بكر .. ولم يبق لي إلا كليياً .. الجبل الذي يأويني ويعدن بالثأر .. أصبح هو أبي .. وحدود عالمي .. وحلمى المتكرر .. انطلق منه وإليه .. لكن الجواد الشاحب يقترب .. يمسح رقبته في صدرى . لا يحمل جثة أبي . ولا جثة كليب .. بل يحمل جثتي . هناك ضباب أصفر .. وأنا أسير داخل حلم غريب .. أدخل تغلب غريباً .. ضائعاً .. ميتاً .. الفرسان يعقرون خيولهم .. ويكسرون سيوفهم ونسور سود .. كأنها غربان تضاعفت عشرات المرات . البنات الثلاث يصرحن في برجهى :

- عماء .. مات أبونا يا عماء .. مات كليب .
- يلححن على بالصراخ ... يردننى أن أصدق .. يقددننى إلى تل «الذئاب» ويشرن إلى جثة غريبة .. الرمل تحتها أحمر . والطيور فوقها سوداء .. يللمن أعضاء مرخاه .. ويلفنن جسداً ساكناً .. ويصحن في .. ابك أخاك .. ابك قتيل ربيعة وتغلب . آخر ملوك العرب .

لكننى لا أبكى . أعرف جيداً أن هذا ليس أخى .. كليب المفعم بالحياة والرغبة والقوة والمرح الصاحب .. لا يقتل جزاء ناقة . ولا من أجل كنوز الأرض . لا يقتله راعى ضأن مثل جساس بن مرة .. هناك نوع من سوء التفاهم المر .. ان كان ثمة أحد قد مات فهو أنا .. أما هذا الجسد الدامى الأشعث الأزرق الفاجر القم الزجاجي النظرة الراقد وسط الروث والبحر ، المخلوع النغل ، المقصوم الظهر . فهو ليس كليياً .. هذه خدعة .. سوف يرد حياً .. على بكر أن تنشره حياً .. اليوم .. أو غداً .. أو آخر الزمان ..

صرخت في الجميع ..
- ويحكم . ماذا دهاكم . أتعقرون خيولكم حين احتجتم إليها . وتكسرون
سيوفكم حين افتقرتم إليها .
والتفت إلى النساء الباقيات صائحاتاً ..
- إستبقين للبكاء عيوناً تبكي حتى آخر الدهر ..

وفي الصباح دفنا الجثة الغريبة التي وجدناها على التل .. وصرخت في البيد
الواسعة .. ادعوا كلياً .. فلم يجيبني .. وكيف يجيبني البلد القفار .. سقاك الغيث
انك كنت غيثاً .. ويسراً حين يلتمس اليسار .. ولست بخالع درعى وسيقى إلى أن يخلع
الليل النهار ..

لم يبق من أيامي .. إلا أيام الحرب .. أو يعود كليب .. أجز شعري .. وأقصر
ثوبي . لا أشم طيباً . لا أشرب خمراً . ولا أدهن بدهن . ولا أقرب النساء . حتى أقتل
بكل عضو من كليب رجلاً من بكر . رجلاً للذراع . ورجلاً لكل أصبع من يده ..
ورجلاً لكل شعره من رأسه ..

جاء إلى شيوخ بني تغلب .. قالوا ..
- بني مرة أولاد عمنا . وأننا نرى ألا نعجلهم بالحرب حتى نعدز إلى اخواننا من بني
مرة . فبالله ما تجدد بحرب الأهل إلا أنفك .. ولا تقطع إلا كفك ..

صحت فيهم ..
- جدعه الله أنفاً . وقطعها كفاً .. والله لا تحدثت نساء تغلب أنني أكلت لكليب
ثمناً .. ولا أخذت له دية ..

لكنهم أصبروا .. كنت أكره ترددهم .. ولكني أكره أن يفضوا من حولي .. ووافقت
مرغماً ..
شهادة اعتراضية :

من أقوال وفد تغلب إلى بني بكر ..

سرنا إلى بكر .. إلى بني مرة .. كنا نحاول أن ندفع شبح الحرب .. قلنا لهم .
- انكم أنتم أمراً عطياً بقتلكم كليباً نئاب من الأبل . وقطعتم الرحم نحن نكره
العجلة عليكم دون الاعتذار .. وأننا نعرض عليكم إحدى ثلاث خصال لكم فيها مخرج
ولنا مرضاة .. أما أن تدفعوا إلينا جساساً فنقتله بصاحبنا فلم يظلم من قاتله .. وإما أن
تدفعوا إلينا هماماً فإنه ند لكليب .. وإما أن تفيدنا من نفسك يا مرة .. فإن فيك رضا
القوم .

وسمع «مرة» هذه الكلمات نظر إلى قومه من بني بكر .. كأنه يطلب تأييدهم غير
المشروط . قالوا له .. تكلم غير مخدول .
قال الشيخ المراوغ ..

- وأما جساس فغلام حديث السن ركب رأسه فهرب حين خاف . فوالله ما أدرى أى البلاد انطوت عليه . وأما همام فأبو عشرة . . وأخو عشرة . . ولودفعته إليكم لصاح بنوه في وجهي وقالوا . . دفعت أبانا للقتل بجريرة غيره . وأما أنا فلا أتعجل الموت وهل تزيد الخيل على أن تجول جولة فأكون أول قتيل . . ؟ . . ولكن هل لكم في غير ذلك . . ؟ . . ان شئتم لكم ألف ناقة تضمنها لكم بكر بن وائل . .

وهتفنا في غضب . . ونحن نسحب أذيالنا . .

- والله ما كان كليب بجزور ناكل له ثمناً . .

(تمت أقوال وفد تغلب . ونعود إلى أقوال المهمل)

الحرب قدرى . منذ أن ولدت . وجالست النساء . وقلت الشعر . وأحببت كليباً تأهبت تغلب . . ويكر . لم يعتزل منهم إلا الحارث بن عباد . تدق الطبول في الصباح وتنعب الناعيات في المساء . ويمتد حبيل الدم . يصل عيون الماء بالقبور وينبت زهر غريب . . أشم فيه رائحة جسد كليب . . عند الآبار والينابيع أماكن السقيا والعشق تحولت إلى مواقع للقتال . . تشرق الشمس فأشهر سيفي وأقتل كل من أصادفه . . ردوا كليباً . . انشروه من ذرات الرمل . . من رماد الحرائق . . لا أعرف عدد القتلى . . ومن أى جانب . . كم يوماً مر . . كم هجمة مباغثة . . وحركة غادرة . . ؟ . .

ثم جاء همام . رأيته أمامي ملطخاً بالدم والرماد . . كان في الجانب الآخر . . وبيننا دهر من العداوات . تمأذرنا طويلاً أن نلتقى . . كان يتقدم نحوي كاسراً سيفه . . وحاسراً رأسه . . يقول .

- أقدم نفسي فداء لهذه الحرب الضروس . اقتلتى ولاكن آخر القتلى . .

ابتسمت وبكيت واحتضنته وأبعدته . . يانديهي وصنوروحى . . مالفائدة . . أنا أريد كليباً . . حتى قتل جساس لا يشفينى . . أنا بحاجة إلى معجزة . . همام يبكي . ويستصرخنى . . يتوسل إلى أن أقتله . تكاثرت الأرامل واليتامى . وتلوثت الآبار بالدم . وامتدت الحرب مثل جسد خرافي بعرض الأيام والشهور والسنين . . يا همام . . يانديهي وصنوروحى . . لا يزيد اليتيم إلا اليتيم . . ولا يوقف الدم إلا الدم . . فاحفظ روحك وميت بيد غيرى . . كان جساس يحلم بأن يكون ملكاً . . هو الذى دفع بناقه البسوس إلى بستان كليب . . وجعل العبيد يتناولون عليه . . وأغراه على المبارزة بالعصى ثم طعنه غدراً بالرمح . استفزه ليقتله فأحياه في قلبى كالظماً . . انصرف يا همام . . فالجرب القدر يجب أن تتواصل . .

وذهب همام . أشرقت الشمس على يوم جديد . . كنا بالقضيبيات . والحرب في أشد ضرواتها . وحان الوقت حتى يقتل همام . . قتله الغلام «ناشره» . . كان لقيطاً . أخذه همام ورباه في بيته . وعندما كبر عرف أنه من بنى تغلب . . وهكذا تمحين الفرصة عند «القضيبيات» . . كان همام يقاتل فإذا عطش رجع إلى قربته فشرب منها ووضع سلاحه . .

ووجد نائمه من همام غفلة فشد عليه حتى قتله ولحق بقومنا . . وفي المساء . . كنت أمر بموكب القتل فوجدت همام مقتولاً منطرحاً وسط الدم والرغام . جثة عادية وسط عشرات الجثث لا تفرق الطيور الجارحة بينها . . وكانت دموى العسيرة تهوى .

- والله ما قتل بعد كليب أعز على فقدا منك . .

ولم تهدأ الحرب . للدم رائحة تغلب كل ما عداها . أشمها في الطعام والشراب وفي مجلس القوم . حين أستند لبرهة واغفو . وحين أحلم . . توقظ داخل الشهوات تفتح داخل أغواراً عميقة . . فأرى كواكب مطفأة ونجوماً مندثرة وزهوراً ذابلة وعروق ملح ويساق كليب غاضباً . . يصرخ من حرقة العطش . . وتأتى اليمامة . . وعينزة . . ويديله . . يبكين . . يرددن المراثي فتتحول أظافري إلى مخالب . وأسنانى إلى أنياب قاطعة . . الحرب جوعى الذى لا يشبع . . أضرب سيفي فلا أعرف قتلاى . . من بكرام من تغلب أبحت عن جساس فلا أراه . . وهذا يعنى يوماً آخر وحرماً أخرى . .

ثم نخل الحارث بن عباد عن عزلته . أرسل ابنه بجيراً يرجون أن اقتله فداء لهذه الحرب . وفداء لكليب . غلام صغير لم يتعد الثامنة عشرة . بعثه إلى شيخ أحمق يحسب أنه كفه لكليب . . كأن خضت هذه السنين الطويلة من الحرب حتى أظفر بهذا الغلام . . صرخت غاضباً . . شاعراً بالاهانة . . رفعت سيفى لأهوى عليه . . وصرخ في امرؤ القيس بن ابان أشجع رفاق حربى . .

- لا تفعل فوالله لئن قتلته ليقتلن به عزيزاً علينا . . وقد اعتزلنا أبوه وعمه وأهل

⁷ بيته . .

ولكنى كنت غاضباً مروراً . . جائعاً للقتل . . والغلام أصغر من أن يقنعى منطقة . . أهويت عليه بسيفى الأعمى وأنا أصرخ . .

- يؤ بشمع نعل كليب

شهادة اعتراضية :

من أقوال الحارث بن عباد .

علم الله . . لم أكن من جناة الحرب . . ولكنى صليت نارها اليوم . . اعتزلت نكراً حتى تفيق فأبت على تغلب اعتزالى . قريباً مربوط النعامة منى . ان قتل الكريم بالشسع غال . ولدى . قرة عيني . يموت لقاء أحد سيور نعل كليب أنا الحارث بن عباد . أشد أهل زمى حليماً وصبراً . الوحيد الذى لم تلوث الحرب يديه . جاء قومى من بكر يطلبون وساطتى . أحسست حيالهم بنوع من الذب الغامض . . لعلى كنت الوحيد الذى لم يتحمل نصيبه من الألم . أرسلت إلى المهلهل . . ابنى ذاء لهذه الحرب الضروس . . لم أنسى النظرة التى رأيتها فى عيني بجير وهو يستعد للسفر . . لعله كان يسألنى فى صمت . . عن مبرر لهذا التصرف الاحمق ؟ .

ثم جاء إلى من يقول .. أن المهلهل قد قتل بجيراً .. قلت في هدوء وأنا أحاول التماسك :

- نعم القتل أصلح بين وائل

صرخوا في وجهي ..

- وإنما قتله بشسع نعل كليب ..

في أول الأمر لم أشأ أن أصدق . اعتزلت الحرب طويلاً فلم أعد أعرف سعارها .. أرسلت إلى المهلهل أسأله .. إن كنت قد قتلت بجيراً بكليب وانقطعت الحرب فقد طابت نفسي .. ولكنه رد على في قسوة .. وإنما قتله بشسع نعل كليب ..

عفوا يا بجير . أهدرت دمك دون جدوى .. لم يعد أمامي إلا حرب أنا الخاسر فيها مقدماً .. أحضرت فرسي «النعامة» .. جززت ناصيتها . وتفت ذيلها . وخرج قومي خلفي . كل الذين اعتزلوا وعضوا عن الاشتراك في حرب عبثية .. رأيت ديار بكر . قتلى .. وحرائق .. شممت رائحة الدم . وسمعت أصوات البكاء .. ولم يمنعني الحزن من أن أعرف إن الحرب مكيدة .. جمعت حولي من معي .. وأنا أقول لهم ..

- كل امرأة تمسك قربة من الماء في يد .. وهراوة في اليد الأخرى .. وليقف جمعهم خلف الرجال . علموا أنفسكم بعلامات يعرفنها . فإذا مرت امرأة على صريع منكم عرفته بعلامته فسقته من الماء ونعشته . وإذا مرت على رجل من غيركم ضربته بالهراوة .

وهكذا . حلقوا رؤوسهم جميعاً استبسلاً للموت . وجعلوا ذلك علامتهم . واشتد القتال ضارباً . والنعامة تفررت حتى . ورأيت فارساً منهم يقاتل بوحشية .. وأمرت فرسانى أن يتكاثفوا حوله وأن يضيقوا عليه الخناق .. وظل يقاوم حتى كلت سواعده .. وانهمزت تغلب .. ووقع الفارس أسيراً .. اقتربت وأنا أصيح فيه .. دلني على المهلهل .. حدق في باستغراب ثم قال في تردد : ولى دمي .. ؟ .. قلت بغباء واندفاع : ولك دمك .. قال : ولى ذمتك وذمة أبيك ؟ .. قلت : ذاك لك .. ابتسم وهو يقول : أنا المهلهل .. خدعتك عن نفسي والحرب خدعة ..

خدعني قاتل ابني .. انتزع من بين أسناني الوعد بالامان .. أخفضت سيفي .. وأصبحت فارساً مسكيناً أسير وعده الأحمق .. قلت : كاشفتي بما صنعت بك بعد جرمك .. ودلني على كفسه لبجير .. دار بعيني يفكر ثم أشار إلى أحسن قواده .. امرى القيس بن أبان .. لم يكن ليتورع عن شيء لينجو بنفسه .. وهكذا جززت ناصية شعره كما هي العادة إذا أنعم السيد الشريف وأطلق أسيره .. وفتكت بابن أبان .. ولكن نار بجير لم تهدأ .. وكذا الحرب ..

(تمت أقوال بن عباد ونعود إلى أقوال المهلهل)

عدت مهزوماً . كسيراً . مجزوز الناصية . دخلت في مصيدة الوجوه . يسألونني عن الأب والأبن والزوج . كيف انكشفت الحرب وتناثرت جثث الأهل . . كنت عاجزاً . . كاني هزمت طوال هذه السنين الماضية . وناصرتي المجزوزة تشهد على ذلك . قتلت كثيراً فلم يبعث كليياً . أمر على قبره كل مساء فلا أظفر بعلامة رضى . . أو غضب . لا الآلهة نجيب . ولا الأبار ترجع الصدى . أصبحت قاتلاً مطالباً بثأر المئات . وثأرى لم أبلغه . لعبة الحرب المميتة تركت بصماتها على قلبي . . تحولت إلى وغد جبان . . قتلت صبياً اسمه بجير وصديقاً اسمه امرؤ القيس بن ابان . . وقبل ذلك . قتلت نديمي وصنوروحى هماماً ابن مرة . . وعدت مجزوز الناصية . . يسألني الجميع عن قتلاهم . . صرخت فيهم . .

- مثل لا يسأل عن القتل وهو مقتول . . سنوات الحرب طويلة وقاسية . . لومرت هذه السنين في رفاهية عيش لكانت تمل من طولها . فكيف وقد فنى الحيان . وتكثرت الأمهات . ويتم الأولاد . ورب نائحة لازالت تصرخ . ودموع لا ترقأ . وأجساد لا تدفن . وسيوف مشهورة . ورمح مشروعة . . وان القوم سيرجعون إليكم بمودتهم . . وتتعاطف الارحام من جديد . . أما أنا . . فما تطيب نفس أن أقيم . . ومازال ثأرى معلفاً . . وأنا من اللحظة سائر عنكم إلى بلاد اليمن .

لم يعارضني أحد . . لم يطلب أحد ببقاتي . . لم يتمسك أحد بيوم آخر من القتال . . همهموا جميعاً في ارتياح . . وسرت مبتعداً عن ديارى وقبيلتى . . رأيت غراباً أسود ينقر قبر كليب فواصلت سيرى . . يحاول الغراب أن يصل إلى عظام كليب . . فكيف أستعيد من كان طعاماً للغربان .

ذهبت إلى بلاد اليمن البعيدة . . غربت شمسى وتبعنى الجواد الشاحب . . بدأت الحرب بالأطفال . . وانتهت بالشيوخ . . كل شيء أصابه الهرم إلا ذلك الجواد الهرم على حافة الافق . . وبدأ الصدا يزحف على سيفى . وعلى روحى . جاءت أخبار بكر . . وتغلب . . البصلح . . والسلام الذى استتب . . لم أكن رافضاً . . ولا مؤيداً . . كنت هارباً . . استدار الزمن . . ولم أدرك ثأرى . . وجاءت ابنتى سلمى . . ألحت على أن نعود إلى أرضنا . . كانت مشوقة وكنت أكثر منها شوقاً . ولكن العودة من المنفى حزن جديد .

كبرت سلمى . . وحان وقت زواجها . . لعلها تركت نصف قلبها هناك وتبعتنى بالنصف الآخر . ولكنى تركت قلبي كله هناك . . والمثل كالثبات . . أرقد فوقه كل مساء . . وافقت على العودة . . عدنا من نفس الطرق القديمة . . المسارب الخادعة . . وأحراش الصبار . . وأول شيء بدا من تغلب هو قبر كليب . . لعله ترك موضعه القديم وتحرك ليسد طريقى . . يذكرنى بكل ما حسبت أننى نسيت . . خنقتنى العبرات . . كأنها لحظة اعلان الموت . . عفواً يا كليب . . لم اغتسل . . لم أشرب . . لم أقرب امرأة . . ولم أدرك ثأرك . . وصرخ في وجهى طائر مجهول . . لعله طائر الصدى الذى خرج من رأسه

يوم قتل .. يلعننى طالبا ومطلوبا .. وروحه القلقة تنعى على شيخوحتى وعجزى ..
انحدرت إلى تغلب . استقبلتنى وجوه مستغربة . لم يتصور أحد أننى مازلت على قيد
الحياة وصرخت فيهم .. هيا إلى القتال .. مازلت بكر ترعى . وجساس يحكم .. هل
كان صوتى واهناً .. أم هم الذين أصموا آذانهم .. ؟ .. تركون وسط البنات الثلاث ..
اليمامة .. وعنيزة .. وبديلة .. هتفوا .. سوف نحارب معك يا عماء .. وسخر منا
الجميع . أربعون عاماً من حرب مضت أحاول بعثها من جديد .. لم يتجمع حولى
أحد ..

كونت جيشاً .. من حثالة العبيد والمرتزة والمتعطلين واللصوص .. أى جيش لأخذ
أى ثار .. أهو جنون الشيخوخة .. أم حرقه النار القديم .. سرت إلى تغلب ..
صرخت أطلب دم جساس فصحكوا منى .. هددتهم بالقتل فأشاحوا .. هجمت ..
وما هى إلا جولة حتى تفرق لصوص جيشى واستخزى عبيدى .. ووجدت نفسى أسيراً
عند عمرو بن مالك أحد أسافل بنى ثعلبة ..

شيخ عجوز أسير هو المهلهل .. يضحك منه الصبية .. ويسخر منه الجميع .. حتى
رثائى فى كليب يثير الضحك .. وبدأت أهجو أسرى .. فصرخ فى وجهى .. هددنى
ولكنى بالفت فى هجائه .. أقسم ألا أذوق الماء سبعة أيام كاملة ..

كانت هذه النهاية .. أعرف ذلك .. ووهج الصحراء يتمدد فى عروقى .. والأبار
الجافة تتشقق فى أحاديدي قلبى .. والسراب الخادع .. يحمل لى كليباً شاب جميلاً قوياً ..
كما رأيته دائماً .. كنت أنمى نهايتى .. كنت أصنع من الرمل والدم والطين مفردات وأحوها
إلى أطفال لم أنجبهم .. ونجوماً لم أرها .. وأردد فى النزاع الأخير ..

يا خليل نادياً لى كليباً .
ثم قولاً له .. نعمت صباحاً ..
يا خليل .. نادياً لى كليباً .
قبل أن تبصر العيون الصباحاً ..
يا .. خلد .. لى .. سنا ..
تمت أقوال المهلهل بن ربيعة .



الشاهد الثالث :

هجرس بن كليب

مثل جرادة صغيرة مقصوصة الأجنحة جاءوا بي إلى ديار بكر ، لم أتعلم شيئاً سوى الذى أرادوا أن يعلمون إياه . أن أكون طبعاً مثل عود الخيزران . ومرت على أربعون عاماً طويلة . عشرة قضيتها جاهلاً . وعشرة سألت خلالها كل الأسئلة دون جدوى . وعشرة لم أتلق إلا الاجابات الخادعة . وعشرة فهمت فيها كل عدايات وأصبح الفضاء سجنى الخائى . . ثم رأيت الشيخ العجوز أسيراً . . وكان هناك مطر فى غير موسمه . . وكأبة غامضة تلف الصحراء . ودق المنادى الطبله وهو ينادى . .

- يا بنى بكر . أسر المهلهل بن ربيعة رأس الفتنة وانتهت الحرب . . تعالت صيحات الفرح . عالية . خالية من الحياة . تدافع الأطفال اليتامى والنسوة الثكالى وعجزة الحرب . . والشيوخ الذين قدر لهم أن يشاهدوا بداية التكوين وفساد النهاية . . وكان خالى جساس بعيداً . وأمى تعانى من كوابيس غامضة . وأنا وحيد فى ديار الموت . يمر الموكب من أمامى . يمر من خلالى . وأشباح الأدميين تضطرم حولى . . أرواح قلقة معدبة . . وأصوات الدفوف والمزامير ونباح الكلام . . تتكاثف حولى مثل رائحة ثقيلة . أو لحن ملء بالشجن . مجرد اثباتات باهتة خارج نفسى صرت منفصلاً عن الأشياء . عالم تدب فيه حياة صاخبة ولكنه خامل كالرماد . . والشيخ الأسير مقيد . منزوع العمامة . . فوق بغل هزيل . . ووجه العجوز فى مواجهة الدليل . .

أحدهم يلكرنى . . يدفعنى :

- تراجع يا راعى الغنم . لا شأن لك بما يحدث . .

أبعدنى عن طريق الموكب . فسرت خلف ظهورهم . وهم يلوحون ويهللون . . كانوا يملكون حق الفرح والغضب وحدهم . . وفى يدى عصا الرعى الغليظة . . أربعون عاماً

رأيهم يتحاربون . ويعودون بالجرحى والغنائم ورأيت الأغنام تتناسل والعشب ينفذ
ويذبل ويرتعد تحت الريح الباردة . . لم أجرؤ في لحظة واحدة على أن ألقى عصا الرعى
الغليظة وأمسك سيفاً . .

لست أدري ما الذى حدث بالضبط لكن الموكب استدار ناحيتي . والشيخ العجوز كان
يمضى بحمارته نحوي . . يقف بجانبى فأرى تجاهيد وجهه كالأرض العطشى . ارتعدت
عيناه وهو يتأملنى . انتفضت ملامحه وأشرق عن ابتسامة طفولية وهتف في حنان بالغ . .

- أهوانت يا كليب ؟ .

تراجعت من أمامه . . طوال عمري لم أشارك في الحرب . كنت معذباً بالفوضى التي
تسود دروب القبيلة ، والخوف المنبعث من أعماقي . . وواصل الشيخ التساؤل . .

- كم تبدو صغيراً يا كليب . . كم تبدو راعياً . . ؟ .

لوحث في وجهه بعضى الرعى فاختلج وجهه . لم يخف . بدت عليه خيبة أمل
غريبة . لم يرفع عينيه عن وجهي . . تتمم كأنه يعلم :
- لعلى جننت . . أنت هو . . ولست هو . .

تواصل سير الموكب . والسماء الملبدة بالغيوم لا تحمل وعداً ولا تبعث على السلى .
عاشوا يذفمونى بعيداً . استيقظت أفكارى أخيراً . تحول كل ما أراه وأسمعه إلى نبضات
متواصلة من الألم . إلى رغبات مبهورة وعاجزة . كانت خلايا جسدى تمتص هذه النبضات
وتحاول أن تعيد اتصالى بالعالم . كليب هو القليل . وهو ليس أبى . وجساس القاتل . .
وهو خالى . . وجليلة أمى . . وأنا ابنها من تاجر ضائع . مر بالقبيلة ووضع بذر
ومضى . . لم يترك نسباً . ولا ثروة . . ولا ذكرى . وعندما بدأت العب ألعاب القتال مع
الفتيان . . صرخت أمى . . حبستنى في خيمة سوداء . لم يعطونى إلا عصي الرعى . .
ترهل جلدى . . وتضاءلت روحي . . وتشابكت صورتي مع الأغنام . .

اختفى الشيخ الأسير . وعدت إلى بيتنا . . إلى جليلة أمى . وسعدت زوجتى وابنة
خالى . أصبر جساس أن يزوجنى منها وحسبت أن هذا سوف يرفعنى إلى مرتبة الفرسان .
ولكنى اكتشفت أنها الوحيدة التي تشبهنى . كانت بلهاء . طيبة . يكفيها من الأرض الجزء
الذى تقف عليه . . ومن الجبل الصورة التي تراها . . ومن الليل الطويل مجرد حلم
عابر . . لم يكن لنا معاً إلا الخداع وكنا نتشبث به في قوة . .

قالت أمى وهى ترمقنى في رية : ماذا بك . . ؟ . .

قلت بلا مبالاة : ذلك الشيخ الذى أسروه اليوم . . وقف في مواجهتى وأخذ يدعوى
كليب بن وائل .

هوى وعاء اللبن من بين يدي أُمى . . تناثرت قطع الفخار وسال اللبن على الأرض .
التفتت سعدى ثم عادت إلى شرودها . جلست أُمى على ركبتيها تجمع قطع الفخار واللبن
والطين . . رفعت وجهها وقالت في ذلة . .

- هل أسروا المهلهل بن ربيعة . . هل قال لك شيئاً آخر . .
يا أُمى . . يا جلييلة بنت مرة . أربعون عاماً وأنا جائع بالأسئلة . عطشان إلى قطرة من
المعرفة . أموت في الشتاء . وأتجدد في الربيع . وأسكن في الخريف . وانتظر البداية . . من
الخير يا جلييلة أن يبدأ كل شيء من البداية . . صرخت في . .

- أنت ابن التاجر شريدان . . لست ابن أحد غيره . . أتفهم ؟
أحسيت رأسى طائعاً . فكرت أنه لا يجب أن أكثر من الأسئلة الحمقاء . أن خيبة الأمل
الكامنة في المجهول لا يمكن تجنبها . . وفي المساء سرت إلى دار مالك بن عمرو من بني
ثعلبة . تسترت بالظلام لأراقب الأسير . . كان جالساً وسط جمع من بكر . يتحدث عن
أيام الحرب . ويبكى كليياً . كليب كان زوج أُمى . لكنه لم يكن أبى . ليست هناك من
مناسبة لأمت بصلة القرابة للملك ميت . . كان الشيخ يقول الشعر بصوت متهدج باك . .
إن في الصدر من كليب شجوناً هاجسات .

فكان منى الجراحا . .

ونفض عمرو بن مالك صارخاً فيه .

- أتبكي كليياً وتأكل طعامى وتشرب شرابى . . إن لله على نذراً إن شربت عندى
قطرة ماء أو خمرأ حتى يورد «الخضير» .

وضحك الشيخ المعجوز في سخرية . لم يكن يعرف ماذا يعنى «الخضير» . . ذلك
الجميل الصبور الذى يخرج إلى عرض الصحراء ولا يقرب الماء إلا في اليوم السابع . ضحك
الشيخ وانصرف إلى داخل سجنه . وبقيت وحدى . لا تربطنى به أى صلة قرابة . . قد
يكون عم أخواتى . . ولكنه ليس عمى . . من المؤكد أن أبى هو ذلك التاجر الذى مر على
بكر والحرب فى أوج ضراوتها ومع ذلك وجد الفرصة ليتزوج . . وينجب . . ثم يمضى . .

كنت أعرف أن جسد المعجوز لن يتحمل أيام العطش . . قلت في نفسى . . وماذا
يهمنى ؟ . القضية أننى أفق وسط قبيلة لا تربطنى بها سوى صلة الدم وقرابة غامضة . .
وأنا أحاول جاهداً أن أنتزع طفولتى من بين التراب . .

صعدت الجبل فلم أر القمر . . ونزلت فرأيت أُمى عائدة من نخباء خالى جساس . .
كنت أسبح في زمن غير زمنى . . هجرس المسكين وقد تغير تماماً . . يضرب رجمه في
الأرض . . ويشقف سيفه ويغشى الحانات ، ويمتطى الخيل والوحشة . ويتحدث عن النساء

بكلمات مكشوفة وبديثة . كل هذا يستلزم أن أولد من جديد . الأتنجيني جلييلة من تاجر عابر . . . وألا يعلمنى جساس الطاعة ثم يزوجنى من سعدى .

جاء صباح أول أيام العطش . قلت لنفسى سوف أنسحب بعيداً . لم أشهد جريمة من قبل . . . ولن أشهدها اليوم . . . واجهتني الاغنام بعشرات الأسئلة وأنا صامت كانت الشمس في مواجهتى فأغمضت عيني . لرهة خاطفة حلمت بالشيخ ووجهه مغطى بقناع من الملح . . . فتحت عيني فرأيت خالى جساس يمدق في غاضبا . . .

- ماذا قال لك الشيخ الأسير ؟ .

قلت في هدوء . قال إني كليب بن وائل . . .

اقترب منى حتى شممت رائحة أنفاسه . . . وهتف في تأكيد . . .

- ولكنك لست كذلك . . .

قلت في هدوء . . . ولكننى لست كذلك

حاول جاهداً . . . للمرة الأولى كما اعتقد - أن يستكشفتنى . لم يقل شيئاً . ولم أرد عليه . لم يكن بيننا أى اتصال . كان يبحث في عن الصعف المعهود الذى سوف يهبه اليقين الكاذب . استندت إلى شجرة كانت بجوارى . كنت أسمع فوران العصاراة في داخلها . . . لو أننى أمد يدي فيجربى في عروقى دمها الذى لا لون له . فأتمو دون خجل . وأزدهر بلا ألم . ثم أذبل دون حسرة . . . تراجع خالى عنى . لعله اكتشف بالفعل بعد هذه الاربعين أننى بالفعل أشبه كليياً بن وائل . . . هتف بى من بين أسنانه . . .

- يا راعى الغنم . . . يا راعى الغنم . . .

كنت حقاً راعى غنم . ولكن لا بد أن جثت الحرب قد أنبتت هذا العشب . . . ومنه تأكل الأغنام التى أرهاها . لا بد أن لى صلة ما بهذه الحرب . . . صرخ جساس في وجهى . . .

- أمنعك من الذهاب إلى هذا الشيخ . . . أتفهم . . .

كان الشيخ يموت في هذه اللحظة . . . يمد يده ويستصرخنى . وجساس يستدير لينصرف . . . لم يقتنع بعلامات البلاهة فوق وجهى . . . وهبطت . . . كانت جلييلة ساهرة في انتظارى . . . شاهدت النظرة التى استقبلتنى بها . أدركت أنها عرفت أننى اكتشفت كل شىء . . .

وفي اليوم الثالث . دقت الطبول تعلن موت الشيخ العجوز . . . كان بعض الفرسان وقد هالم قسم مالك بن عمرو قد خرجوا في الصحراء لكى يأتوا بالخضير . ولم يأت الخضير . . . لم يكن في تغلب من يابه بالسعى من أجل ثار جديد . أخرجوا جثته . وضعوها فوق البغل الذى جاء به . تدلت قدماه من جانب ويداه من الجانب الآخر . ولكزوا

مؤخرته فسار إلى ديار تغلب . . رسالة صامته . . متواطئة . . هذه هي النهاية . . وهذا هو ثمن الصلح . .

مات عمى . إن كان ما أحسه حقاً . وهذه حقيقة أخرى غريبة . . حاولت . . وحاولت أمى . . وخالى . أن نفتح أنفسنا أنها غير موجودة . لم أحس بالحزن بقدر ما أحسست بالحجل . استسلمت بسرعة لهذا الاقناع الساذج . . سارت البغلة فتبعتها . تذكرت كل نظرات السخرية وضحكات الاستهزاء . لقد اخترت الطريق السهل وهربت من الحقائق كأنها أفاع سامة . . هربت داخل نفسى .

سرت وراء البغلة . يربطني بالجسد الميت خيط عنكبوت جراح . . أخرج من الدروب إلى فجاج التلال . ومن الفجاج إلى الصحراء الواسعة . والجسد الميت يكتسب حركته من حركة البغلة . كان الأمر يتطلب شخصاً غيرى لكى يدرك منذ مدة طويلة . . وأنا أصعد . . أهبط . . وديار تغلب بعيدة مثل سراب . كان هذه الرحلة لن تنتهى أبداً . . ثم فوجئت بالصيحة . كأنما تفجرت من داخل الصخور ومن ذرات الرمل . .

- قتلوك يا عماء . .

تلقت حولى فى رعب . . من خلف الأفق برزت امرأة . . طويلة نحيفة ترتدى السواد . . وتقبل سريعة نحو البغلة التى تسير فى ثبات بالغ . كان الصدى يحمل الصوت ويفتته ثم يعيده . . وقفت أمام البغلة . جئت فى موازاة الرأس المتدلى . . وأخذت تميل الرمل على رأسها . . وأنا أقترب كأتى منوم . تسوقنى ريح مجهولة وقفت أمامها . . كانت الشمس فى ظهرى وسقط ظلى على وجهها . رفعت رأسها إلى . . وكالبرق الخاطف مر فى عينيها ظل من الكراهية . أمسكت خطام البغلة . . وساعدتها فى انزال الجثة . . تأملت وجهى قليلاً . . ثم هتفت . .

- ياله من جنون . . كليب راعى غنم . .

كانت طويلة . نحيفة . شاحبة . كانت امرأة غير حقيقية بصورة من الصور . لم يعد يجهدنى الحرب . . كانت هى اليمامة . أختى . أشد هرمأ منى . انفرست عيناها كالخداة فى قلبى . تسألنى من أنا . . عن حقيقى التى أجهلها . استخذيت أمامها وأخذت أسرد اعترافى . ختموا على قلبى بالرصاص . زرعونى فى بكر دون جدور . سرقوا شمسى اليومية . وعمدنى الكهنة بماء الأبار المسمومة . عشت دون ندم . وتقبلت سوءاتى بلا حجل . وتزوجت دون أى رغبة فى مواصلة الحياة . . وهأنذا أيتها اليمامة البيتية . . أدركت ذات لحظة أن الأرض مكان غير صالح للسكن وظللت عاجزاً عن الانتقال إلى مكان آخر . .

هتفت اليمامة فى وجهى باحتقار بالغ . .

- وأنت أختى اذن . . منذ متى عرفت ذلك ؟ .

سوف أكون كاذباً لو قلت أن ذلك منذ أيام قليلة .. صرخت ..
- وتركته يموت .. لقد شاركتهم في قتله ..
من العبث أن أنكر .. ومن البلاهة أن أبكى .. وأربعون عاماً مدة طويلة لأصدق
كذبة واحدة .. قلت ..
- سوف أعود إليهم ..
قالت في حدة ..
- لترعى الغنم !

لم يكن بيننا أى مشاعر مرثية .. لا حنين ولا حنق . أخذنا نحفر سوياً في الرمل ..
جهزنا قبراً واسعاً وضعنا فيه الجسد المتهالك الجاف . كنت أريد أن أضع له شاهداً لكنها
رفضت . ساوته بالأرض كأن لم يكن .. قلت لها أننى سأعود فلم تبالي بي .. استدارت إلى
ديارها . وسرت مبتعداً والبلغلة واقفة بجانب القبر . سرت طويلاً . وبدت نيران بكر مثل
عيون الليل ترقبني . وصلت إلى خبائى وسمعت تأوه جليلة .. كابوس آخر .. وكانت
سعدى تنتظر بروز القمر من خلف الجبل .. بدونه تحس أنها طفلة . يتيمة .. ضائعة ..
كنت بحلجة للمسة من الحب . وكان جسد سعدى صامتاً . محمداً بين ذراعى ، كنت
أفكر في حنق . هل يكون ثمناً عادلاً أن أقتلها الآن .. وهى عارية .. كانت هى
صورتى . انعكاس وجهى الابله الصامت . تفتح شفيتها وتغلقها في حركات متتابة .
تردد تعويلة قديمة لم أسمعها .. لعلنا عجزنا عن أن ننجب طفلاً بسبب هذه التعويلة ..
من الذى يحدق في جسدينا العارين . جليلة المتواطئة . أم كليب المقتول .. أم جساس
القاتل .. أصابعى على عنق سعدى . أضغط وأدمم .. وعيونها تبحلق في باستغراب
يخالطه الرضى .. وجليلة تصرخ ..

- ابتعد أيها القاتل .. سوف تقتل زوجتك ..
أزاحتني بعيداً . كنت ألث . ونهضت سعدى . ارتدت ملابسها في صمت ..
وانصرفت هادئة . انجهدت إلى منزل أبيها .. واجهتني جليلة . رفعت عصاها لتتهوى بها
فوق رأسى . ولكنى نادرتها قائلاً ..

- لقد قابلت اليمامة ..
تراجعت من أمامى وهى ترنجف . وخرج القمر من وراء جبل «المثنى» ولكن سعدى لم
تكن هناك ..

لم أتصور أن يجيء الصباح . أن ترتفع الشمس وتعرينى . قضيت الليل بلا نوم وبلا
رغبة في فعل أى شيء .. كان يجب على أن أسمى في الظلام لقتل جساس كل ما فعلته أننى
غرست أصابعى في عنق سعدى .

وجاء جساس يسعى إلى خيمتي .. حذق في قليلاً ثم جلس مقهوراً وهو يقول :
— أنت ولدى وزوج ابنتي .. وبالمكان الذي عرفت .. وهذه الحرب طالت حتى كدنا أن
نفنى .. والآن وقد اصطلمحنا وتحاجزنا فلا تدع نهر الدم يمجرى من جديد .

أمسكت عصا الرعى . كانت سعدى وجليلة واقفتين وكنت قد خسرت كل شيء
تقريباً :

- ما جدوى الصلح حين أبعديه ومثل يمسك عصا الرعى ويلبس البرد الخشن .
- بدا على وجه خالي بعض من الأمل .. حسب أنى فقط أريد المساومة .
- وماذا تريد ؟ .
- هتف بالامنية التي عذبتني طويلاً .
- أريد أن أكون فارساً .

أعطني جواداً .. ورمحاً .. وسيفاً .. اعطني اسماً .. ونسباً . ألبسى درعاً وأزرع
جذورى .. ثم أسألني ودعني أختار .. كان جساس مذهوشاً .. وأمى حائرة ..
- مثلى لا يصلح في ثوب الرعيان ..
إن كان كليب أبى حقاً فقد مات فارساً . وإن كان دمه قد برد وثأره قد تبدد فلا بد أن
أفعل ما أفعل في نبل الفرسان .. لا في ذل الرعيان .. وهتف جساس بـ ..

- لا عليك يا ابن أختي .. سوف تصير فارساً .
كان خوفه القاتل من الموت قد استحال حباً . أسرع يقدم لى فرسه . وتخلت سعدى
عن عزلتها وهي تلبسى الدرع . واعطوني سيفاً ثالماً .. ورمحاً قصيراً .. ولكنى أصححت
فارساً في الأربعين من عمره .. أول معاركه هي المصالحة في دم أبيه . وعطش عمه
ويتم أخوته .

سار جساس بـ .. وسط جموع وفود بكر وتغلب من أجل الصلح .. كنت أقتلع .
وأسمع دمدمات الأبار تدعوني للفرق .. لعل أتظهر .. أولد من جديد .. جموعهم
تتلاصق وقد ملكها نوع من الجسون . يدورون بـ كدوامات الماء . كريح الصحراء
العاصفة .. الصلح .. مات كليب من زمن . وكان المهلهل أحمق . أربعون عاماً من الدم
فيها الكفاية والكفارة .. ووقف جساس خطيباً ..

- هذا الفتى أبوه كليب .. وخاله جساس وعمه المهلهل . وقد جاء ليدخل فيما
دخلتم فيه .. ويعقد ما عقدتم عليه ..
كان هناك إناء فخاري . ملء بقطرات الدم .. خليط من دم البكرين والتغليين ..

يريدون أن يكتبوا به عقداً . . ويوقعوه . ولكزنى جساس حتى أتقدم وهمس .
- هيا . . اجرح يدك . واقطر دمك . .

أنا راعي الغنم القديم . يأمرنى قاتل أبى بالصلح . . وحولى الوجوه الخائفة المترقبة .
يعانون جميعاً من المظالم الصغيرة . والثارات المبتورة . ومن تتابع الأيام والليالى دون
جدوى . . من أعمار الشيخوخة . ومن ذل الصلح . . ومهانة الحرب . من كل
التعاملات التى تشكل تفاصيل الحياة .

- هيا . ضع رمحك . . وصالح .
أمسكت رمعى . . وصرخت . أخيراً صرحت . . حتى أنى لم أكن أصدق أنى الذى
يصرخ . .
- وفرسى وأذنيه . . ورمعى وبصليه . . وسيفى وغراريه لا يترك الرجل قاتل أبيه
وهو ينظر إليه . .
وأنفذت رمعى فى صدره . .

كانوا يصرخون حولى . يجرضون لحظات الزمن الميت . يحاصرونى فى ثورة
وغضب . . كفى عن الصياح أيتها الأغنام البائسة . . اننى أرتعد فوق جوادى وأحاول
الانطلاق إلى رحب الفضاء . . حولى السهام وفى جسدى الرماح وساعة القدر قد
أزفت . . إن الأحياء لا يعرفون شيئاً فعلمينى يا روح كليب . يا أرواح وائل .
وتغلب . الوداع يا بكر . . والسلام على نفسى التى انتظرت طويلاً وتعذبت بما فيه
الكفاية .

تمت أقوال هجرس بن كليب .
وانتهت الحرب . . وحفظت القضية .



الحارث بن ظالم المري

طائر الصدى يدرك نأره

في صدر الحارث طائر غريب . . هو طائر الصدى . . منذ أن خرج من رؤوس قتلى قبيلته وهو يتلظى من العطش ومن الاحساس بالخزي . . يطوف الفيافي والمقابر لعله يدرك نأره . . لم يفارق صدر الحارث أبداً . . حتى عندما تخلوا عنه وتركوه نهياً لريح السموم وخذعه الملك النعمان وباعوا سيفه وعباءته في سوق عكاظ واستحلوا دمه وعرضه والطائر يلطم صدره بجناحه يحرقه بالعطش وجوع الرماد .

قبل أن يولد كانت كل المصائر قد أعدت والتصق خالد بن جعفر به كوجه الآخر بعد أن هجم على قبيلته وقتل كل من فيها من الرجال وبينهم والد الحارث . لم يترك خلفه سوى قبيلة من النساء الثكالي ، اللات لا يجدن غير لبس السواد وترديد المراثي . . فتح الحارث عينيه ليجد أمه . . وأخوته . . وخالاته . وعماته . . كأنهن وجه واحد . صرخن فيه قبل أن يبدأ هو صرخاته . . رددن على مسامعه اسم خالد حتى حفظه قبل أن يعرف اسم أبيه . . أو أمه . . كان خالد هو قدره . .

ثما وسطهن مثل نبات برى . . تطلبه أمه ليشد عصاب الناقة لتستطيع حلبها . . وتنتظره خالاته حتى يحضر لمن الحطب . . وتبقى عماته عطاشا إلى أن يخرج لمن الماء من البئر . . ولا تكف أصوات البكاء عن ملاحظته . . وكلهن يصحن في وجهه مطالبات بالثار . . كأنه هو الرجل الوحيد في العالم . . وخالد . خالد بن جعفر بن كلاب بن عامر . . يطارد كل لحظة من طفولته . . وفي الليل تحبو النيران ويفرش القمر ضوءه على المقابر . . ولا تتركه أمه يغرق في النوم قبل أن تقص عليه كيف مزق خالد جسد أبيه وتركه مشاعاً للضواري . . وعندما ينام تدمم الريح باسم خالد . قتل عمه . . وخاله . .

وزهير بن جذيمة سيد غطفان .. وورقاء العبسى .. وغيرهم من سادات العرب .. لا يتوقف سيفه ولا تتراجع خيله .. فكيف قدر للحارث وحده أن يتحمل ثأر هؤلاء .. ؟ ..

وعندما كان ما يزال صغيراً .. هبط أحد الصعاليك على القبيلة .. أخذ يهوس في الخيام الخالية من الرجال .. يكسر الأواني .. ويشد شعور النساء ويمزق ثيابهن .. وحين حاول الحارث الوقوف في وجهه اطح به في ضربة واحدة .. وجرت النسوة فزعات يملمن لحمهن العارى .. وانصرف الصعلوك وهو يتوعدهن بالعودة وقضاء الليل بأكمله وسطهن .

وعندما هبط أول سوق .. اشارت القبائل إليه وهم يقولون .. هذا هو الحارث بن ظالم المرى .. من قبيلة النساء .

لم يعد اسم قبيلته «هوزان» .. لم يعد له قوم يعتد بهم .. تداخلت اسماء النسوة في نسبه .. وركبه خزي النواح .. وامتلاً قلبه بكل أحزان الأراميل .. فأخذ سيف أبيه وخرج إلى الصحراء .. أقام من كل أشكال الصخور صوراً لابن جعفر وأخذ يضرب .. ويرمى السهام لعل هذا يخفف من احساسه بالمهانة لكن عيون العابرين جاثمة كلما سمعوا عن قبيلة بلا رجال تحركت شهيتهم .. وود الحارث لو يخرج من جلده .. من وشم أصابعهن على جسده .. تحول إلى حيوان برى . مفرد . معزول .. لا يرضيه غير امرين .. ان يكون ثأره معلقاً بكف خالد بن جعفر .. وان تكون قبيلته من النساء .

ماذا أفعل حين أقابل خالداً .. ؟ .. هل أبادره بالقتل .. أم أميته ببطء بعدد كل لحظات عذابي ومهانة طفولتي .. ؟ .. ثم تقابلا .

رحل الحارث إلى الشمال .. إلى مدينة الحيرة عاصمة الملك النعمان .. حيث تذهب كل وفود العرب لتقديم فروض الطاعة والمهدايا السنوية للملك .. وقدر للحارث أن يرحل أخيراً . كان قد أصبح شاباً قوياً .. واكسبته العزلة نوعاً من الصلابة وجعلت تصرفاته أشبه بالشراسة الحيوانية .. أخذ بضعا من الخيول التي بقيت في قبيلته بعد أن سلبها الغزاة كل شيء .. فنشبت ضعيفة مثل نساء القبيلة .. رحل بلا سيف .. فلا أحد يدخل الحيرة بسيفه .. وهناك رأى خالد بن جعفر للمرة الأولى .

« أهذا أنت .. ؟ .. » .. تساءل الحارث في حرقه وخالد واقف بجانب العرش منتصب القامة كأنه تمثال صخرى قاس .. والساحة واسعة .. والعرش عال .. وأعلن الحراس اسمه .. واسم قبيلته .. والحارث يتقدم ممسكاً بأعنة الخيول الهزيلة .. وخالد

يتنفس في صوت عال كأنه يتوعده . . « أهذا أنت ؟ » . . لم يكن أى منها متقلدا سيفه . .
كانا في حماية الملك الابصر الأحمر الشعر . . ووفود القبائل من مضر واليمن وربيعة . .
تحصى أنفاسه اللاهثة . . وهو وسطهم ضئيل . . حائق . . مرور . . وهذه البسمة
الساخرة على وجه ابن جعفر تجعل كل قطرة من دمه تتوفز . . وضع أعنة الخيل عند قاعدة
العرش وهتف بالكلمات التي لقتوها له .

- ابنت اللعن . . نعم صباحك . . وأهل فداؤك . . هذه أفراس من خيل بنى
مرة . . لن تأتي بفرس يشق لها غبار .
وقاطعت الضحكات كلماته . . انفجر خالد في ضحكة مدوية ، نزل من جانب
العرش أخذ يدور حول الحارث . أشار للخيل في سخرية وهو يقول .

- أتقدر هذه على شق غبار . . ؟ . .
وانفجرت الوفود في ضحكات متصلة . . نظر الحارث للملك يستنجد به . . لكن
وجهه كان خالياً من أى تعبير . . وصعد خالد وأخذ يهمس في أذنيه . . وتمحلت هذه
الهمسات إلى تقلصات غاضبة على وجه الملك حتى نهض وهو يصرخ في الحارث .

- يا حارث . . أرى خيلك أشباها . . اين اللواتي كان إذناها شقاق اعلام . وكان
مناخيرها وجار الضباع . . وكان عيونها بغايا النساء .
وصاح خالد .

- زعم الحارث أن تلك خيله وخيل آباؤه .

وزفر الملك . . واحس الجميع أن الحارث سوف يرد خائباً . . مغضوباً عليه . لكن
وزير الملك تشفع له . . وأشار الملك للجميع بالانصراف . . وابتلع الحارث أول
الاهانات .

في المساء ذهب الحارث إلى حانة في الحيرة . . كان الشراب مرأ . . وازدادت مرارته
عندما دخل ابن جعفر وحوله قومه من بنى عامر . . وجلجلت الدفوف بالتحية
وخرجت «بنت غفرز» المغنية من مؤخرة الحانة . . وقفت أمامهم تغنى . . وظل الحارث
مسلطاً أنظاره على خالد . . فوجيء به يلتفت ويتأمله . . ثم يشير إلى بنت غفرز يلقي لها
كيسا من الذهب وهو يهمس في إذنها . . ودقت الدفوف والصاجات . . وانتصبت
المغنية . . وغنت . .

دار لهند والرباب وفرتنى .
وليس قبل حوادث الأيام . .

بدأت طقوس المهانة . . استدارت الوجوه لتتطلع إليه . . وبت غفرز تغنى . . عن أمه وخالاته وعماته . . تعرض بهن . . وانكسر الكأس الفخارى بين أصابعه . . والتفتت بنت غفرز إليه . . فوجئت بوجهه الصلد . . وبنياه البرى الغريب . . وهو يمدق فيها . . يتأهب لقتلها . . كانت قد أخذت به . ارتعدت تحت وطأة نظراته الغاضبة . . اقتربت منه . لكنه نهض غاضباً مجنوناً . . دفعها بعنف ووقف أمام خالد . وتأهب حراس الملك . وتأهب بنو عامر . . تأهبت الحيرة كلها . . والحارث وحيد أعزل . . ولم يكن أمامه إلا أن ينسحب ويتلج الاهانة الثانية . . وظلت ملاحه الصلدة أمام عين بنت غفرز . . وآثار أصابعه على كتفها . . ولم تعد قادرة على الغناء .

وفي الصباح توجهوا إلى مائدة الملك النعمان . . جلس الملك في المقدمة . . وجلست بقية الوفود على الجانبين . . واختار خالد أن يكون في مواجهة الحارث . . احضر الخدم أواني التمر الذى تشتهر الحيرة به . . ووضعوها أمامهم . . وظل خالد يأكل ويلقى النوى بين يدي الحارث . . وهو يأكل في صمت كظيم وكومة النوى تكبر بين يديه وبنو عامر لا يكفون عن الضحك . . وعندما فرغ خالد توجه بالحديث إلى الملك .

- ابيت اللعن . . أنظر إلى ما بين يدي الحارث من النوى . . ما ترك لنا تمرأ إلا وأكله .

ولم يتلج الحارث الاهانة الثالثة فرد عليه .

- أما أنا فأكلت التمر والقيت النوى . . وأما أنت فأكلته بنواه . .

ووجم الجميع . . كان خالد لا ينازع ولا ترد له كلمة سواء بين قومه أو فى أى مكان . . صباح غاضباً .

- أتنازعنى يا حارث وقد قتلت حاضرتك وتركتك يتيماً فى حجور النساء ؟ .

- ذاك يوم لم أشهده . . وأنا مغن اليوم بمكانى . وضحك خالد ضحكة جافة وقال مههدداً

- فهلا تشكرلى إذ قتلت زهير بن جديمة وجعلتلك سيد غطفان .

واستدار الحارث خارجاً دون أن يابه حتى باستئذان الملك

وفى الحانة عندما بدأت بنت عمزز فى الغناء رأت الوجه الصلد يتطلع اليها . . أحست بأثار أصابعه التى أنشبهها فى كتفها . . ألقى اليها كيساً من الذهب وطلب منها أن تغنى .

تعلم - ابيت اللعن - انى فاتك من اليوم أو من بعده باين جعفر . . أدركت معنى ما حدث بالأمس . . لم تأخذ النقود . . لكنها غنت من أجله . . لعله يلين قليلاً . . جلست أمامه وهى تهتف به .

— ألك حاجة .. ؟ ..

قال بصوت بارد .. أريد سيقاً ..

وظلت بنت عفزز تمدق فيه .. فكرت أن تتركه .. لكنها لم تفعل .. وذهبت الأخيار إلى خالد فاستقبلها باستهزاء .. لم يبق إلا هذا الغلام الذى يهدده .. وهتف به أخوه الاحوص أن يخفف مبيته الليلة لأن الحارث رجل موتور قد غلبه الشراب .. وضحك خالد .. لكن الاحوص ظل يلح عليه حتى قبل أن ينام معه « عتبه » ابن خاله .

سارت بنت عفزز والحارث خلفها إلى أقصى مدينة الحيرة .. واستيقظ اليهودى تاجر السيوف مفزوعاً .. اعتذر عن طلب الحارث لأن أوامر الملك كانت مشددة .. وتدخلت بنت عفزز .. وكانت لها معرفة سابقة بالتاجر .. ووضع الحارث أمامه كل ما معه من قطع ذهبية .. واقتنع اليهودى أخيراً .. نزل إلى قبو المنزل وعاد بالسيف .

لم يشهد الحارث ما هو أروع من هذا النصل اللامع المصقول .. انعكست

ذبالات المصابيح على صفحته في وميض خاطف كالبرق .. واقسم اليهودى أن هذا السيف جاء خاماً من الهند وظل يجلوه شهراً كاملاً ثم نفعه في سم الافاعى ثلاثة ليال قمرية .. وتحسس الحارث بأصابعه نقوش الثعابين المحفورة على حافته وتمتم .
- سوف يعرف الجميع هذا السيف .. « ذى الحيات » .

وانصرفا واليهودى يلح عليهما في كتمان السر .. نظرت إليه بنت عفزز .. لقد بقى عليه أن يفى بوعدده لها .. قالت ..

- كما اتفقنا .. هذه الليلة لى ولتؤجل نارك للغد .

ومرة أخرى تأملها .. كأنه لم يكن يشعر بوجودها .. هى تهمس .. وتجذبها وطائر الصدى يرف في صدره .. واشواك المهانة حول رأسه .. وللمرة الثانية دفعها دفعة قوية ألقت بها على الأرض وانطلق إلى حيث ينزل بنو عامر .

في المنتصف خيمته . من الجلد الأحمر المدبوغ . والنيران خامدة . وبرد الحيرة تجمع في دماء الحارث .. تحرك في خفة القط .. ورفع الستر فرأى عتبه نائماً .. تحطاه فرأى خالداً .. تنفتح أوطجه مع صوت التنفس . رفع سيفه .. لو أنه يملك أن يوجه له نصف الاهانات التى لاقاها بسببه . هوى بالسيف على الودج .. شخر خالد كالدييحة . انتفض جسده في رجة عنيفة .. ولم يفتح عينيه .. عتبه هو الذى فتح عينيه مذعوراً . وقفز الحارث نحوه امسك عنقه وهو يرفع السيف الذى يقطر دماً .. هتف به .

- أحبر الناس أننى قتلت خالدأ . .
وضرب رأسه بمقبض السيف . . ثم فر حارجاً من الخيمة . . ومن الحيرة . . ومن كل
بلاد المناذرة

الصحراء يا قلبى الطليق . . يا أمى . . يا خالاتى . . يا عماتى يا كل نساء الصحراء
لقد أدركت ثارى . . قتلت خالدأ . . ذلك الجزء القلق المعضب من نفسى . . تزينت عباءتى
بقطرات دمه وبللت ظمأ طائرى . . يا غطفان . . يا عبس . . يا كل ذرات الرمل . . لقد
قتلت وجهى الآخر . . فهل أنعم بلحظة من الحياة دون احساس بالعار . . ؟ . .

ومع أول خيوط الضوء سأل نفسه فى حيرة . . أين أذهب ؟ . . سوف يطلبه بنو عامر
لاقصى الأرض . . ولن تهبه نساء قبيلته إلا أغاريد الفرح والأسرة الوثيرة . . إنه فى حاجة
إلى رجال حقيقين . . يقفون معه . . وقرر أن يتوجه إلى غطفان . . أبناء عمومته . . لقد
ظفر لهم أيضاً بثأرهم وسوف يصبح بهم سيد الصحراء .

لم يصدق الملك النعمان أن الحارث جرؤ على فعلها . . وحين رأى رأس خالد
المقطوعة أدرك مدى الاهانة التى وجهت إليه . . لقد اعتدى على حرمة وحرمة مدينته . .
وصرخ فى وفود العرب .

- الحارث طريدى . . وثأر خالد ثارى . . ومن أجاره من العرب عدوى .
وجهزت بنو عامر خيولها . . واعطى الملك أوامره المشددة «للملحاء» أقوى كتائب
جيشه وطار الخبر مع القوافل المسافرة . . ومع الرواة والصعاليك . . دم الحارث مباح .
ودم مجيريه مهدد .

ووقف الحارث أمام غطفان . . كانت خيامهم ترتعد إذ تمسها ريح الصحراء . .
ووقف أمام شيخ القبيلة عمه سنان بن أبى حارثة المرى . . لم يسمحوا له بالنزول . . ولا
بالتزود بأى ماء أو طعام . . هتف مذهولاً

- لقد نلت ثارى . . وثأركم
لكنهم كانوا يعرفون فداحة الخطأ الذى ارتكبه . . قال عمه . .
- لقد جررت علينا عداوة الملك . . ولا طاقة لنا به .
واختبأوا فى خيامهم المرتعدة . . وتخلوا عنه . . وعاد جواده ينهب الأرض . . ما أقسى
طرق الصحراء حين تتشابهه والصدفة العمياء حين تقودنا للنجاة . . أو الموت .

وصل إلى تميم لم يدرك رئيسهم حاجب بن زرارة خطورته . . فاستضافه فقدم له
اللبن والتمر وجلس يستمع إلى قصته . . ولم يلبث أن علت وجهه علامات القلق . .

وانسحب بقية وجوه القبيلة . . وأخذ حاجب يبحث في داخله عن مخرج من هذه الورطة .
وصل بنو عامر . . اسروا امرأة من بنى تميم كانت تجمع الحطب . . وطلوا يصعطون
عليها ويهددوننا حتى أخبرتهم بمكان الحارث من بنى تميم . وتوفرت سيوفهم للثأر كان
الاحوص على رأسهم . . يعانى من ارتخاء جفنيه . . فإذا استعد للحرب عصبوا رأسه
ليرفعها . . فإذا رأى لا يرحم . . . واستطاعت المرأة الهرب إلى قومها . وان تمخر حاجباً
بأوصاف بنى عامر الذين يقبلون بوجوه الأطباء ويدبرون ناعجاز النساء . واستدعى
حاجب الحارث وسأله .

- هؤلاء بنو عامر قد أتوك فما أنت صانع . . ؟ .
- أدرك الحارث إلى ماذا يرمى السؤال . لو أنه عازم على نصرته لما سأله .
- أجاب في حذر . .
- ذلك إليك . . إن شئت اقمت فقاتلت القوم . . وإن شئت تنحيت .
- وكما توقع قال حاجب في ارتياح .
- تنح عنى غير ملوم .

وغضب الحارث فانطلق يهجو شعراً . . ورد حاجب المهجاء . . وأوشكا على التشاجر
ويحول بنى عامر تقترب . . ولم يكن أمام الحارث إلا أن يهرب . ولم يكن أمام حاجب إلا
أن يخرج لهم ويرشدهم للطريق الذى هرب منه الحارث

وهجم الملك النعمان على غطفان لكن رئيسهم سنان حدد موقف قبيلته قائلاً
- ابيت اللعن . . والله ما ذمة الحارث لنا بذمة . . ولا جاره لنا بجار . ولو أمته ما
أمناه .

وظل الحارث يمرق . . ينام ليلة ويسير أياماً متواصلة . وانتشرت الملحاه كالرعب
الاسود بعرض الصحراء . . تهجم لمجرد الشك . . وتقتل عند أى شبهة . وانتشر على
طريق مطاردته خط الموت والمقابر . . كل النجوم غادرة . . وكل علامات الطريق
مضللة . . وطائر الصدى يغرس منقاره في الرمل . . لعل هناك مكاناً وحيداً آمناً ليلة
واحدة بعيداً عن كوابيس المطاردة . . ذهب إلى كندة . فقالوا له . لا نجاة لك إلا في
حضر موت . . ذهب إليها قالوا عليك بأرض بكر بن وائل . . سار حوفاً . . وسار
عطشاً . . ووقف أمام رئيسهم زبان يحكى مرارة ثأره وعسر مطاردته ويمدح كرمه ووفاءه في
قصيدة طويلة . . وأجاره الرجل . . لكن قومه اجتمعوا إليه . صاحوا على مسمع من
الحارث :

- اخرج هذا المشوم من بين أظهرنا حتى لا يعرضنا بشر . . لا طاقة لنا بالملاحه .

ورفض زيان أن يتخل عنه . . خاصة بعد هذه القصيدة الجيدة . . واشتعلت نار الخلافات بين بطون القبيلة ذاتها . . وجنود الملك يقتربون . . وعاد يهرب من جديد . . تواصل الليل بالنهار . . لا راحة . . ولا سكون . . واستطاعوا محاصرته في أحد الجبال . . لكن سهامه ظلت تنهال عليهم . . فكلما هجموا على مكان اكتشفوا أن السهام تقتنصهم من مكان آخر . . وفي النهاية استطاع أن يفلت منهم وتركهم يرصون قتلاهم . .

مع كل هرب جديد . . كان غضب الملك يزداد . . كل انتصار يحققه الحارث يهز عرشه . . والانبياء تنتشر وسط قبائل العرب . . الحكايات والاشعار . . والملحاء تحولت إلى حفنة من الجنود البلهاء يطاردون الريح . . بدلاً من أن يترصدوا للحارث . . أصبح هو الذى يترصد لهم . . من طيء إلى بكر . . ومن بكر إلى تميم . . ومن حضر موت إلى عروض اليمامة . . وبدأ شعراء الغساسنة يتندرون على عجز الملك النعمان . . وأرسل كسرى ملك الفرس يتساءل . . والحارث يسجل بالشعر كل لحظة يمر بها . . حتى أن الرواة نقلوا إلى الملك آخر ما قاله من أبيات الشعر .

بدأت بهذى ثم اثني بمثلها . .

وبثالثة تبيض فيها المقادم . .

وصبرخ الملك في غضب . .

- ما يعنى بالثالثة غيرى . .

لقد أصبح الحارث هو الذى يهدد . . وزفر الملك في غيظ . . لكن وزيره انحنى وهو

يقول . .

- اببت اللعن . . لا أراك تنال منه شيئاً أغيظ له من أحد جاراته وسلب أموالهن .

وهذا غضب الملك . . أمر جزءاً آخر من فرسان جيشه بالهجوم على هوزان - قبيلة

النساء - أن يهدموا الخيام على رؤوسهن . . إن يقتلوا العجائز ويأسروا الصبايا . .

وفوجيء الحارث بأحد الصماليك وهو يبرز أمامه ويهتف به .

- ماتت أمك . . قتلها جنود الملك النعمان . .

وبوغت الحارث . لم يتصور أن يلجأ الملك لهذه الدرجة من الانتقام . . إن الثار هو

علاقة دموية بين الرجال . . فلماذا تدفع النساء الثمن . . ؟ . .

لم يحزن . . يكفى كل أحزانه الماضية . . عليه الآن أن يرد الضربة . . سيذهب إلى

الحيرة ليواجه الملك في عقر داره . . ولن يساعده على ذلك إلا بنت عفرز .

عاد إليها . . ظلت ترقبه في شك . . أدركت أنه يسعى خلف مقتلة أخرى . . لكنها

صمت . . وأخفته في حجرتها . . وودت لو تخفيه في قلبها .

هبط متنكراً إلى الأسواق . . كانت نظرات الحرس المشككة تفحص الغرباء وتحيط
سياج القصر . لم يستطيع الاقتراب . . وخرج الملك النعمان من القصر . . سار في موكبه
الاسبوعى عبر المدينة إلى قصره على النهر . . بلحيته الحمراء ووجهه الابرص . . ظل
الحارث واقفاً يحدق فيه . . كان الأمر محتاجاً لنوبة مجنونة من الشجاعة ليقفز عليه ويأخذ ثار
نسائه . . لكنه توقف عندما شاهد «شرحبيل» ابن النعمان . . ولده الصغير الذى يعده
ليكون أقوى ملوك العرب . . كان يسير خلف أبيه . . يتطلع إلى الجميع بوجهه الغافل وهو
يمص أصابعه . . وادرك الحارث إلى أين سيوجه ضربته .

وظل يترصد القصر . يرقب الداخلين والخارجين . . حتى شاهد الصبى وهو خارج
بصحبة أحد العبيد . . ذهب إلى حافة النهر . . وظل الحارث رابضاً حتى ابتعد العبد
قليلاً . . وهجم الحارث .

رقبة الولد في يده . . لم يكن يشبه أباه . . كانت انفاسه تتحشرح . . وعيناه
تبرزان . . دهشة ورعباً . . وظل يطعنه طعنة لايه . . وطعنة لأمه . . وطعنة لأيام
الطراد . . وصرخ العبد . . أخذ يبيل التراب على رأسه ويستنجد بالناس . . ألقى بجثة
الصبى وقفز عليه . . وهتف فيه بشراسة .

- أخبر الملك . . أن الحارث قد أدرك ثاره . .
وانطلق هارباً للصحراء .

يا ملك الحيرة . . قتلت أمى فقتلت ابنك . . لا يلد الدم سوى الدم . . قتلت أيامى
الماضية وقضيت أنا على أيامك القادمة . . دون أسف أو ندم . . وبيننا الصحراء . . فرصة
النجاة . . أو مقبرة الرمل . . زهور الصبار جافة مثل قلب وحيد . . والطائر العطشان مل
طعم الدم وتاق للحظة من السلام . . لم تعد هناك جدوى فما بقى بيننا من لحظات سوف
نقضها في الحرب حتى يوقع أحدنا بالآخر .

يمرق الحارث بن ظالم عبر الصحراء . . الملوك لا يرحمون والسادة خائفون والقبائل
متشابهة . . تتمسك بأهداب التقاليد وتتفاخر بالاكاذيب حتى يأتى وقت الخطر . . فتدفن
رأسها في الرمل . . والحارث شجرة بلا جذور . . يلاحقه هلاك بنى عامر . . وثأر الملك
المضاعف . . «وذو الحيات» هو صديقه الوحيد . . قضى على قبيلته . . وتبرأت منه
غطفان . . وتصلت تميم . . وأغلقت في وجهه عروض اليمامة . . وتناول عليه انصاف
الرجال .

عمرو بن الاطانبه الخزرجى ملك الحجاز . . حين عرف أن خالداً قد قتل هتف فيمن
حولته .

- والله لو لقي الحارث خالداً وهو يقظان لما نظر إليه . . ولكنه قتله نائماً . . ولو أتاني لعرف قدر نفسه .

ألقي هذا التحدى في وجه الصحراء وليس تاجه ودعا بقيانة يغنيه الأشعار الحماسية . . وبلغ الحارث هذا التحدى ولم يكن أمامه ما يفسره فسار إليه . . وصل إلى بني الحزرج ووقف على باب خيمته وهتف به . . أيها الملك أغثنى فيأني جار مغلوب على أمرى . . وأجاب عمرو بصوت حماسى وخرج من خيمته شاهراً سيفه . . وهجم عليه الحارث وهو يهتف به . . أنا الحارث بن ظالم جيتك وأنت يقظان . . وفوجيء الرجل . . واعتركا ملياً من الليل حتى خشى عمرو أن يقتل فهتف بالحارث . . يا حارث . . إني شيخ كبير وإنى تعتربنى سنة من النوم . . فهل لك في تأخير هذا الأمر إلى الغد ؟ . . قال الحارث . . هيهات ومن لى بك في الغد . . وتجاوزاً ساعة أخرى . . ثم ألقي عمرو الرمح من يده وهتف . . يا حارث . . ألم أخبرك أن النعاس يغلبني قد سقط رمحي فاكفف . . وكف الحارث . . قال عمرو . . انظروا إلى الغد . . قال . . لا أحفل . . فدعني آخذ رمحي . . قال . . خذه . . قال عمرو . . أخشى أن تعجلنى أو تفتك بى إذا أردت أخذه . . قال الحارث . . وذمة آل ظالم لا أعاجلك ولا أفتك بك . . قال عمرو على الفور وذمة الاطانية لا أخذه ولا أقاتلك .

وتوقف الحارث . . لم يجذ بدأ من الانصراف تاركاً الشيخ الاحمق يتلح تحدياته الجوفاء .

يمرق الحارث عبر الصحراء . كم مرة عبر ذات المكان وإستغاث بنفس القبائل . . كم مرة أثار رعب الأطفال والنساء وحنق المطاردين . . كان النعمان غاضباً لمقتل ابنه فظل يدفع الجيوش إلى الصحراء حتى امتلأت بهم كل الطرق والربوع . . ذهب الحارث إلى بني دارم . . كان قد قابل رئيسهم «معبد» في أحد الأسواق وتوثقت بينهما أواصر الصداقة . . وأجاره معبد رغم أنف قومه . . كانوا متشائمين من مقدم الحارث ومن جرهم إلى حرب لا نفع فيها . . وصمم معبد على رأيه . . وجاء بنو عامر والاحوص على رأسهم . . ولم يخرج مع معبد إلا القليل من قومه . . وكان الأمر الطبيعي هو أن يهزم ويؤخذ أسيراً . . وأرسله بنو عامر إلى رجل في الطائف متخصص في تعذيب الأسرى ظل يقطعه أرباً حتى مات . . وعاود الحارث الهرب .

وصل إلى بلاد ربيعة . . أصبح قريباً من اليمن حيث يمكن أن يضيع في جبالها المتشابكة . أو ان يعبر البحر إلى الجانب الآخر من العالم . . لعله يجذ هناك سلاماً أكثر وقبور أقل .

كان متعباً .. مليئاً بالجروح الصغيرة والأحلام الخائبة .. يسير في أرض ليس بها أثر الحياة .. رمل .. وصخور .. وأشجار شوكية قصيرة ربط حواده ونام .. حلم بوحه أمه .. وود لو يستطيع استحضار وجه أبيه في الحلم .. أحس بالألم شديدة تمزج ذراعيه .. ومد الملك النعمان يده ليقبض على عنقه .. ضاق صدره حتى عجز عن التنفس إستيقظ مزعجاً فوجد نفسه مقيداً .. محاصراً بالوجوه الغريبة .. لقد وقع في الفخ .. لم تمر لحظة ضعه الوحيدة بسلام .. صرخوا فيه ..

- من أنت .. ؟ ..

أدهشه السؤال .. أنهم لا يعرفونه .. ليسوا من بني عامر اذن .. ؟ .. أو من اتباع الملك .. صمت .. ذكروا أنهم من بني قيس .. رأوه نائماً فأخذوه أسيراً .. لو تعرفوا عليه لطاروا به إلى الخيرة وأخذوا مكافأة النعمان الضخمة .. وهتف رئيسهم و حتى

- ألا تريد أن تتكلم أيها الصعلوك .. ؟ ..

وأهوى عليه بلطمة هائلة .. زجر الحارث .. جاءت اللحظة التي يلطم فيها ولا يجرؤ على الرد .. لقد رد لطمه خالد .. ولطمه الملك .. ولكنه يعجز أمام هذا الصعلوك من بني قيس .. واجتمع عليه القوم .. يضربونه ويغزونه بأطراف اللسنة .. وكلما أصر على صمته .. ادركوا أهمية ما يخفيه ..

هبط الليل فأوقدوا نارهم .. وجلسوا يتسامرون ويقطعون الوقت بتعذيبه .. ومحاولة حمله على الاعتراف باسمه ونسبه .. وزاد من غيظهم أنه لم يكن يحمل مالا .. ولا شيء يؤكل .. وظل صامتا .. وشجوا رأسه فأنسال الدم حتى أوشك أن يغلق عينيه .. وأصابعه الملل منه أخيراً .. وتظاهر بأنه قد فقد وعيه فتركوه حتى انطفأت نارهم وعلا صوت تنفسهم .. وأخذ يتحرك في حذر بالغ .. يحرك ذراعيه وعضلاته المشدودة حتى استطاع التخلص من القيد .. كانت كل قطعة من جسده تؤلمه .. لكنه أخذ سيفه وجواده وود لو يستطيع أن يرد عليهم ما تلقاه من اهانات لكنه كان متعباً ووحيداً ..

جرى مبتعداً .. ودقت سنانك الحيل لتعلن خلاصه .. ولتوقط أعدائه .. هبوا وأسرعوا إلى جيادهم .. وانضموا إلى قائمة المطاردين .. واشرق الصبح وهو يعدو وانحدر الوادي، إلى مدينة هائلة .. يحوطها حصص كبير .. شهق فرحاً إنها اليمامة أخيراً .. لو يستطيع الوصول إلى خلف هذا السور

كان هناك عدد من الأطفال يلعبون .. هبط من فوق جواده وامسك الغلام الأول نظر إليه في رعب وسأله عن اسمه .. وقال الغلام ..

- أنا بجير بن ابجر العجل ..
أمسكه الحارث وهتف به ..
- أنا لك جار ..
شعر الغلام بالزهو فإقتاده إلى داخل الحصن وخلفها بقية الصبيان .. وذهبوا إلى الأب
ابجر العجل .. وقال الغلام .

- يا أبي .. لقد أجرت هذا الفارس ..
ووافق الأب على طلب ابنه الوحيد .. أعلن أن الفارس الذي لا يعرف اسمه ولا نسبه
في حماه .. وهتف الحارث .

- انهم يطاردونني .
وأمر الرجل فاغلقوا باب الحصن .. ولم تمض دقائق إلا وأقبل القيسيون وأخذوا
يزجرون خارج السور وينادون على العجل أن يرد لهم أسيرهم .. لكنه هتف .
- لو أخذتموه قبل دخوله الحصن لاسلمته لكم .. فأما وقد إستجار بي فلا سبيل
إليه .

صاحوا في غضب .
- أسيرنا وما هو لك بجار ولا تعرفه .. إنما أتاك هارياً من أيدينا ونحن قومك
وجيرتك .

وصمت العجل .. كان موزعاً بين الوعد الذي قطعه للغريب .. وحقوق جيرانه
عليه .. قال ..
- اما ان أسلمه إليكم فلا يكون ذلك .. ان شئتم اعطيته سلاحاً كاملاً وحملته على
فرس وتركته حتى يقطع الوادى بينى وبينكم ثم دونكموه .

ووافق القوم .. ووافق الحارث أيضاً .. كان قد ألف الطراد والمهرب .. وعرف أنه
لا أمان في حماية الآخرين .. حمد الله لأنهم حتى الآن لم يعرفوا اسمه وإلا استماتوا على
جثته .. لبس سلاحه . وفتح باب الحصن .. وتطلع القيسيون إليه في حنق .. شاعرين
بالاهانة . هذا الفارس الوحيد قد وضعهم جميعاً في موضع الاختيار .. وانطلق يعدوا ..
من العبت ان تطارده القبائل والملوك ثم يقع في قبضة حفنة من لصوص الخيل .. وحث
جواده .. واقترب خط الوادى .. ثم سمع أصوات جياهم وهي تعدو خلفه ورأى
السهام تنطير فاستدار بحركة مباغته ورشقهم بدفعة من سهامه وترنج اثنان منهم وسقطا
على الأرض .. واستدار يعدو .. ووقفوا هم وقد باغتتهم المفاجأة .. ونظروا إلى
قتلاهم .. وبدا أن المطاردة هي نوع من أنواع الحماسة ..

مرة أخرى يترك نفسه للصدفة العمياء .. يعدو فتبرز إحدى القبائل فلا يعرف ماذا تحمل له .. السيف أم سعف النخل .. ها هي بيوت أخرى .. ونخيل وناس .. أين أنا من أرض الله .. ؟ .. جرى أحد الرعاة وهتف به .

- هل أنت مطارد .. ؟ ..

أوماً الحارث وسأله عن مكانه .. ورد الراعى وهو يتأمل وجهه .

- أنت في بلاد بنو قشير .

ثم هتف وهو يقفز من الفرع .

- إنه أنت .. نفس الأوصاف التى ذكرها الرواة .. أنت الحارث ابن ظالم المرى .
سوانكر الحارث ذلك بشدة ولكن الأرض انشقت عن عشرات الرجال والأطفال ..
يعدون إليه بسعف النخل .. والراعى يواصل الحديث اللاهث .

- كنا نعرف أنك هارب فى عروض اليمامة .. وقد توقعنا ان تمرّ ببلادنا ..
استمع لى كلماتهم .. ورأى سعف النخل ومظاهر الترحيب .. وتساءل .. أهو فخر جديد .. ؟ .. هتف به شيخ القبيلة أنهم أهله .. سوف يدفعون اعداءه .. فكر .. هل زاد الملك من المكافأة المرصودة .. انزلوه فى خيمة كبيرة .. وذبحوا اللدبايح تحت قدميه .. ورقصوا بالسيوف تحية له .. وهو جالس يفكر فى مرارة .. حين يأتى جنود الملك سوف تتبدد هذه الفرحة كالفقاعات .. هتفوا به ..

- إحك لنا .. إرو اشعارك ..

حكى .. وروى الشعر .. أكل وشرب ونام .. واختلس لحظات المتعة المتاحة ..
مادام لا مفر من الموت فليأخذ نصيبه من الراحة .. كان هربه قد قاد العرب إلى حريين كبيرتين .. ثم قاد هذا إلى يوم وقعت فيه كل القبائل فى بعضها .. أصبح ثاره الفردى عاماً وشاملاً .. فوق كل البطون والعشائر .. كان متعباً فأكمل وشرب ونام .. وتأمل وجوههم .. وفكر .. متى سوف يهيمون بالتخلص منه .. واسترد جسده صحته وبرأ من كل جروحه الخارجية وبقيت الجروح التى لا يبرأ منها .

ثم ان بنى عامر جاءوا .. وحاصروا القبيلة .. اجتمع بنو قشير إليه وصاحوا ..

- سوف نحارب معك .

ودهش الحارث .. لقد كانوا صادقين ولم يتراجعوا .. انهم يريدون الحرب التى تخاذلت عنها تميم وغطفان رغم أنهم أقل قوة .. حرب بنى عامر بالنسبة إليهم نوع من الانتحار .. لكنه خرج فخرجوا خلفه .. جهز سيفه ذا الحيات .. فأخرجوا سيوفهم ..

ودمدم بنو عامر في غضب حين واجهوا الحارث أخيراً . . شاهد الاحوص وهو يرفع جفنيه ويتأمله . . ما أشبهه بخالد . . ما أشبه الجميع بخالد . . صاح به .

- يا احوص . . هذا ثار بيني وبينك . . فلتتقاتل على أن يتراجع القومان إذا مات أحدنا ولا يقاتلا بغير طائل .

وكان الاحوص يكره الحارث حتى أنه وافق على الفور . . وتقدم اثنان من الفرسان فعصبا رأسه حتى لا ترتخي جفناه اثناء القتال . . وهتف الاحوص .

- ثارى ولن يدركه غيرى .

كان كل منهما يحمل للأخر حقداً لا يهدأ . . لأن الحارث قد أطار بضربة واحدة كل مجد بنى عامر . . ولأن الاحوص جد في المطاردة حتى لم تعد للحارث قبيلة أو أرض . . ولأن كل ما بينها تحول إلى أطلال . . ومقابر . . ورماد . . كانا يضربان . . ويتواجهان . . وحين سقطت الخيول من التعب واصلا القتال على اقدامهما . . وأخيراً استطاع الحارث أن يمد ذؤابة السيف ويمس العصبة التي ترفع جفني الاحوص . . فلم يعد يرى غير الظلام الدامس . . كان قد خسر . . واخترق السيف جنبه وشعر بوطأة الخزي أقسى من الألم . . انهزمت بنو عامر من جديد . . ظلوا مترددين . . هل يهاجمون دون زعيم . . أم ينسحبون ؟ .

ولم يتحد الحارث مشاعرهم . . انسحب في هدوء وتوارى بين صفوف بنى قشير وانتظروا قرارهم . . وعندما تقدم عدد من فرسانهم وحملوا جثة الاحوص عرف انهم قد قرروا الانسحاب مؤقتاً على الأقل .

وهلل بنو قشير . . أحس كل واحد منهم كأنه قد خاض معركة . . وكأنه انتصر بالفعل . . لقد اصبحوا فجأة قبيلة قوية يردد رواة الانساب أخبارها . . كان الحارث حزينا . . انصرف بنو عامر وغدا سوف يأتي جنود الملك . . وسوف تتحول سعادة الأطفال التي يشعر بها الجميع إلى مأساة . . لن يتندر الرواة بأى شيء من خصالهم لأن الملحاء لن تبقى لهم أثر . . لذا حسم أمره قاتلاً .

- يجب أن أرحل عنكم .

ودهش شيخ القبيلة وهو يرفع فوق خيمته الرايات الملونة .

- ولكن . . لماذا تتركنا . . من ينصرك غيرنا . . ؟

كان الحارث يفكر في مكة . . في الحرم الذي لا يهدر فيه دم . . هل يمكن أن يصل إليه . . وأن ينجو . . دون ذلك كل الطرق المراقبة وعيون الجواسيس ويطولن القبائل

المتحالفة . . والملاءة . . لكن الاختيار كان قد حسم في داخله . . أما أن يصل إلى مكة أو يموت على أبوابها .

وخرجوا يودعونه على دقات الدفوف وحرص الرواة على ترديد أشعاره أمامه ليتأكدوا من درجة الحفظ ودست الجوارى قوارير العطر في متاعة ها هي الصحراء الواسعة مرة أخرى . ترك كل الطرق المألوفة . أصبح يحفظ الصحراء مثل كف يده . وأحسن جنوده الملك بما يحاول أن يفعله فأخذوا يضيقون عليه الخناق . . يحاولون محاصرته عند منافذ الجبال وفي بطون الوديان . . وكل يوم تتواتر اخباره . . شوهد الحارث بالقرب من غفار . . بالقرب من الطائف . . من يثرب . . ثم بالقرب من جبل مكة . . يرق في الليل كحلُم وفي النهار كحافة سكين . . يكتشف فجأاً لا يعرفها أحد . ومكة راقدة بين جبالها العالية كحدقة العين وكلما سقط الحارث خرج من يده يد المعاونة . يعطيه طعاماً . . أو سهاماً . . أو حتى جوداً . . كانوا يريدونه أن يصل . . أن يحقق حلمهم في أن يتغلب فرد واحد . . كانوا يريدون أن يجتازوا به خوفهم . . والملك النعمان يرتحف فوق عرشه ويصرخ .

- لا يجب أن يصل إلى مكة . . يجب ألا يفلت .

والحارث يكسب كل يوم شبراً من أرضه المحرمة . شبراً من حياته . يتقدم ويدوم وتنهزم عليه السهام كالطر وتنصب له الفخاخ . وأخيراً . . استطاع ذات ليلة مقمرة أن يستدير وأن يهبط من منحدر وعمر إلى مكة بعد أن تمزقت يده . . وسار يترنح إلى الحرم . . وأصبح بعيداً عن مخالب الملك .

وفي الصباح فوجيء أهل مكة بالحارث جريحاً متشبهاً بأستار الكعبة . . لقد انتصر . . الآن يستطيع النوم والزواج والحياة . يستطيع أن ينجب ولداً وإن يمد جذوره في الأرض . . ولكن هل ينساه الملك . . وهل تهدأ بنوع عامر . . ؟ . . ومرة الأيام ولكن ما أغرب أن تكون انساناً عادياً . . تمارس حياتك وسط اناس عاديين . . إنحصر الحارث في وادي القرى الضيق . . لا يخرج منه ولا يتخطاه . . لا يمضى مع قافلة ولا يشترك في سوق . ولا يعرض نفسه لمواسم الحجيج . هل يمكن أن يطوع نفسه لهذا الأمان الخائق . . يبقى ويأكل ويسمن . . وترتخي عضلاته . . ويتساقط الريش من أجنحة طائر الصدى . . وعندما زوجته اكتشف أنه لم يكن يريد هذه الزوجة . . ولا هذه الحياة . . مرت بنت غفرز بذاكرته كلسع اللهب . . كان فراش الزوجية بارداً قاحلاً . . والحارث يمضغ طعام الملل اليومي .

ومن الشمال جاءت أنباء غريبة . . لقد عفا الملك النعمان . . من يصدق هذا . . ؟ ارتدت جيوشه خائبة . . واستكانت عامر . . وأصبح الحارث اسطورة . . ولم يكن

النعمان ليجرؤ على معاداة الاسطورة . . وجاء شيوخ القبائل ووحوه العرب من ربيعة ومضير واليمس . . كلهم يحملون نفس الانباء وتأكيدات الملك . . لقد أصبح أمنياً . . بطلاً

أهذا فخ جديد . . ؟ .

وجاء سنان بن أبي حارثة المري - عمه الذى تخلى عنه - جاء يسعى قائلاً . .
- ها هو كتاب الملك بالعفو عنك . . لقد نلت تأرك ورفعت رؤ وسنا . .

واستمع الحارث إلى كلماته فى هدوء . . كيف تبدل كل شىء إلى هذه الدرجة . . فتح كتاب الملك . . كانت كلماته عمواً صريحاً وتعهداً بالأمان ودعوة لزيارة الحيرة . .

حذق الحارث فى عمه طويلاً وهو يتمتم حائراً .

- هل الملك صادق . . ؟ .

هتف كل شيوخ القبائل .

- لقد وعد والملك لا يغدر ونحن ضامنون لك صدق وعده . .

وصمت الحارث ثم سأل عمه فى صوت خافت :

- هناك مغنية فى الحيرة اسمها بنت عفرز . . هل هى موجودة ؟ .

- أجل . . إنها مازالت تغنى .

والتف الحارث حول نفسه وعاود الصمت . . هل تصدق وعود الملك . . ؟ . هذا

ختمه وشارته وهذه كلماته . تأمل لحن شيوخ القبائل . والتجاعيد فى وجه عمه . . وشوق الرحيل الممص فى أعماقه . . وشوقه إلى بنت عفرز . كل هذا جعله لا ينام ليلاً ولا يأكل نهاراً .

وعندما قرر الرحيل امتدت الصحراء مثل جسد رخو لم يعد فيه ما يثير الرعدة . . مر

على القبائل التى تبرأت منه قديماً . . أصبحت الآن ترفع له سعف النخل والرايات . .

ذهب إلى قبيلته فوجد الحياة قد عادت والأطفال يجاهدون لأخراج الماء من الآبار .

وواصل السير فرأى الطيور الجارحة فى السماء . . والآبار المسمومة فى الأرض . . لكن وعد

الأمان المكتوب كان فى جيبه

وعلى باب الحيرة تأمله الحراس قليلاً ثم سمحوا له بالدخول . . كان سيفه ذو الحيات

حول وسطه . . ولم يره أحد . . أو لعلهم تجاهلوه . . نبت الشوارع ضيقة . مليئة

بالمسولين والأطفال الهزالى . . والبيوت واطئة تشبه الزنازين . . وفى الليل سار إلى حانة

بنت عفرز . . حيث يختلط العطر والدخان وصوتها .

فأسقى بجيراً من رحيق مدامة ..
وأسقى الخفير وطهرى أثوابه ..

كانت تغنى من أشعاره .. وحين التفت وجدته جالساً أمامها .. مثل أمنية عزيزة
المنال .. اقتربت ولمسته .. تأكدت أنها لا تحلم .. كان هو أيضاً لا يحلم

قال لها ..

- في الغد سوف أذهب لمقابلة الملك النعمان .. ثم أعود لنبقى معاً .
هتفت في لوعة ..

- سوف يغدر بك .. لا تذهب .

- الملك لا يرحم .. لكنه لا يغدر .. لقد عفا عني وكتابه في جيبى ..
توسلت إليه من خلال دموعها ..

- لا تذهب .. لنهرب سوياً إلى أرض الغساسنة ..

كان الحارث قد هرب كفايته .. وحزن كفايته .. وامتلأ جسده بكل أنواع

الجروح .. هتف ..

- يجب أن أذهب إليه ..

وجاء الصباح .. طائر أبيض الجناحين كسيح .. سار الحارث إلى القصر . قال
للحاجب : إستأذن لى .. والناس عند النعمان متوفرون .. كل شيوخ القبائل الذين حملوا
وعد الأمان .. قال النعمان للحارس : ائذن له وخذ سيفه . قال له الحارس : ضع
سيفك وأدخل .. قال الحارث في بلاهة .. ولم أضعه ؟ .. قال الحارس .. ضعه فلا
بأس عليك .. وظل يلح عليه حتى وضعه ودخل ومعه الأمان .. انحنى أمام الملك انحناء
خفيفة وهو يقول : أنعم صباحاً أبيت اللعن .. قال النعمان : لا أنعم الله صباحك ..
قال الحارث : هذا كتابك !! .. قال : كتابي والله ما أنكره .. لكنك غدرت بي مراراً فلا
ضير أن غدرت بك مرة .

ساد الصمت .. وارتجف شيوخ القبائل .. وظل الحارث واقفاً .. واحداً .. كما
تعود أن يكون .. واحضر الحارس سيفه ذا الحيات ووضعه تحت قدمي الملك .. وهتف
النعمان : من يقتل هذا .. ؟ .. فقام ابن خمس التغلبي وكان الحارث قد قتل أباه ..
قال : أنا أقتله .. والتفت الحارث إليه يسأله : من أنت ؟ .. قال .. ابن خمس
التغلبي .. همهم الحارث متهمكاً . أنت تقتلني يا بن شر الأظلماء . ورد ابن الخمس ..
أجل . يا بن شر الأسهاء وتدرجرت رأس الحارث .. ببساطة أسرة ومفرزه تحت قدمي
الملك .. بنفس السيف الذي دافع طويلاً عنها .. وكانت يده ما تزال ممسكة بقرعة
الأمان .. ونقلوا جثته ليمثلوا بها . لكن بنت غفزر أعطت للحارس كيساً من الذهب

وأخذتها .. حيث دفنتها في مقبرة لا يعرف طريقها إلا هي .. والذئاب .. ووقف ابن
خمس في سوق عكاظ وهو يهتف .

— هذا سيف الحارث بن ظالم المرى .. من يشتريه .. ؟ .. وتأمل الجميع السيف في
يده .. والحيات المرسومة على مقبضه . وانكسروا في حزن .. كيف جرؤ على فعل هذا
إن يستسلم . ويقدم رقبتة دون ثمن .. دون أى ثمن .. ؟ .. كيف . ١١ .



تأبط شراً

الذين يموتون وهم وقوف

اسمه الحقيقي ثابت . لا يوجد له نسب معروف . الأرض الصحراوية القاسية ترفض جذوره وأبوه جابر بن سيفان ينكر نوته . وقبيلته من بنى العقيق لم تحسه عليها . لكنه يستمد نسبه من جذور بعيدة . من كل الطرداء والمفوظين والباحثين عن العدل المستحيل . ومن المجرمين الشرفاء الذين يقيمون قوانينهم الخاصة حيث اللا قانون . رفاقه هم أوباش الجزيرة العربية وصعاليكها والهاربين من فداحة الثأر والحيوانات الضارية ونسور القمم والجمال المبعدة المطلية بالقار . يضمهم جميعاً حضن الفيافي الوعرة . لحظات الهرب الدائمة ..

حدثني الكائنات قالت :

قالت الثعابين : طلبت منه أمه المعجوز هدية مثلما يفعل بقية أخوته فحملنا تحت أبطه وألقانا تحت قدميها . فزعت المرأة وهرعت للخارج تستنجد بالجيران . وقال الجميع : لقد تأبط ثابت شراً . وطل الاسم يلاحقه . قالت الغول : هذا الوغد الكالح الوجه طلب أن يعاشرنى . . تقابلنا في وادي رحي طحان بأرض هذيل ودار الصراع بيننا ثلاثة أيام وثلاث ليالي ولم يهزم أحدنا الآخر . تنكرت في هيئة خروف صغير فحملني تحت أبطيه . جعلت أركله طوال الطريق حتى القاني . وقال من شاهده : لقد تأبط شراً . وقال الشيطان : كان ثابت رقيقى وصاحبى . كنا لا نمل من السير سوياً . نتحدث عن النساء الجميلات . والتجار اللصوص الذين يعجبوننى . وذات يوم وصلنا إلى مكان قفر تضع الطيور فيه بيضها على الأرض . قال ثابت : لقد هلكتنا هذا المكان لم يمر به بشر من قبل لو كان الشر يعرفون طريقه ما وضعت الطيور بيضها على الأرض . قال الشيطان . وصعدنا كل واحد منا على جبل . رأيت الموت فألحتُ إلى ثابت بالسيف .. ورأى هو الحياة فألاح إلى

بالثوب . وافترقنا . لكننى تركت شرى معه . كلما نضح عرق إبطينه . نضح شرى . قالت الرمال : كنا نرتجف تحت وقع أقدامه . وقالت الخيول : كنا نلهث خلف عدوه . وقالت الطيور : كنا نخشى حدة سهامه . وقالت الظباء . كنا نتقى لحظة جوعه . كان إذا جاع ييجول بعينيه حتى ينتقى أسمن ظبية فينا ثم ينطلق خلفها . حينئذ ندرك أنه لا مهرب . أنه لا بد لاحق بها . وسرعان ما نشاهد رفيقتنا وقد سقطت تعباً بيننا ينقض هو عليها كأن لم يجر قط . . . وعندما تحمل الريح رائحة الشواء الرهيبة تتساءل في حسرة . . متى يأتي دورنا . . ؟ . . ليتنا لا نسمن أبداً : قالت الينايب العذبة . اننى اتفرز من ملمس جسده الخشن . وقالت الفراشات : انفاسه محرق أجنحتنا . وقال النمل : أننا نحاذر أن نمشى وهو نائم لثلا يسمع ديب أقدامنا . وقالت حية : نام تأبط شرا ذات ليلة فوق حجري فتجمدت رعباً حتى الصباح . . وحدثنى كائنات كثيرة لكننى وجدت الخرافة تسود معظم الاحاديث فاستبعدتها . .

حدثنى تأبط شراً قال :

ماذا أفعل ؟ . . الصخور قبيلتى والرمل منفاى . حلمت مرة بالافق فأخذت أعدو إليه . اجتزت القوافل والخيول وكل صنوف الحيوانات . . لكننى سقطت لاهتاً وظل الافق بعيداً . .

ماذا أفعل ؟ . . مات أخي وحملت بالثأر . ولم أكن ثرياً فيخشون مالى أو ذا عشيرة فيهابون سطوق . عرفت مبكراً أن زهر الصبار موحش والذئاب جائعة والآبار جافة . ظللت اهميم على وجهى . كل القبائل قبائل . وكل القبائل أعدائى . حين يمضى الجوع أغير عليهم لأنهم قبائل . ويطاردونى بالسهام والرماح يبغون قتلى . . لأنهم أعدائى . يكمنون لى وراء الأكمة وحواف العيون . يسكنون عن الحركة ويكتمون انفاسهم . لكننى أضع أذنى على الرمل فأسمع وجيب قلوبهم . والخفقات المترددة ترصدنى . لا أملك إلا الفرار وأنا أتساءل . . لماذا لا أسمع وجيب قلبى كأنه لم يخفق أبداً . . ؟ . . نسيت قبر أخى . دفنت أمى وأنا فى الطراد . وقلت للنسور رافقيني فازدرتنى ونأت مرتفعة .

ماذا أفعل ؟ . . أحلت القبائل دمي وأباحت شعرى . كنت أنا الشر وكان شعرى التعويذة . كنت الأذى وكنت الرقية . عشقتنى النساء ووضعن على الوسائد رأسى فى احلامهن لكن ما من واحدة تحملت لمستى . قابلنى أعرايى . . قال : كيف تخيف الناس ؟ . . قلت : بأن اذكر اسمى أمامهم . قال . فقط ؟ . . قلت : فقط . قال : هل تبغى اسمك وتأخذ طيلسان . وقد كان . أخذت الطيلسان الفاخر ومضيت . وأخذ الاعرايى يزعق فى وجوه الناس . أنا تأبط شراً . ولم تمهله السهام المترصدة أن يتم الثانية !

ماذا أفعل ؟ .. الاصدقاء حمقى والاعداء اذكياء . وهذا يضاعف من وحدتى ومن حدة المطاردة . من قال أننى لا أتمنى بيتاً أو أسرة . لكنها الانساب التى لا ترحم والتجار الذين يتاجرون فى الاجساد الحية ، والجوع الذى لا مأوى له ولا وطن ..

حدثتني جثث الاصدقاء القتلى :

الآن نهض من قبورنا . نزرع الكفن وخبوط العنكبوت . هذا تأبط شراً يعدو فوق ثرى اجسادنا . وقع أقدامه له نفس وقع لهجته وهو يحدثنا ويغرينا . كنا أصدقاء ورفاق شدته . نعاني جميعاً من الأحلام المجهضة . وعندما تبعناه لمرابض الخيول وأوتاد الجمال كنا نفتنص حقنا الطبيعى فى الحياة . لكن الفخاخ كانت منصوبة والرماح مشرعة . والخيل متوفزة . صاح : اهربوا . فروا . وحاصرتنا الخيل . كان هو أكثرنا سرعة وأمهرنا حيلة . اجتاز التل والشعاب المتوحشة وتساقتنا نحن صرعى . كنا رفاق احلامه وغاراته لكنه فر وحيداً .. أهو العدل حلم فردى ؟ .. ألا يوجد حلم جماعى بالمساواة . هل كان يجبنا . أم يجب نفسه . أم يجب العدل ؟ .. يا رفاق الموت انفضوا . الشمس لا تشرق من القبور . والصبار غير مستساغ الطعم والماء آسن والعظام نخرة والعناكب موحشة والديدان شرهة وشواهد القبور صلبة . وأنت تعدو وحيداً . نقولها لك يا تأبط شراً .. لا أمل .. لا أمل ..

حدثتني جاريتة قالت :

قالت صاحباتى ، وقالت كل جوارى الحى .. أنه يهوان .. إننى الشعر الذى يقوله فى اليقظة والحلم الذى يهرف به فى النوم . قلن . إن له قلب طفل وعين نسر وساقى غزال وأن لا أحد يقدر على صرعة إلا عيون الحسان .. خشيت على نفسى من غرام هذا الرجل المفرد .. وفرحت لأن غرامه بى جعلنى أنا أيضاً مفردة .. قالوا لى . قابليه فرفضت . وظللت أرفض ذلك بشدة حتى قابلته .

كانت عين الماء ساكنة ولا أحد يرانا . نظرت إلى وجهه الداكن ولحيته الشعثاء ونظرة عينيه المتألقة فوجبت قلبى . هذا الأدمى الغريب يهوان .. تمنيت أن يتكلم . يحدش السكون بأى حرف . ظل صامتاً . تساءلت : هل سيفخر بى .. هل سيفضحنى ؟ .. كان يعانى حتى يتكلم . رأيت حمرة خفيفة تتسلل خلال وجهه الداكن وتغمره كله .. فهمت كل شىء .. كان خجلاً .. والخيل أعجزه عن الكلام .. كدت أضحك بصوت

عال .. لم يكن هذا أول من عرفت من الرجال .. لكنه الوحيد الذى صعق بمرأى هكذا .
ولو أننى ضحككت لزداد خجله وفر هارباً .

كان كالحيون الحرون . حاولت ترويضه . قلت . انشدنى شيئاً من الشعر الذى قلته
فى ؟ .. لم يتكلم . قلت .. ماذا تريد منى ؟ .. فعلت ذلك فى صوت ذائب النبرات ..
لكن صوتى لطمه فظل يبخلق فى مذهولاً . امسكت يده فوجدتها ترتجف .. لا فائدة ..
البطل الذى دوخ كل القبائل داخ من نظرة واحدة . تركته ومضيت ..
مهما كان الأمر فإننا نحتاج من الرجل إلى شىء من الجرأة .

حوار لم يتم :

- يا تأبط شراً .. هل أنت مجرم .. ؟ ..
- ولم لا يسأل أحد لماذا تبدو شمس الصحراء بهذه القسوة .. والأرض بمثل هذا
الجفاف والعصبيات بهذا الوثوق . أننى جزء من طبيعة هذه البيئة الشرسة عمارس قوانين
العرف السائد . يأتى الليل علينا إما أن نقتل . أو نقتل . لانستند لقانون مكتوب . الأقوى
هو الأكثر تنافساً والأضعف هو الاستثناء وسرعان ما يلفظ دون رحمة ..

- لكنك مجرد فرد .. بصورة أخرى مجرد إرهابى .. إن القبائل حين تتصارع تحكمها
قوانين الحرب .. لكنك لست من قبيلة وليست لك أرض ؟

- أنا وحدى قبيلة . اعدو أسرع من خيولهم مجتمعة . وسمعى أرفع من كل
آذانهم . وساعدى أمهرى رمى السهام من كل رمايتهم . وحيث أحل تكون أرمى وعليهم
أن يغيروا عليها أنا لا أخرج عن قوانين البرال لو شاهدون نائماً لابعون لكنى أمام
كالذئب مفتوح العينين . وهم يغمضون عيونهم ويظفون بأرهم وندا يحل عليهم عقاب
الظلام .

- لكنك بالغ المسبه أنت تقبل حتى الأطفال ؟
- أنا أحب الأطفال أهم السب الأحصم الوحيد . سبط هذا القمر أحب أن يكون
لى أسرة لكنى وحدت الأرواح طبيعى والبناء حائض الأطفال هم ثميل يجعلونها
لا يتمادى فى المعامرة ولا يلحف فى الرفض أنا تتشغل من أحلهم مع العرف السائد
ونفقد فرديتنا . نمايرنا لكنى أحهم ذاب من رأب نازما نازعا يصطاد الأراب
أردت مداعته فصنى العروس على ظهر نادى فادماها . أعطت منه وقتلته لكنى ندمت

بعد ذلك . ادركت أننى دنست الصحراء وأن هابتى قد حانت . حلمت به كثيراً . ورأيت صورته تلامق عدوى . كنت موقنا ان ما فعلته لا يغتفر وأن على أن أحمّل العقاب .

- رغم ذلك فأنت شاعر .. ؟ ..

- الشعر هو درعى . وهو خيمتى احتفظ بها فى صدرى . أفرشها على الرمل فتكون أرضى . أرتجل القصيدة فتفجر عيون المياه ويعشوشب الرمل . القوافى قبيلتى . حروفى منحوتة من الشظف . وصورى مملأى بالرعب والخشوية . إنه الثمن الطبيعى لارتفاعى فوق قوانينهم . إن جلوسهم فى البيوت المريحة جعل منهم مجرد رواة يرددون الكلام الطيب ويهزون رؤوسهم فى بلاهة . إنهم أمام شعرى يتحولون إلى عشب مهمل ينتظر الحصاد .. أو رؤوس ماشية تنتظر الرباء ..

- إذا قبضوا عليك هل تعتقد أن القتل هو الجزاء المناسب ؟ ..

- لو أنهم تركونى دون قتل لعاقبتهم جزاء غفلتهم . لا يجب أن يرحم احدنا الآخر . قد تكون حياتى قصيرة لكننى سأعيش . لا أحد يستطيع أن يقتل حليماً أو يقتال قطعة من السحاب . ان آلاف المعذبين يحفظون أخبارى ويتسقطون شعرى .. ولومت سوف يخرج من بينهم واحد جديد ..

- كيف ستموت يا تأبط شراً .. ؟ ..

- ان ميتى عريية . بل ومثيرة للسخرية .. لعل هناك ضعفا كان كامناً فى لم افطن إليه إلا مؤخراً .. وأنا فى القبر ..

حدثنى أحد الغلمان قال :

اختبأت وراء سياج من العشب وأنا أشاهد تأبط شراً يعبر على قومى .. كنا أشبه بالعزل وهو كالرياح الهوجاء .. وأنا غلام لم يتعد سنى الخامسة عشر لا أرمى السهام إلا على الارانب . اصيب واحداً ، واخطى عشرة .. لكننى أخذت قومى وسهمى واختبأت ..

كان الرجل الداكن يشد وتره فيشق قلب قومى من الرعب . أبى وأمى وأخوتى ورفاقى . كل الرجال الذين أعرفهم يتدافعون كالمجانين يبحثون عبثاً عن خيولهم أو سيوفهم والرجل الداكن يجذب الوتر ويقيم بينه وبينهم حاجزاً من الجثث ..

رأيت واحداً من أصحابى يموت . صرخت . سمع صرختى التفت . رأى . تفحصنى بعينه الناقدتين . أدركت أنه سوف يقتلنى هذه اللحظة . لكنه بدأ مدهوشاً وهو يتأملنى . أنزل يده المشرعة بالقوس . خيل لى أنه يبتسم . كنت أكره هذه الابتسامة .

وضعت السهم في قوسى وهو مازال يتأملنى . أطلقتته عليه وهو مدهوش خيل لى أن السهم يرتد إذ يلامسه . لكنه نفذ في كتفه اليسرى . بوغت . لم يتوقع أن أفعل هذا فكرت . سوف يرد على . لم يفعل . وضعت سهمى الثانى وأرسلته فغاص في كتفه اليمى . ظل واقفاً . حاول رفع ذراعيه للرد على لكنه كان قد تأخر . والابتسامة على وجهه كما هى . أرسلت السهم الثالث فغاص في صدره . كنت مندهشاً من دقة تصويبي . رأيت قومى يقبلون من الخلف في حذر . وهو واقف أمامى حتى ظننته يلعب لعبة ما . وأن سهمى وهما . أطلقت السهم الرابع فغاص في بطنه . ظل واقفاً قلت . سوف يقبل ويقتلنى . أطلقت الخامس على فخذه الأيسر والسادس على فخذه الأيمن وظل واقفاً . أطلقت على وجهه وعلى عضديه وعلى حوصه وعلى قدميه وظل واقفاً . قال لى أبى قديماً أن أحد العرافين المهرة شاهد أثره وقال هذا لا يقدر عليه أحد . أيعرف أنى مازلت طملاً ؟ وأن اللعبة أكبر منى . أنى أطلق سهمى بعناد وهو لا يابه بذلك . فرغت جمعيتى أصححت بلا حول . بدأ يتحرك يقبل على . بطيئاً . بطيئاً . يمد ذراعيه المرشقتين بالسهم . وقمت أنا متصلباً . مثلولاً . لا أستطيع الفرار . . وفجأة هرى للأرض . . وأدركت أن البريق الذى كان يتوهج في عينيه . قد انطفأ . .



عروة بن الورد من يملك الكون الرحب . . ؟

وقف عروة بن الورد على حافة الصحراء رأى التلال كالحوانات الرابضة والنحل
أذرعاً متوسلة . ومضارب الخيام مثل حسب الماء ومثل السراب . مد قبضته والقى آخر ما في
جمعته من سهام . وآخر ما في كيسه من نقود . وآخر ما في قربته من قطرات الماء . فإنشق
الرمل عن زهور برية رائعة الألوان ونباتات شيطانية وعشب بصر الحضرة

قال أبو الفرج الاصبهاني متوسلاً
- تمهل قليلاً يا عروة . حتى اكتب قصة حياتك

لكها سنوات الجوع واشعار المخر والانتساب لا تشيع حائماً ولا تشفى مريضاً
«وعطفان» مثل كل القبائل - ومثل كل البشر - فيها الحوعي وفيها المتحمون . ولكي تكون
القسمة عادلة لا بد من جراحة بالسيف والشعر دم القلب . تحمل أبياته كل العذابات
وكل التوق الانساني للحب والتواصل

أخرج أبو الفرج أوراقه . وضع ريشته في المحرة . قال .
- اجلس قليلاً اذكر نسبك وقص على أخبارك أنت لست مسئولاً عن كل
هموم الصحراء . .

الصحراء في الصدر . ذنب وتعوينه . الصعاليك هم نباتات الصبار بين فحاجها .
عندما يظهرون يصحون قبيلته . ويصبحون سبه . ويصبح هو مجرد عروة
الصعاليك .

تمهل بالجواد قليلاً . . أخذ يتكلم بينما أبو الفرج يدون بسرعة :
- أنا عروة بن الورد بن عمرو بن قطيعة بن عيس بن بغيض بن غطفان بن مضر بن
نزار . .

وقبل أن يتم سلسلة الانساب . تعالت من خلف التلال المحيطة بهما أصوات
الاستغاثة . خرجت جموع من الناس . فقراء ومرضى وشيوخ وأرامل وأطفال يتامى . .
اسمال رثه وعيون غائرة . . زعقوا بصوت واحد :

- يا عروة . . يا أبا الصعاليك أغثنا . . .

لم يسألهم ماذا ألم بهم ؟ . . كان يعرف رائحة الجوع حين تتكاثف وتمختلط بالعرق
الاساي والرمل وشمس الصحراء القاسية . . حين تصبح سحابة قاحلة . . يعرف بريق
العيون والتوهج الأخير قبل الإنطفاء . والأطفال يزمون أفواههم وقد عجزوا عن ترف
البكاء والإلحاح . هذه نذر سنوات الجوع والصحراء لا ترحم الضعيف . . قال لهم :

- تعالوا معي . .

تحركت قبيلته البائسة خلفه . ذهبوا لواد منعزل . أحضروا سعف النخل والجريد
واقاموا أكواخاً صغيرة للمرضى والنساء . تفرس عروة في الباقيين الذين لم يهدم الجوع ؛
كان عليهم أن يواجهوا معاً مصيرهم . . أصدر أوامره . .

- هيا معي . سوف نغزوا سويا . .

والصحراء الممتدة تحمل وعود الشيع ونذر الموت . ولا يوجد بين التلال المترابطة إلا
طريق واحد يختاره البشر والضباع . حتى أن عروة يحس بنفس حدة الجوع التي يحسون بها .
ينزع قشرة السيادة ويرتعد الصعلوك الرابض في داخله من النشوة . إن ثمة خطأ في
التقسيم . وعليه كل حين من الزمن أن يعيد الأمور إلى نصابها . وفق قانون المباغتة الذي لا
تعترف الصحراء إلا به . .

ومثلما كان عروة يشم رائحة الجوع . إشم رائحة التخمة . خلف التلال كانت هناك
قبيلة نائمة . و نار مطفأة . وأبل تجتر شمس النهار الفاتت . زعق فيهم . اهجموا ياكل
فقراء البادية . ياكل الصعاليك . . وبكل شراسة الجوع . بكل غريزة البقاء هجموا .
فوجيء سادة الابل - الذين كانوا يعانون من كوابيس سوء المصم - بالهجوم ، استيقظوا
فزعين . هربوا وهم يهزون كروشهم . وتركوا الأبل غنيمة سهلة . لمحو عروة ؛ بريق
سيفه وشارة عمامته وهو يصول فوق جواده . يصرع من يتعرض له .

سألوه نفس السؤال :

- يا عروة . . أنت سيد مثلنا . . كيف تساعد الصعاليك على نهينا ؟ . .

لم يرد عروة عليهم . لن يمهوا الاحاة أبداً كانت سيوف الجوعى لا تنتظر
عادوا بالغنائم . حيث المرضى والشيخ والنساء . أوقدوا نار الفرح العظيمة . وعروة
يقسم الغنائم . كل واحد له نصيبه حتى الشيخ والمرضى . انقضت رائحة الجوع
الثقيلة . وتلونت السنة اللهب بقطرات الدهن المتساقط من الشواء . وانتعش الليل
بأغنيات الحب . . وهز عروة رأسه في سعادة وهو يقول لأبي الفرج :
- عندما أشاهد نارهم أرحل في الحلم . أغنياتهم التلقائية البسيطة توقد داخل كل
جدوات الشعر وكل الصبايات القديمة . .

هتف أبو الفرج معترصاً :

- لكن ما أكثر الفقراء وما أكثر الأوغاد فيهم . إن شرور العالم لن تنهيا غزواتك
المفاحة . . والمحدودة . .

- إن علينا أن نحاول فقط . لا نياس ولا نستسلم . هكذا تحتم علينا شهوة الحياة
العارمة . نيرانها تنقد بداخله أشد سطوعاً من نيران القبائل الكبيرة . يمتص وحشة
الصحراء وضراوتها ويجوؤها إلى شعر متألق . ويزرع شوقاً لا يهدأ في صدور النساء . .
الصعلوك لا يمتلك شيئاً . لذا لا تتأثره شهوات التملك . ولا تؤرق ليله أحلام الأنانية .
توحده الصعلكة مع ربح الفجر وحذاء القوافل وهمسات العشاق على حواف العيون . .
حتى أنه يهب كل ما يملك . . يهب . . يهب . . ويب . . ولا يظمر إلا شهوة الحياة
المتدفقة . .

يبلل أبو الفرج أطراف ريشته ويكتب :

- من قال أن حاتم الطائي أكرم الناس فقد ظلم عروة بن الورد .
لكنه ذات مرة حاول أن يمتلك . أمنية . قطعة من السحب . يمتلك روجة
وبيتاً وأطفالاً في إحدى المرات أغار على قبيلة «مزية» . فاجأتهم الظلمة بصرحات
الجوع تركوا إبلهم ونساءهم وفروا أقبل الصعاليك على الغنائم . وقف عروة أمام امرأة
وحيدة في حيمة منفردة رأى عينيها الواسعتين . عينا لها الشاردة ووجهها السوديع
واسدال شعرها تحت الخمار :

- ما اسمك ؟

قالت : سلمى . .

سارت خله أسيرة . لم تقاومه . لكنها ظلت مترفعة لم تنحدر إلى مستوى السى
وكلها التمت إليها رمقته بنفس العينين المتوثبتين دون أن توليه أى اهتمام .

جلسوا يقتسمون الغنائم . قسموا الابل والثياب والجواهر . قال عروة . هذه المرأة

لى . وفوجىء بالصعاليك يقولون . . كلا . بل تقسم مثل غيرها من المتاع ومن شاء أخذها فليأخذها . وذهل عروة .

هتف أبو الفرج فى حنى مبالغ :

- ألم أقل لك . . إنهم أوغاد . . لماذا لم تهو عليهم بسيفك ؟ . .
مد عروة يده وأمسك سيفه . تأمل وجوههم التى كانت تتقلص من الجوع وأصبحت الآن تتقلص من الطمع . تذكر أنهم صنيعة . هو الذى جمعهم وصنع منهم قبيلته الصعيرة أدرك فيها يشبه لمحة البرق أنه قد وقع فى خطئه الأول . إن رغبة التملك قادتة إلى ذلك إما أن تمتلك أو تكون صعلوكاً . . قال :

- هأنذا أتركها لمن يريد وإن شئت فإفديتها بناقتى

وتسربت المرارة خلال نبرات صوته . ولا بد أن الصعاليك قد شعروا بهذا أيضاً ؛ أخذوا الناقة وتركوه والمرأة . وحيدى فى الصحراء . مد يده ولمس شعرها فانفضت . . قال . .

- لا تخافى . لن تكونى أمه . سوف تكونى زوجتى . لا أستطيع أن أمتلك شيئاً .
وسارا معاً . توالى أيام . جفت آبار وتفجرت عيون وطمر الرمل واحات نائية .
وعاش عروة بن الورد بين ذراعى سلمى . مهبا تباعدت الغزوات وطالت مشقة السفر . .
فهو يعود إليها .

يركض عروة على صدر الصحراء . الرمل حوض دافىء رطب . والسماء زمردة بعيدة المنال . يستغيث به الصعاليك من حدة الشتاء ومن قىظ الصيف . كان معه ناقتان . ذبيح واحدة وحمل مرضاهم على الأخرى وسار إلى مضاجع المتخمين . كان ينفذ عن نفسه رماد الحياة الزوجية الراغبة . فى الخلاء قابله أحد الضعفاء يشكو ظلم قبيلته أعطاه سيفه وخلع عليه طيلسانه . ورأى امرأة طاعنة فى العمر مقطوعة الولد . أعطاها آخر ناقة يملكها . وكانت الشمس رغيماً ساخناً تتطلع للفقراء من فوق قمم الجبال وتدفع داخله الشعور بأنها - هى أيضاً - يجب أن تقسم بالعدل . شكى أحد العشاق المولهن من أن حبيبته لا تأبه به . ألف له قصيدة وطلب منه ان ينسبها لنفسه ويلقيها على اسماعها . رأى القبائل تتأهب للحرب من أجل ثار قديم فدفع دية القتلى . وظل وقع سنابكه يدق صدر الصحراء مثل وجيب القلب . يضع زهوراً على حافة الآبار ويرثى موت الصعاليك . وينبت العشب الأخضر فى رماد النيران المطفأة ويطيّر الحب قبلاً على وجنات الصبايا . يرقص رقصة الشيع والدفء . ثمودج رائق لأعظم ما يكون صفاء الانسان رغم جروح أظافر الاصدقاء . وأسوار الانانية . ورغبة التملك الشرسة . والتخمة والجشع . رغم كل هذا . كان صدره سمحاً كإمتداد الصحراء . معتداً كالقمم . صبوراً كزهر الصخر . فرحاً بكل الأطفال لحظة الولادة . وبالبراعم لحظة التفتت . وبكل العشاق حين يتبادلون قبله

مختلصة . وبالجموعى حين يقدحون بيراك الشواء ويصعدون ريح الشبح كان عاشقاً لكل أنواع البهجة الانسانية . وكانت عينا سلمى سوداوين وعيون المها حوراء وريح الصب عذبة ..

قال أبو الفرج وهو يفر غضباً ويلقى ريشته :

- هذا جنون لقد ترجمت للكثيرين . صعاليك . ملوك . فرسان شعراء .
لم أر من هو أضعف من النفس الانسانية . أنها مفعمة بالشهوات مثل مستنقع مليء بالديدان أعرف هذا جيداً ..

لكن عروة القى زهرة لسحابة عابرة فأمطرت . حمل زوجته على راحلته وسارا .
قالت : وإلى أين تأخذنى يا عروة ؟ قال : إلى حيث شئت كل البلاد بلادى . قالت :
لو أخذتني إلى أهل فأراهم ويروني قال : أما هذه فلا أستطيع . قالت : خذنى اذن إلى بلاد
بنى النضير . . قهقهه ضاحكاً : هؤلاء اليهود بقلانسهم السوداء الطويلة وضحكاتهم الخافتة
المأكرة .. ما أشد شوقى إليهم ..

كانت سلمى تضممر أمراً .. والناقة تحث الخطى عبر الوديان والبوادي إلى بلاد بنى
النضير . ثم تجوس خلال بيوتهم الواطئة وطرقاتهم الضيقة الملتوية . وأصوات المزامير وهى
تتعالى من المعابد . والقلائس السوداء تكشف عن الوجوه اليهودية الشاحبة . واللحى
الرفيعة المسترسلة . . أخذوا عروة بالاحضان . . لم يكن ثمة من يجهله . انزلوا سلمى من
هودجها . ذهب هو مع الرجال . وبقيت هى فى خيام النساء . كانت سلمى تعرف ما بين
أهلها وبنى النضير من صلوات وثيقة . تجارة وزيميات وتحالف . طلبت من النساء أن
يستدعين أزواجهن وبعض وجوه القوم وقالت لهم ..

- أنتم تعرفون نسبى . وأن عروة خارج بى قبل أن يخرج الشهر الحرام . أخبروه
انكم تستحون أن تكون امرأة معروفة النسب منكم سبية . وافتدونى منه فإنه يحسب أننى لا
أفارقه ولا أختار عليه أحداً ..

قالوا :

- لكنه سيرفض . لقد عشتما معاً عشر سنين ولك منه أولاد ..
- إنه أكرم الناس . وهو يهب أى شىء حين يكون متيقظاً . فما بالكم لو كان
مغموراً ..

وفى حانة بنى النضير كان عروة يشرب ويضحك ويتحدث . كيف يمتطى الخيول
ويسوق الابل . يتحدث عن السحب والزهور والنجوم الصغيرة الملونة التى يعثر عليها
مطمورة فى الرمل . ويهود بنى النضير يتضحكون فى خفوت ويراقبونه وهو يشرب الكأس

الأول قالوا . أنت شريف بومك ونسبك ينتمي لمعر وهو أشرف العرب فلماذا تصاحب الصعاليك ؟ وقال : عندما تجرح السيوف الصعاليك فإن دمهم الذى يسيل يشبه دمي . . وبحس نفس درجة الألم . وفى الليل نحلّم نفس الأحلام . وراقبوه وهو يشرب الكأس الثانى قالوا . يا عروة . أنت لا تحصل على أى فائدة من وراثهم . أنت فقط تثير عداة أشراف القبائل ضدك . قال : أنا لست يهودياً مثلكم : كل مساء لأوى إلى فراشى قبل أن أحصى أرباحى وخسائرى . ولسن صيرفياً فى طريق القوافل . أنى أحط ترحالى حيث تكون الحياة : يجب ان يتمتع بها الجميع وصحكوا فى صوت خافت وهو يشرب الكأس الثالث والرابع قالوا . . يا عروة . . لكنك سنموت ذات يوم ولن تخلف لأولادك شيئاً . قال . . بل أترك لهم هذا الكون الواسع الممتد . لم أملك شيئاً ولم يملكنى شىء . فتحت نى أنريح صدرها . ودثرتنى الصحراء بعباءتها ووهبى الليل أحمل الأحلام . . إننى أترك لهم شعربى . إرث دائم لا يستهلك . . كان قد شرب حتى إنتشى وإتسع قلبه ليشمل الكون وحانت لحظة المساومة الخاسرة . تقدم كبير بنى النضير . كان شيخاً مهيباً لولا تلك القلسوة الطويلة المضحكة التى يلبسها ، قال :

- يا عروة هل تهب أى شىء . . ؟ . .

قال عروة . . أى شىء مادمت أملكه . . ؟ .

قال الرجل . إعطنا زوجتك . قال عروة فى دهشة . . ماذا . . ؟ قال الرجل يهدوء

ومكر . .

- ان زوجتك معروفة السبب فىنا . نحن نخالط قبيلتها ولهم علينا حق الجوار . وبيننا أصهار وأقارب . وإن علينا الآن سه لأنها سبية عندك . . فإذا صارت إلينا وأردت ان تحفظها زوجاك إياها . .

قال وهو يشعر برأسه تدور : لكنها زوجتى . أم أطفالى لا أستطيع قالوا : أنت الذى نتاهى سماحتك تتراجع فى نفس اللحظة ؟ تذكر سلمى . تذكر رفاقه الصعاليك . قال .

- لى شرط واحد . أن تحيروها إن اختارتنى وولدها ذهبت معى وإذا اختارتكم ذهبت لأهلها .

قال الرجل بسرعة . . ذاك لك . .

وفى العد ساروا إليها . وقمت سلمى وسط جمع الرجال من ناحية وعروة بن الورد من الساحية الأخرى . وبدت وجوه بنى النضير مثل غربان تتحفز للانقضاض . تقدم كبيرهم . قال .

- يا سلمى . . لقد وهنا زوجك لنا على شرط . .

قالت يهدوء وهي تتحاشى النظر إليه : أى شرط ؟
- أن يكون لك الخيار . أن تختارى عروة وولدك فتذهبين معه . أو تختارى أهلك
فتمصين إليهم . .
صمتت المرأة برهة . وفكر عروة بغته إنها لن تختارى . قالت . .

- فأنا أختار أهلى . .
ورغم سابق توقعه فقد أذهلته الكلمات وهي تخرج من بين شفتيها وأذهلته أيضاً تلك
الانتسامة المتواطئة على وجوه بنى النضير . صاح أبو الفرج نائراً .

- ألم أقل لك . كل النساء خائئات . .
وفكر عروة . حتى هي تخدعني بعد عشر سنين كاملة
وقفت المرأة أمامه قالت بصوت سمعه الجميع .

- يا عروة والله ما اعلم امرأة من العرب القت سترها على نعل خير منك . أعرض
طرفاً وأقل فحشاً . . وأجود يداً . ولكن ما مر على يوم منذ كنت عندك إلا والموت أحب إلى
من الحياة بين قومك لأنى لم أكن أشأ أن أسمع امرأة من قومك تقول . . قالت أمة عروة
كذا وكذا . . إلا وسمعته والله لا أنظر فى وجه غطفانية أندأ فإرجع راشداً إلى والدك
وأحسن إليهم . . وترقب حتى تنسيك الأيام ما كان من أمرنا

تأوة عروة كالمطعون سار عبر الدروب الملتوية والبيد الموحشة يهدى بالشعر
والندم . كان يتذكر بى النضير ، يرى أطراف أنوفهم المدسة . يسمع المزامير ويحس بوطأة
الحديدية . . سلمى . . واليهود . . والسنوات الحاتمة . هل كنت مخطئاً فى كل ما
فعلت . . فى كل ما عشت ؟ كل أشعارى هباء . والصحراء ضيقة كطرقات بى النضير
والشمس سوداء بلون القلانس والآبار مرة ، وسلمى بعيدة كأنها لم تكن ذات يوم .
والصعاليك يغرزون أطرافهم فى جلده والعشاق يدبحون على حواف العيون وسط العلاء
صرخ كالحيطان الجريح :

- سلمى لماذا فعلت بى هذا . ؟
وتبدد الصدى دون إجابة . . قال أبو الفرج .

- لعلك قد تعلمت من قسوة الدرس . فإذا جاءت سنوات الجوع وإستعاث
الصعاليك فلا تحب . . أنت شريف وهم صعاليك .

ترك عروة ناقته وضرب كفلها . ظلت تحب حتى اختفت كان فيها بعض من
رائحتها . . وهو يمتنى أن يولد من جديد . لعل هناك أرضاً لم يطأها بشر . وظل يركب

الجواد ويضرب صدر الصحراء .. وتوقف أبو الفرج في ظل صخرة يبلل أطراف ريشته ويكتب حتى أقبل عروة فصاح به :

- توقف يا عروة .. لقد انهيت مهمتي ..

قال عروة . أى مهمة .. ؟ ..

أشار أبو الفرج إلى كومة من الأوراق كان يحفظها بحرص واضح ..

- لقد دونت نسبك .. وكتبت تاريخك وأخبارك وكل الاسانيد الصحيحة . سجلت أشعارك ومآثرك وهذه الأوراق سوف يحفظ لك التاريخ أجل الصور .. يا عروة إن عمرك كله في هذه الأوراق .. خذها وكن حريصاً عليها ..

تناول عروة لفة الأوراق . إحتضنها كأنما استعاد نفسه أخيراً . لكن الجواد وإبتعد . وحميف الأوراق إذ يجتلك بصدرة كأنه همس امرأة . وفي منتصف الطريق رأى شخصاً ما . صعلوك بائس . لا يرتدى من الثياب إلا ما يستر عورته . وقف في طريق الجواد وهو يهنئ :

- يا عروة . يا أبا الصعاليك .. أغثنا ..

لوى عروة عنان الجواد وتوقف .. قال .

- ماذا بك ؟ ..

قال الصعلوك :

- بردان يا عروة .. بردان حتى النخاع ..

ودون أن يفكر عروة ألقى إليه بلفافة الأوراق وهو يقول ..

- خذها .. اشعلها وتدفاً على نارها ..

وإنطلق عروة بن الورد سحراده ..



النايعة . المنخل . المتجردن .

الصدائة . الحب . الموت

بينما كان أبو المريج الاصفهانى تائها فى عرض الصحراء مر به فارسان لم ير احمل منها
حلال تجواله الطويل . ولما كان فى أن المريج - كمادة كل العايين - نقطة ضعف أمام
الوجه الحسن فقد أوقفها وهو يتساءل .

- أيها الفارسان الحميلان .. انتسا ؟
توقفا قال الأول ..

- أنا النايعة اللدبىاى واسمى رباد بن معاوية بن عيظ من بنى ديبان
قال أبو المريج .. فانت أشعر أهل زمانك ..
والنفت للفارس الآخر يسأله .. فقال ..

- أنا المنخل بن عبيد بن عامر اليشكرى
قال أبو المريج .. فانت أجمل أهل زمانك . إلى أين تمصيان .. ؟
قالا . إلى بلاط النعمان بن المنذر ملك الحيرة ..
قال أبو المريج .

- ان الشعر روح الصحراء اللافة تشرد قوافيه كالجباد العصبية . وعندما تمسه
رياح بلاط الملوك يصبح رخواً متزلماً أما الصداقة فهى نبض ليالى الحوف والخطر
المشترك . وعندما تحتضنها الحاشية يصبح الود وقبعة . واسداء الصبح دسياسة

قالا معاً . أنت لست من أهل زماننا ولا تعرف معادن الرجال
ومصيا قال لبعضهما البعض . هذا عحور مخرف كربه الرائحة . ومغلا طويان

الصحراء إذ نام أحدهما أقام الآخر الليل يحرسه . وإذا وصلا لبئر أصر كل منهما على أن يشرب قبل الآخر خشية أن يكون مسموماً . وإذا رددنا بيتاً من الشعر لم يدريا من قائله . كيف جئت يا منخل من بنى يشكر . وجئت يا نابغة من بنى ذبيان وتجمعتما تحت عباءة الريح عبر كل هذه الفياق ؟ رجلان حقيقيان إذا سارا وإذا غزيا وإذا عشقا . وعندما مستها ريح الطموح ، رحلا سوياً . . وأكد أبو الفرج لنفسه . .

- لكنها مخطئان . النعمان بن المنذر . أحمر أبرص . قصير . دميم . وهما كنصفي القمر كيف يطيقهما في مجلسه . .
وعندما وصلا لديار «الحيرة» . أدركا أنها وصلا لأرض الغربة فتعاهدا بالدم . وبلغمات الخبز وحرعات الماء وساعات السهر وذهبا لقصر الملك . ووقف النابغة منشداً . .

أتيتك عارياً . . خلقتا ثيابي . .
على خوف تظن بي الظنون . .

ورأيا النعمان على عرشه . . دميماً كما لا يتصور أحد . وشعره الأحمر يضيء قبهاً مضاعفاً على التاج . . يغافل الحاشية حتى يحك جلده الأبرص . . وهمس المنخل . .

طوال عمري لم أر ضفدعة تتحل بكل هذا القدر من الذهب والجوهر .
وصفق النعمان طرباً . . وهتف . .

- هذان صديقان من الصحراء . شاعران يسبحان بحمدى . دقاو الدفوف ومدوا الموائد .
وكان أبو الفرج قادماً من الصحراء فرأى القصر مزديناً بالأنوار والموائد ممدودة . حاول الدخول فأوقفه الحرس . قالوا .
- الملك مشغول . عد بعد عام . .
سأل عن هذه الأنوار . قالوا . شاعران يقولان مدحاً في الملك . قال مدهوشاً . .
يا إلهي . لقد هوبا سريعاً .

ونفضت المتجردة زوجة الملك النعمان من حمامها المعطر ، سألت عن سبب دوى الدفوف . قالوا : شاعران انضما لبلاط الملك قالت بسأم . عجوزان أبلهان آخران انضما لبقية عجائز الحاشية . التفت في علالتها وسارت . كانت تكره القصر والجوارى والخدم والعبيد وتجهم الحراس وعمومة الحرير وسذخ العطور . عصفورة مفرورة في قفص من ذهب . جاء إليها العرش هدية ملوثة لم تسع إليها . كانت زوجة لابن عمها «حلم» أحد أقارب المنذر بن ماء السماء . لا تهوى سوى أمنيات الحياة البسيطة . وذات يوم زار الملك المنذر منزلها . رآها . من ؟ قالت . . أنا المتحدرة . زوجة «حلم» .

طل يمدق فيها وعندما حاء روجها جلس إليه . وكل الامسيات يريد في تقرينه
ويجعله كاتم سره وعلى مائدة الشراب أحد المدر يمرح شرانه بالماء ويقدم الشراب صرفاً
«لحلم» ثم قال له

- يا حلم إنه لقبيح بالرحل أن يقيم على المرأة زماناً طويلاً حتى لا يبقى في رأسه ولا
لحيته شعرة بيضاء إلا وعرفتها فهل لك أن تطلق امرأتك «المتحدرة» واطلق أنا امرأتى
«سلمى»

ولأن كل الآراء في رأس المحمور تكون صائبة فقد وافق وأحد كل مهها عهداً على
صاحبه وفي الصباح طلق «لحلم» المتحدرة وطلق المدر روحته سلمى وأم ولى عهده
العمان ثم أسرع بالرواح من المتحدرة بيما حرم على سلمى الرواح من غيره

انتقلت المتحدرة إلى بيت المدر وهى تعانى من مرارة الخدعة .
وكان المدر عجوراً . ودات صباح استيقظت فوجدته ميتاً فلم تشعر بأى حزن ولم ترتد
أى سواد وداعتها أسام العتق والحرية لكن العمان بن المدر وقف على نامها كانت
حرءاً من أرث والده نحاب القصر والعرش والحيرة لم يكن هناك أمل في الخلاص . حتى
«لحلم» فقد عقله وتاه في الصحراء وأصبحت دروب القصر شبكة متداخلة وسيوف
الحراس ناترة .

تحولت عينا المخل القلقتان . الرطوبة تبعث من كل ركن . رجال الحاشية . يقفون
محبين كالنوم العجور في الصحراء يميت الرحال وقوفاً كالنخل . والشمس تشعل الرغبة
والخون . لكن القصر والاروقة الطويلة الخالية لا تحمل سوى الكآبة رغم بريق الذهب
والموائد الحافلة والدفوف العالية وكل الأشياء التى تعلق للجميع أن ندامى الملك عاية
في السعادة

إستكملت المتحدرة ربتها تساءلت في حسرة ما جدوى العطر؟ دخلت وصيفتها
قالت الحاشية كلها محتمة . قالت لملل . أعرف كل عحائر الحيرة قالت الوصيفة
أهها ليسا عجوزين يا مولاتى . وليسا من الحيرة أيضاً هضت في ثقافل لمجرد أن تعير من
كآبة الحجر . تطلعت من خلف الستر . من نافذة علوية فوق العرش ألقطت نظرة
سريعة . . لكنها توقفت لم يكونا عجورين حقاً لم يكونا من الحيره لم يكونا
أحمرين . قصيرين دميمين أرمصين . كانا رجلين فيها سمرة الصحرا . وكمل
صوات الشبا همتس الجارية فزعة

- لا تحركى الستر يا مولاتى حتى لا يراك أحد . .
قال المسخل . أنظر يا ذيبان . هذا الستر يتحرك . لقد رأيت خلفه عيين كآهها

نجمتان بعيدتان . إرتعد النابغة وهو يهتف : لو نظرت هناك مرة أخرى لكات نهايتنا . .
هلل النعمان إنسحبت الرقصات . طلب منها أن تقول شعراً في مجده وجاهه أحد
النابغة يرتجل والمخل يرقب حركة الستر . شعرت المتجردة بالاشمئزاز وهي سسمع
ضحكات النعمان . لكن عينيها ظللتا عالقتين بعيني المنخل والجارية تتوسل إليها أن
ينصرفا . . وقال الملك . .

- عدأ نخرج للصيد . . منذ الآن نديماى ندمائى وخير خلصائى . .
خلع عليها الذهب والثياب . وللمرة الأولى فكر المنخل . لقد أعطى النابغة أكثر
منى . ورفع أبو الفرج كأسه تحية لكل ندامى الحيرة وهو يهتف . .
- يا أصدقائى . رمل الصحراء هو مقياس الصدق الوحيد . إنه لا يساوى شيئاً ولا
يشير طمع أحد . .

وباتوا يجلمون . كان النابغة يحلم بسوق عكاظ . . وقد غدا أعظم شعراء العرب
يجلس في صدر موكب التحكيم . وشعراء القبائل يسعون إليه . يضعون قصائدهم على
أعتابه وينتظرون حكمه . كلمته تعنى مولد شاعر . أو موت شاعر . . والمنخل يحلم بحركة
الستر . والعينان النجمتان تشعان في صدره . يرفع الستر فيغوص في بحر من عطر
الشام . والمتجردة تحلم بالصحراء . أغلقت باب حجرتها . قالت إنها متعبة . وأطفأت كل
الشموع ورأت القمر مثل امرأة وحيدة تشكو الحجر . النعمان يحلم بالقبائل وهي تردد
القصائد التي قيلت فيه بالكلمات وهي تطرق اسماع كسرى ملك الفرس فتولد داخله
الحسرة

. . ولم يستطع أبو الفرج أن يحلم لأنه قضى الليل في الشارع . صاحب الحان سلبه
كل نقوده وألقى به للرصيف . فقط تمنى أن يؤلف كتاباً ضحكاً يبيعه بثمان عال .
وفي الصباح رأته المتجردة يستعدان للصيد وعند الظهر رأتهما حول مائدة الغداء . وفي
المساء رأتهما في مجلس الطرب . أصابها ما يشبه الهوس . وعينا المنخل تلاحقها . . تنمى أن
تكون جارية صغيرة بعيدة عن عين الملك . والحرس والوشاة . .

ودات مرة كشفت عن وجهها لمدة وجيزة . كانت خلف الستر ، ورأت عينا المنخل
تطلعان نحوها فمدت يدها ببطء وكشفت له عن وجهها . أعطته نظرة طويلة متألقة مليئة
بالرغبة . وركض قلب المنخل خوفاً وهو يهمس لنفسه :

- إنها هي

وقررت المتجردة أن تبحث إليه برسالة . . هتمت وصيبتها مولان . . هدا حوون .

قال الدبح أفصل

بوسلت اليه رسالة بها . . ثم حملت الرسالة ذاتها تحمل حمر الباء . . عندما عاد

إليها سألتها في لهفة بالغة : هل أعطيت الرسالة : قالت : أجل يا مولاي . قالت هل رأيتها أحد ؟ نفت الحارية ذلك . إن أحداً لم يرهما بالفعل . لكن الوصيصة لم تعط الرسالة للمنخل . . إن الذي أخذ الرسالة كان، النابغة . .

جلس وحيداً وفتح الرسالة . وشهق . المتجردة تدعوه . أمي خدعة . . أم اختبار للثقة . . ؟ ماذا يفعل . . هل يقول للمنخل ؟ . . إنه صديقه الوحيد في هذه المدينة . . صحيح إنه تغير في الأونة الأخيرة لكنه مازال رفيق الصحراء وبينهما عهد الدم . . هل يذهب للمتجردة . . أم يتناسى الأمر كان وحيداً . وجد النعمان قد خرج للصيد والستائر مرخية والأروقة خالية .

وأحس أنه كالمنوم يجتاز الأجنحة ويدخل الحجره . . بحر من عطر وحرير . . وألوان ناعمة تسلبه كل إرادة ، يدفع باباً خلف باب . . الحجرات خالية والأروقة والأسرة دفع الباب الأخير . وجد المتجردة أمامه توفف مبهوراً كانت في حمامها عارية تماماً وجسدها الأبيض يشع وهجاً كحد السيف وحرقة الرعب التفتت في فزع . مدت يديها تحفى نصفها السفلى تحاول أن تثقية . . همهم . .

- أنا النابغة . . اتذكرين . . الرسالة . .
تمتت في حنق وغضب :

- أخرج وإلا قطع الحرس رأسك . .
ردد نفس الكلمات وهو غير فاهم . حاول الاقتراب . لكنها صرخت أخرج أيها الكلب

جاءت الجوارى مسرعات . ودثرها .
ودفع النابغة . وخرج وهو يتساءل . لماذا أرسلت الرسالة اذن ؟ لم يكن قد رأى امرأة بهذا الجمال . ولا جسداً بهذا البهاء حتى وهي تسبه وتطرده من أمامها .

عاد النعمان من الصيد لم تقل المتجردة شيئاً فقط أدركت أن الرسالة قد أخطأت طريقها وظل طيف المنخل أمامها . تتحين الفرص الاتصال به . . وعندما طلب النعمان من النابغة أن يقول شعراً لم ينس بيت واحد . ورأى الستر يتحرك . ورأى وجه المنخل يشرب والعينين المحميتين اللتين أصبح يعرفهما . . والاختلاجات السريعة على وجه المنخل شعر بالحسرة تأكل قلبه . . تمخى . لو أنني لم أعاد الصحراء . .

وفي اليوم التالي . رأى نفس الوصيصة لكنها أصبحت تعرف طريقها . ورأى المنخل عندما غاب عن مجلس النعمان . وعندما عاد مرتبكاً . وفكر فيها يشبه الوصيصة . ترى هل كنت غير مقصود بالرسالة . . ؟ . . والمنخل يتسم كأنه يحلم . والستر يهتر ويدان

البرص تسير على الأبسطه وتمهبط درج العرش . . وبينها هما عائدان وقف في مواجهة المنخل
فجأة . . وقال . .

- يا منخل . . هل تعشق المتجرده ؟

بوغت المنخل : أنت مجنون . .

وتركا بعضهما . أدركا أن كلا منهما قد فضح سر الآخر . وأن ما بينهما قد الهدته برودة
القصر وعطايا الملك . فكر النابغة : يجب أن نفترق ، وفكر المنخل : لا أستطيع أن أترك
القصر . . وفكرا سوياً : سوف يكون القتل أهون عقاب يوقعه النعمان بهما .

وعندما هطلت الأمطار وتماسكت الغيوم فوق الحيرة استطاع المنخل أن يلتقى بها .
أخبرته كيف تزوجت المنذر وكيف ورثها النعمان ثم كيف أحبته هو من اللحظة الأولى .
وكيف أخطأت رسالتها الأولى طريقها إليه وفسد ما بين المنخل والنابغة تماماً وأصبح وجودهما
في القصر معاً مستحيلاً . .

كان المنخل يواصل التردد على القصر ومنادمة الملك . . بينما كان النابغة يتباعد .
يحاول الايفتح الجروح القديمة . وفي إحدى المجالس . . همس المنخل في أذن الملك . . دع
النابغة يقول شعراً في المتجرده . . ربما حرك فيها هذا الشعر شيئاً ناحيتك . .

أمره النعمان بصوت حازم . .

- قل شعرا في المتجرده . .

نظر النابغة حوله كالمستغيث . .

- لا أستطيع الآن يا مولاي . . أننى أعانى من نضوب قريحتي . .

لكن النعمان كرر بنفس الحدة : قل شعراً في المتجرده . .

وصمت النابغة . ثم بدأ يقول الشعر متردداً : أمس آل مية رائح أو مغتدى . . لكن
الشعر عندما يتدفق يفتح كل الجروح القديمة . يوقظ كل الصوات وكل الامنيات المكتومة
وكل أحزان القلب المتعب . رأى النابغة المتجرده أمامه عاربه مماماً كانت الشمس تشع
من خلف جلدها . . لم يعد يرى المحل ولا النعمان ولا الخاشية وعندما أفاق وحد
العيون نحدق فيه شدرأ والنعمان يتنفس في عصب ، والمحل يتسم في حث والخاصيه
مبهوته . وظل الصمت ثقيلاً

انتفض النعمان . ضرب الارض بصولحانه أمر بنص المجلس وسار النابغه
مرتعشاً كشف بفسه وعصحه الشعر وإبصره المحل «سحق اصباره وهمس
«عذب» جلاد الملك في أذن النابغة .

- انى أعرف نظرة الملك عندما ينتوى القتل . . ولن يمر الليل عليك . .
قال النابغة في عجز : وماذا أفعل . . ؟ . . قال الحاجب : إهرب . .

وعندما داهم حراس الملك بيت النابغة لم يجدوا إلا بقايا متاع قديم . . والصحراء التي جاءت به تحمله وتلقيه بعيداً . لعله يفلت من أظافر النعمان الطويلة . وأصبح المنخل وحيداً . ودروب القصر مفتوحة أمامه . لم يعد يفارق المتجردة . كان النعمان يحس بالمتجردة وهي تزداد جمالاً يوماً بعد يوم . وتغدو أكثر مرحاً . كان يشعر بالحنق لأن النابغة قد أفلتت من يده وكانت المتجردة تتمنى وهي بين ذراعى المنخل . ليتنا نصبح نخلتين وحيدتين في مكان باء بالصحراء . . لماذا لا نهرب . ؟ . قال المنخل : ما أفسى الصحراء في وحه هارين خاصة لو كانت أظافر النعمان بهذه الحدة . تمت لو أن النعمان يموت فجأة كما مات أبوه . وكانت «الحيرة» تنتهب لهما قديماً قليلاً . وعجائز الحاشية الذين أصابتهم البرودة بالصمم بدأت تلفحهم نيران الهوى الجديد .

ثم كانت المرة الأخيرة . . خرج النعمان للصيد . . وتسلسل المنخل إلى حجرة المتجردة . . كانا يريدان أن يصلا سوياً لدرجة من الامتزاج . . وأخذت المتجردة تلاعبه فأخذت قيدا وجعلت إحدى حلقتيه في رجله . . والحلقة الأخرى في رجلها . . كانا يريدان أى رباط لا فصام له . . لكن المسافة بين القصر والصحراء بعيدة . . حتى حرارة الرغبة لم تكن تقدر على اجتيازها .

كانت هذه المرة هي الأخيرة . النابغة يتخفى مرعوباً . والقبائل ترفض أن تجيره وتمهدر دمه وعاد النعمان «للحيرة» في صمت . كان قد فشل في الصيد . وفرت كل الغزلان . دخل القصر دون أن يشعر به الحرس . وعندما تنبهت الوصيصة أخيراً نهضت مفزوعة لتندرس سيدتها . والنعمان يجتاز الأروقة في حذر الصياد الماهر . وصرخت الوصيصة . .

- الملك قادم . .

نهضا في رعب . حاولا أن يخلصا قدميهما من القيد . ولكن بلا فائدة . هل كانت هناك وشاية ؟ . . من الذى وشى . لم يكن هناك وقت للتساؤل . . لأن الثلاثة . المنخل والمتجردة والوصيصة سمعوا السمعان وهو يهتف . .

- دعوا «عكب» يساعدهم على الخلاص .

وحلق العيون الستة رعباً . أشار الملك فتقدم «عكب» رفع سيفه . هوى به في حركته ماهرة على ساق المنخل . بترها ، مم - المنخل من الألم الرهيب انفجرت نافورة من الدم القاني . وأمرهم الملك

- احملاه وأقتلوه بعيدا
حمل الحراس المنخل وهو يصرخ وسيال .c. يتدفق . يرسم خطا بطول الرواق
والفصر . . والمتجرده فاقدة الوعي .



عمارة بن الوليد .. بيد عمرو .. لا بيدى ..

كانت أجنحة قوية .. وسماؤه ضيقة .. كيف يستطيع إذن ان يخلق في جحر
الفأر .. ؟ .. عمارة يعشق صورته في الماء .. والماء يعشق الطحالب العظنة ..
والطحالب تعشق صدى البحر البعيد ..

كان عمارة .. وكانت المقايضة هي آخر حل إختارته قريش ولم تجد خيراً منه .. حلم
كل أب وأم .. وكانوا كلهم : الرجال والنساء والأصنام متلهفين لانمام الصفقة .. صفقة
غريبة لأن الموت أحد طرفيها . وعمارة يسير وسط رجالات قريش . وهناك بجوار الكعبة
أجساد تنزف .. وصراخ يحمل كل العذابات الانسانية . وعمارة ناعم ، ناعم . نعومة
عطر الشام ورقة الديداج الفارسي . هذا الصنم الضخم يرمقه في حسد .. وهذا الرجل
الذي يموت من أجل الشيء الذي آمن به أحق .. والموكب الذي يمضى عمارة في منتصفه
يكبر كل لحظة .. عمرو بن العاص يسير عن يمينه .. يؤكد له أن الطرف الآخر سوف
تغريه الصفقة .. عمرو ليس صديقه فقط . إنه استاذة .. وتجربته الأولى في هذا العالم ..
وعندما يؤكد له هذا فإن احساسه بالفخر يتضاعف ..

وصلوا إلى بيت أبي طالب في شعاب مكة .. جلسوا .. وجلس أبو طالب في
مواجهته . احاطت به كل الوجوه المراوغة .. ونهض كبير القوم يبحث عن أكثر الكلمات
نعومة :

- يا أبا طالب .. أنت سيدنا وأشرفنا ونحن أحرص اهلك عليك رغم ما فعل ابن
أخيك بنا وبأهتنا .

وأبو طالب صامت .. وضحك الرجل ضحكة جافة وهو يعث في لحيته ..

- لذا جئنا نعرض عليك أمراً صالحاً . . تدع لنا عمداً نعمل به ما نشاء . . ونعطيك بدلاً منه هذا الفتى . .

والتفت في حركة سريعة وهو يشير بيده معلناً . .

- عمارة بن الوليد المخزومي أجمل فتيان قريش . بل أجمل فتيان العرب . .
. . وتعالى مهممات الاعجاب . وأحنى عمارة رأسه متواضعاً . . حتى عمرو ابتسم وأبو طالب صامت . لم تظهر على وجهه أية بادرة من بوادر السرور التي توقعوها . . تبددت الضجة الزائفة . . ورفع عمارة رأسه فوجد أبا طالب يمدق فيه . . أمى نظرة الغضب . . أم الاحتقار . . ؟ . . وظل الصمت مخيباً ، وقال الرجل متردداً .

- ما قولك يا أبا طالب . . هل توافق . . ؟ . .
وزأر أبو طالب في غضب . .

- يا لها من صفقة . . آخذ ابنكم فأريه . . وأعطيك ابنى فتقتلونه . . إذهبوا عني . .

ارتفعت ضجة من التهديد الأجوف . وشعر عمارة بخزى مفاجئ . . أنهم يريدون استبداله برجل يكون قد نبياً حقاً . كان ساذجاً عندما أغراه ابن العاص بنسب بنى هاشم . . ونساء بنى هاشم . . وكل واحد يصرخ ويلوح بيده ، وعمرو المبتسم الوحيد . . أبوه الوليد بن المغيرة يهتف في عصبية . . وأمى بن خلف يعاني من نوبة تشنج . حتى عمرو بن هاشم يشعر أن الأمر كله امانة شخصية موجهة إليه . .

لم يكن أمام عمارة إلا أن يتسلل . . ترسب فيه من الخزى ما يكفى . . خرج من شعب أبي طالب . عبر البيوت الضيقة . يخشى أن يقابل محمداً فتزداد درجة خزيه . وصل إلى الكعبة . . هناك بالقرب من تمثال آساف ونائلة كانت امرأة واقفة . ترقب عبيد أبي هلب وهم يقومون بتعذيب أحد الرجال . . يربطونه في أحد الخيول ثم يدفعونها لتعدو حول صنم هبل الضخم . . كانت المرأة تشرب المشهد . . ترتعش وتتأوه في خفوت . كلما تناثرت قطرة من دم أو تهشمت قطعة من عظم . . وقف عمارة أمامها يرقبها . الرجل يلفظ أنفاسه الأخيرة . . وتأوهات الموت تتحول إلى لمسات من النسوة تهز جسدها . . امرأة لم يرها عمارة من قبل . . لم يحلم بها . . توقفت الخيول وهدأت المرأة . . دارت بعينها فشهدت عمارة . . اكتشف كل منهما الآخر . . دون صوت دار حوارهما . سارت فسار خلفها . كان محبطاً . مسلوب القوى . شاعراً باليتم . وهي تعرف أنه خلفها ولا تلتفت . وصلا إلى تل منعزل . إقترب منها . . كانت هناك بقايا من نيران الرعيان . . جذوات لم تخمد بعد . . هل مست جبينه بأصابعها . . أم أنها وضعت عليه جذوة من نار . . كان

صغيراً . . وأبوه الوليد يهوى بالسياط على ظهور الجوارى . لعل أمه واحدة منهن . وأخوه خالد يهرب إلى الجبال يقتل كل ما يقابله من حيوانات لعله يقتل فيها صورة الأب . والمرأة أمامه . يده مغروسة في الجذوات المتأحجة . . والنار هادئة هدوء الخزى . قال لها . أريدك . فتضاحكت . ونثرت الرماد بينهما . . كانت تفر مثل السراب . . قالت . . اتقدر على . . ؟ اتقدر على زوجي ؟ . . هتف في دهشة . . ماذا . . أنت متزوجة ؟ . . ضحكت في نعومة وتهيات لكى تمضى . . وتركت جوابها خلفها . .

- زوجي . عمرو بن العاص . .

أحس لسعة النار . . ماذا ؟ الا يوجد غيره في هذه الصحراء . . من بين كل الأزواج البلهاء لا يعيش غير زوجة ابن العاص . . منذ أن انتشله وهو طفل غرير وعلمه كيف يواجه شظف البادية . . كان يشد القوس لنهايته فقال له . لا توتر قوسك وإلا ارتد إليك . . وعندما كان يسعى خلف الصيد . . قال عمرو : إجهد صيدك ثم أرمه . . وعندما كان يشعر بالضالة أمام أخيه خالد . . قال عمرو : كل لحظة من المتعة تجعلك أكثر منه قوة . ترك ابن العاص بصماته على كل ذكرياته . . الرفيق . . والصديق . . والمرأة تنهض وهو غارق في ذهوله . . قال لها : ما اسمك . . قالت : اسمي الرباب . . هل يفيدك هذا في شيء . . تركت آثار الحريق في وجهه واصابعه . . وتركت الرماد في قلبه . . خزيان في يوم واحد . . هذا كثير . .

في الفجر هزته ريح الفجر فاستيقظ . . وكانت الأحلام مليئة بالكآبة . . والليل يمضى سريعاً . . والشمس تشرق على خزيه ولا تغيب . . ابن العاص يضحك من آثار النار التي على وجهه ويهتف به . .

- تبدو كأنك أحد العميد الذين أسلموا . . ثم عذبوا . .

خبز النسيان مرير وجاف . . أرض ليس فيها إلا صديق واحد . . ورغبة واحدة . حتى أبوه الوليد بن المغيرة أصابه من جنونه . . اصنام عجوز لم تكل من السياط . . والنبي يمضى كالسيف . قابله عمارة مرة فإبتسم له ابتسامته العذبة الفريدة . فكر : وكنت أظن نفسي مجنوناً حين أقايض به . . وقال له عمرو . . لقد رحلت كثيراً حتى أننى عرفت أن الكلمات العذبة كلها كاذبة . .

وفي اليوم التالي قال عمرو :

- هذه ليلة وداعنا . . أننى راحل من عدى إلى الحبشة .

انزل عمارة كأسه وترقب بقية كلماته قال عمرو :

- هؤلاء المسلمون . . أمرهم محمد بالهجرة إلى الحبشة ولأننى أعرف النجاشي معرفة

وطيدة فسوف أطلب منه أن يرد كل من هاجر إلى بلاده .

هتف عمارة : خذنى معك .
تردد عمرو : إنها رحلة طويلة .

الح عمارة : أنت وعدتني ..
وافق عمرو .. مجبراً .. لم يلاحظ عمارة ذلك . لم ينم بقية الليل . سوف يرحل عن مكة ولن يعود إليها إلا بعد أن تبرا كل الجراح .. عندما يصطحب عمراً .. سوف ينسيه هذا رغبته في الرباب .. وسوف يعود أكثر حرصاً على صداقته ..

في الصباح خرج كبراء قريش لوداع ابن العاص .. يوصونه أن يستعمل كل دهائه ويلافته .. كانت النوق كثيرة .. والخلق كثيرون .. والاصنام شائعة والصحراء تحمل السلوى والعزاء .. لكنه لاحظ أن هناك جملاً آخر بجوار جبل عمرو . عليه هودج مغلق .. هل هي ؟ !! لأجل هذا تردد ابن العاص بالأمس .. هذا الهودج المغلق الغامض .. هل يحتوي نفس المرأة .. رأى عمرا يتطلع إليه كأنه يقرأ ما يدور في ذهنه ..

- إنها زوجتي .. لم أكن لأفارقها في هذه الرحلة الطويلة ..
لم يرد عمارة ، وحاول بقدر امكانه ان يخفى رعدته .. إنها هي .. ذكرياته معها قبضة من رمال .. مجرد وجود عدى .. وعمرو يبتسم .. الابتسامة التي لا يعرفها أحد من العرب كما يعرفها عمارة .. لماذا لم تخبر زوجها ؟ .. لقد فضلت أن تحتفظ بخزيه الخاص سراً لها ..

انزوى بعيداً .. وجاء الليل ففقدت الصحراء الفتها وعزاءها .. والهواء يطير ضحكاتها .. رائحة .. صافية .. يتبعها صوت ابن العاص الخشن .. وعمارة يرتجف حتى الصباح .. يتعد كل يوم عن قريش ويدخل في ذاته ..

ثم ظهر البحر أخيراً .. حيوان أخضر لا يكف عن الالتواء واللغظ . وقف عمارة امامه كالطفل اليتيم .. يشعر بالنسيم البارد كأنه يد تحنو عليه أخيراً .. التفت فوجد الرباب تتطلع إليه من الهودج .. وزوجها مشغول بالجدال مع ربان السفينة .. تحدثت بعينها .. تبادلوا رغبتهما الحارة العاجزة دون صوت كما حدث في المرة الأولى : إن أريدك يا عمارة .. كان هذا كافياً ليعيد إليه توازنه الداخلى .. اصابعها ترفع ستر الهودج . فيظهر جزء من وجهها وجزء من صدرها وجزء من الحلم الذى أضناه طويلاً ..

هتف عمرو ..

- هيا يا ابن العم .. سوف تفقدنا هذه السفينة الحيشية إلى بلادها .. وأناخ جملها .
شاهدها تغادر الهودج بجسدها الفارع الوحشي الجمال .. تركوا النوق مع القافلة التي صحبتهم .. وحمل عمارة متاعه وانزوى بعيداً .. وعند الفجر سارت السفينة . وابتعد خط الصحراء الاصفر .. وتعود ان يراها من بعيد .. واقفة عند حاجز السفينة

تتطلع . لعل هناك أفقاً ما . يسعها معاً . ويلفظ ابن العاص . . وفي ليلة جاء عمرو إليه . . قال . .

- انضم إلينا يا بن العم . .
وتأمله عمارة في دهشة . . هذه الدعوة الغربية . . أهي وراءها . . سار معه . .
كانت في انتظارهما سافرة بلا نقاب وبلا هودج تتطلع إليه بثبات . . اهتز البحر وارتعشت السفينة . وتناول عمارة كأسه في جرعة واحدة . وضحكت الرباب . .

- رفقاً بنفسك . .
ضحك عمرو . . قال . .
- الفتى مصاب بدوار البحر والحنين إلى الديار . . رفقاً أنت به .
لم يكن دوار البحر يا عمرو . . ولا حنين الطيور المهاجرة . . ما جدوى التمهل واللهب يستعر في دمائي . . كأس أخرى أيتها الرباب . .

شرب كثيراً حتى هدا . . ثم انتشى . وعاد يخرج من نفسه ليكون عمارة المخزومي فتى قريش كما كان دائماً . . لا يبالي بابتسامة عمرو . . وأصبحت النظرات بينه وبين الرباب أكثر حرارة . . وكان القمر يفرش ضوءه على صفحة البحر وعمارة يغوص في عينيها . . كأنه يحلم . غرق القمر في البحر وبرزت الشمس . . حمراء كالدم . ما بين شاطئين تهب رياح الصحراء اللافحة . . وتهب رياح الحبشة المحملة برائحة البخور والفلقل والصندل . وترف الطيور البيضاء فوق رأسيهما بعنف . . ثم اختفى . .

إلى أي مدى ذهب الأمر . . ؟ . .
سأل ابن العاص نفسه في الصباح ولم يظفر بجواب . . الصداق يفتك برأسه . . والرباب نائمة . قطة وديعة دافئة . والبحر هادئ بالغ البراءة . . نهض كالمجنون . . ذهب إلى حيث ينام عمارة . . كلب وديع دافئ . وهو الوحيد المستيقظ . . المغدور به . . وحينما استيقظا أخذ عمرو يتكلم . . ويتكلم . . وهما صامتان . . على وجه كل منهما ابتسامة راضية . . يجذبان في موج البحر ويحلمان نفس الحلم . . ماذا حدث أيها الوجدان . . اللعنة على الخمر الفاسدة . .

وفي الليل إستدارت الحلقة رغماً عنه . . إبتسمت وهي تعطيه كأساً كبيراً لكنه أخذ يقل من الخمر ويكثر من الماء . . وهما يشربان مخرتبا صبراً . . ينتظران لحظة الأمس . . ولن يطلبوا الأذن منه . قال عمارة .

- هل الخمر جيدة يا عمرو .
أيها الصغير الفاسد . ذكرياتك من صنمي . وإشعارك نفايات قولي . . ها هي

اغنيات الاحباش مختلطة بطبولهم الوحشية .. كانا يراقبان لحظة ضعفى .. كن شاهدى
أياها الليل لقد ارتقت لهم خمري .. ومددت لهم حبل ..

انسحب عمارة كسيراً إلى مكانه .. وطاطأت الرباب رأسها ومضى الليل بطيئاً ولم ينم
أحد من الثلاثة .. وجاء اليوم الثانى وعمرو مازال منتبهاً . لكن عمارة قابلها في لحظة
وجيزة .. توحداً لبرهة رغم المسافة التى فصلتهما .. وهتف عمارة ..

- ولكن .. ماذا الفعل .. ؟ .. قالت في هدوء :

- ان كنت تريدنى تخلص منه ..

وابتعدت . قريش بعيدة والرباب هى حدود عالمه . بنو العاص ضعفاء .. وبنى
المغيرة أقوىاء .. أخوة خالد بكل آل العاص .. والبحر غاضب . والسماء مثل خيمة
متربة .. والاحباش يدقون الطبول وقد أصابهم مس من الجنون .. تهتف به أن يقدم ..
عمرو واقف على حافة السفينة يرقب الموج .. يتيح له الفرصة النادرة .. ليكون جريئاً ..
ليفضى عليه .. والاحباش يزعمون .. يتوسلون لكل الآلهة المجهولة .. وإقترب من ظهر
ابن العاص الصامت .. مديده في الفراخ ثم اندفع .. ازاحه من أمامه .. من فوق ظهر
السفينة .. من فوق وجه العالم .. صرخ عمرو .. لكن الطبول المنجمرة إبتلعت
الصرخة .. والتهم الموج جسده .. ذهب .. واصبحت الرباب أخيراً له .. القتل هو
أعظم شهوات الدنيا .. يفوق حتى شهوة الحصول عليها .. كان محموراً وهو يصرخ
بها ..

- لقد فعلتها .. قذفت به إلى البحر ..

كان في يدها سوار من الذهب المرصع . ظل يخمشه في ظهره طوال الوقت .. قالت
لن تستطيع العودة إلى قريش .. قال .. أنت عالمى .. كان الفراش مليئاً بالاشواك .
محشواً بريش الغربان . وفي الركن صنم صغير أبله لا يكف عن التحديق فيها .. ونداءات
الاحباش الوحشية تعلق حتى الموج يتلوى غاضباً .. موج افريقي دافئ .. ملء بالحيتان
وكلاب البحر والأسماك والجثث .. تتوالد كلها من جثة عمرو .. وكانت الحركة عنيفة ،
ووقع المصباح الزيتى الذى كان يضىء لها . إشتبك لسان من اللهب في الفراش . فنهض
عمارة ليظفئه .. وحين إستدار شاهد ابن العاص واقفاً على الباب والماء يقطر من لحيته
وثيابه ..

تراجع ببطء .. يبحث عن شىء يستر به عريه به فلم يجد .. احس بقطر الماء المالح
على جسده وعمرو يقترب .. صرخ ..

- لو علمت .. لو أننى فقط علمت أنك تحسن السباحة ما فعلتها .. صدقتى .. ما
فعلتها .

كان يهذى ويرتجف . . ويتراجع .

- ما فعلتها . . ما فعلتها .

قال ابن العاص هادئاً . . إني أصدقك يا عمارة .
وظلت النار تأكل الفراش المحشو بالريش . .

أطلت عليهم شمس حمراء من فوق الجبل . جاءت الحشة بعد أن هجرتهم كل
النجوم . . وهبت الريح ساخنة . . كانوا ثلاثة . . استقبلتهم مصوع بلا أى ترحيب . .
مطر عنيف . . وشمس لزجة ليس فيها شيء من جفاف الصحراء . تحط على جسد
عمارة مثل عشرات الأيدي القذرة وابن العاص يتصرف بشكل عملي . . كان يعرف جيداً
مدى ضعف آل العاص وقوة بنى المغيرة . توازنات دقيقة لا يدركها إلا رجل مثله . . مهما
قال فلن يوضح إلا نفسه . سوف تجف الدماء . . ويبقى العار . .

في الطريق قابلتهم إحدى القوافل العربية العائدة إلى الصحراء . وضع عمرو
الرباب معهم لتعود إلى مكة . . وأعطى رئيس القافلة رسالة ليوصلها إلى أبيه . . كانت
هذه هي الخطوة الأولى في طريق انتقامه الطويل . .

وبعيداً في مكة تلقى العاص رسالة ابنه . . وفهمها على الفور . كان يوصيه أن يعلن
أمام الناس جميعها . وبالأخص أمام بنى محزوم والمغيرة . أنه قد خلع عمر وترأ منه ومن حرير
ثأره . واسرع الأب إلى بنى المغيرة وهو يصيح . .

- إني برىء من عمرو . . ومن جريرة ثأره

والتفت حوله بنو محزوم . سألوه عما يعنى قال

- خرج إبنى من عمارة بن لوليد وكلاهما شاعر . فاتك . فلا من آمن أحدهما على
الأحر . . لذا برئت نفسى من عمرو . ومن حريرته

وتماقت بنو المعيرة . . وكان الوليد ان المعيرة يعانى من حالة مرمسه من الملاهة منذ أن
أسلم وارتد . وذكر أن العاص يلجأ للخديعة وعليه أن يلجأ لها هو أيضاً . وهكذا
طاف مبادئ المعيرة وهو يقول . .

- نحن أربياء من دم عمارة . . ومن جريرته

وتقاطعت النداءات حول الكعبة . وسمعها رجل أعمى . . دق الأرض بمصاه
وواصل سيره وهو يقول . .

- ضاع والله دم عمارة إلى الأبد .

كانوا يصعدون وأقسام العالية أشبه بوكرة العقاب . . لا يصعد إليها الضحايا

إلا حائرى القوى . والصمت ثقيل مشبع برذاذ الماء . وكان خزي ثقيلًا حتى إنه تبع عمرا دون أن يجرؤ على الهرب . . والحبشة هي مصيره المحهول . . أكواخ القش . . وأناس سود نحاف . . وطبور مفزعة . . ذات أجنحة مدبية تندفع في طيرانها خلال قوس قزح الهائل الذى كان يمتد من أول الجبل إلى نهايته . . كانوا يصعدون . . وشعور الوحدة في داخل عمارة يزداد : إن عمرا يريد قتلى . . ولكنه يخاف من قومي . . ومن خالد أخى . . إننى صعيّف حقًا . . ولكنه أضعف منى . .

وأحيرا بعد أيام من الصعود الشاق . . أشار عمرو إلى القمة الخضراء المزدحمة بالأكواخ وهو يقول :

- هذه «أقسام» حاضرة النجاشى .

وقطع الصمت دقات النواقيس . ترن في البرية فيضاعف الصدى من صوت الدقات كأنها تنمى إلى عمارة نفسه . والقافلة تقترب . . أقسام لا تختلف كثيراً عن كل القرى التى شاهدها في صعودهم . . لا تزيد عنها إلا في الكنيسة العالية والبرج الضخم والجرس الذى يتلوى فوق الغابات والوديان الصامتة .

الدليل يسير أمامهم . . توقف حين شاهد حالة الذعر التى تسود المدينة . . الأكواخ المهدامة . والأشجار المقتلعة . وجثث الأطفال المهشمة . نظر عمارة إلى ابن العاص فوجده مذهولاً . . كان الناقوس يستغيث . وقال الدليل :

- بحق المسيح . . لقد هاجمت الأفيال «أقسام» . .

ساروا في الدروب الخالية . عمرو يعرف طريقه إلى قصر النجاشى . . وأثار القيل مطبوعة بوضوح على التربة الحمراء . . وتساءل عمارة . .

- هل من اللائق أن نزور النجاشى الآن . . ؟ . .

قال ابن العاص . .

- هذه هي الطريقة الوحيدة لكى يسمح لنا بالبقاء في أقسوم .

قصر النجاشى يقع على حافة بحيرة هائلة منها تنفرع كل انهار الحبشة العظيمة . . ومنها نهر النيل العظيم حيث لا أثر للملوحه الصحراء .

في الأرض البحيرة وفي السماء السحب وفي الهواء الرذاذ وعمارة يتطلع إلى قوس قزح الملء بالأسرار . يبدو قريباً منه لكنه لا يترك في قلبه أى لون مبهج . كان هناك صف من القساوسة . . أردتهم سوداء . في أيديهم اليمنى عصى طويلة تنتهى بصليب من الذهب . . وفي اليسرى مباحر تخرج منها أدخنة ملونة . . يرتلون أدعية غريبة . . بلغة غريبة .

القصر واسع . مفروش بالحصير المجدود . وعلى جدرانها رسوم قبطية كلها تمثل الملائكة والقديسين بيض الوجوه ما عدا ابليس فهو الوحيد ذو اللون الأسود كل شيء يبدو غريباً . . وغامضاً . . فوجيء أن هناك أيضاً من يراقبه . . عيون واسعة . . امرأة . . ولولا أنه متأكد من أن الرباب عادت من مصوغ لأقسم ان هاتين العينين الواسعتين الجائعتين هما للرباب . . ودفعه عمرو في حدة .

- أيها الأحمق . . لا تتلفت وإلا ضعنا . .

كان عمارة يشعر بتبار هذه العيون الدافق وهو يسرى في داخله . والنجاشي جالس في بهو القصر الواسع . وحوله رجال القبائل بملابسهم الزاهية والقساوسة والسحرة . . وهو على العرش مغطى بجلد أسد تحيط برقبته اللبدة الكثيفة وعلى رأسه تاج من العاج . . إنحنى ابن العاص حتى قبل الأرض . . وصنع عمارة مثله . .

كان وجه النجاشي كثيباً . . وعندما تكلم عمرو وترجم له الدليل الكلمات . . لم يفهم أى شيء . . الأمر كان معقداً كما إكتشف عمارة بينه وبين نفسه . . كان يتحدث عن أناس آخرين . تركوا دين قريش الذى لا يؤمن به النجاشي . . واعتنقوا ديناً آخر لا يعرف عنه النجاشي شيئاً . تركوا أهلهم وديارهم خلفهم فماذا يراد منهم أكثر من ذلك . وتلفت النجاشي إلى القساوسة ورجال القبائل والسحرة وحاول الدليل قدر طاقته أن يترجم . . لكن شعر ابن العاص كان بالغ الصعوبة والركاكة بحيث لم يعد الدليل نفسه يفهم شيئاً . وتلفت عمارة فرأى عيني الرباب . . كلا . . ليست إلا امرأة بنية اللون تطل من كوة فوق العرش وتبتسم له وحده وظل النجاشي يتساءل حتى أحس بالملل . . ثم أمر ابن العاص أن يبقى في ضيافته على الأقل حتى يفهم ماذا يريد منه بالضبط . .

وذهبا إلى الأكواخ التى أعدت لها . . وفكر عمارة . . يا لها من امرأة . . هل يمكن ان تنسيه الرباب . سمع صوت الاستغاثة . . والأهالى يصيحون مع دقات الطبول . أمر هجوم آخر للفيلة ؟ . . خرج عمارة . . جرى وسط اناس «أقسام» . . كانوا يطلقون صيحات الفرح . . إنه عيد ولا شك حتى الدليل يصبح فرحاً . . كان عمارة سعيداً . إستيقظ الطفل النائم في داخله . سمع صوت هزيم هائل . . هزيم متحشرج . . يشبه حوار عشرات الأبقار . . إندس عمارة في زحام الساحة . كان هناك . . على الأرض فيل ضخم يخور في وحشية وعشرات الرماح مرشوقة في جسده . . يتقلب ويضرب الأرض بخرطوميه والرجال السود يتقاذون كالفرد كل واحد يستعرض براعته ويرشقه في أكثر الأماكن حساسية . . والأصوات تهدر بالتحية . . دم الفيل يفرش تحت أقدامهم ملاءة حمراء لزجة وهتف الدليل في عمارة . .

- إهتف معنا . . إن صيد الفيل أو فرس النهر هو أهم الأعياد التى نحتفل بها في «أقسام» .

دقت الطول وأوسع الجميع مكاناً في صدر الحلقة . أقبل النجاشى بنفس هيته .
ضحكاً مهيباً مثل شجرة بأسقة ورأس الأسد الذى يرتدى جلده يتأرجح بين ساقيه . . . وذهل
عمارة عندما شاهد المرأة بجانبه . عارية حتى وسطها . . . وكل هذا الجزء الظاهر من
جسدها مغطى بالوشم . . .

هتف الجميع في صوت واحد . واصلوا القفز ليجهزوا على الفيل . تشنجت قوائمه
الأربعة المتجهة إلى السماء . ارتجفت عمارة . . . نفس الرجفة التى أحس بها بالقرب من
الكعبة . وكانت الرباب وكان هناك رجل يموت . . .

ملاؤا إزاء من الدم والقوه تحت أقدام النجاشى . . . هبط بقدميه الخافيتين وأخذ يدور
في حركة راقصة وصرخت المرأة في وحشية . غمست يدها في الدم ولطخت جسدها العارى
وعيناها معلقتان بعمارة . . . وأحس عمارة بهذه النظرات تفوح في دمه . . . قال للدليل . . .

- هذه المرأة . . . من هى . . . ؟ . . .
ورد الدليل في غضب حقيقى . . .

110

- أيها الأحمق الملعون . . . إنها زوجة النجاشى . . .

ازدادت حدة الرقص وضاع رنين الناكوس وسط الطبول ورفع النجاشى دنا كبيراً
من الشراب إلى فمه . . . أخذ الجميع يشربون في شراهة . ويرقصون وينفضون على جسد
الفيل قتلاً وتمزيقاً . . . وعيناها تشيران إليه حتى يتحرك . . . لم يلحظ أحد أنها تبتعد . . . ولم
يلحظ الدليل أن عمارة قد تعها . . .

قوس قرح . . . تام الاستدارة . . . يمتد من أول العالم إلى نهايته . . . وجسدها خشن من
الوشم . لم يكونا في حاجة إلى مفردات اللغة العاجزة كان النهر ينصب من البحيرة كأنه
صفحة واحدة . وطيور الزرزور تحط على الصخور وعلى جسديهما . وقوس قزح يطبع
الوانه عليهما . . . لماذا يبدأ كل شيء بهذا التدفق وينتهى بهذا الحزى . . . فكر عمارة بين
ذراعيها . . . هذا الكائن الأسود المشوم هل ينسبه الرباب . هل تجدى حرارته اللافحة في
اقتلاع حدود ذكراها . . . رائحة النهر . . . رائحة الدم . عطر غريب . . . لم يفهم
كلماتها . كانت تصف له كيف يمكن أن يتسلل إلى القصر عبر البحيرة ويدخل معدعها
الحاص بعيداً عن عين النجاشى .

تذكر نفسه الآن . يمد يده فترجع خائبة بلا نجوم . لا أحلام وعمرو أمامه الآن
يتشرب في عطرها رائحة الكافور . . . وسرخس الماء . . . وزهور اللوتس . . . لقد كسب ملكة
الأحاش فهل كسب جولته أمام ابن العاص . . .
عاد إلى الكوخ عمرو في انتظاره يتظاهر بالقلق عليه . . .

- لمد أحرت كثيرا .. والقوم هنا ينتابهم الجنون بعد الشرب .
همس عمارة في نشوة ..

- لقد حصلت عليها .
وقال عمرو : من ؟ ..

روجة النجاشي

- أيها المجنون .
أوشك أن يهب صارخاً في وجهه أن يسكه ويهز كتفيه حتى يفيق . لكنه سكت .
كتم كل انفعالاته .. قال في هدوء ..

- أعنى أن هذا مستحيل . لا بد وأنها امرأة أخرى تزعم ذلك . تزعم أنها زوجة
النجاشي لترغبك فيها .

وأكد عمارة . أقسم بكل الآلهة . قص ما حدث . وعمرو يتسمم .. يسأله إن كانا
سيلتقيان مرة أخرى .. وقال عمارة ..

- غداً سوف أدخل القصر .. سوف أركب قارباً عبر البحيرة وأدخل مخدعها رغماً
عن أنف النجاشي .

وضربه عمرو على ظهره في حماس مبالغ فيه ..

- يا لك من فارس شاعر .. لقد غزونا الأحباش في عقر دارهم .

وتركه .. أدرك أن لحظة انتقامه قد حانت أخيراً .. كان يعرف منذ البداية أن عمارة
سوف يقع في مثل هذا الخطأ القاتل .. من هذه اللحظة سوف يضع لمسات انتقامه ببطء
ودقة وأن يمد له حبال النشوة حتى يأتي الموت مباغتاً ..
وفي العد ذهب إليه سأله باهتمام .

- هل دهست إليها .

- فصيت الليل بأكمله معها

- لا اصدق .. كلا يا عمارة لا بد إنها امرأة عادية من عامة الاحباش

وأقسم عمارة وراح يسدل كل ليله عبر السحيرة والنجاشي يستدعي اس العمارة
يسأله عما يظن بالصفت التي دسها والدليل عاجز عن أن يوصل ما بيدها وما
يعود حاملاً عقود ال مرحد وايقوناب العاج وحاجر مرصعة بالخواهر يسبح في

الوشم المتشابك على جسدها .. لعله يسمى الرباب . لعله يخفف من درجة خزيه أمام ابن العاص .. لكنه لا يصدق . بصر الا يصدق .. ويهتف عمارة .

- كيف أثبت لك صدقى .. ؟ ..
سكت عمرو قليلاً .. ثم قال ..

- آتتني بعطر النجاشي .. عطره الذى يعده السحرة من عنبر الحيتان ومن الأعشاب السرية ولا يستعمله إلا هو آتني به فأصدقك .

وضحك عمارة من تفاهة الطلب . كانت الأنشطة تضييق حول عنقه وهويرقص رقصة الحياة الأخيرة . يعبر البحيرة .. وترف طيور اللقلق البيضاء كأنها تحذره .. لكنه يلوح لها في جذل . ويسبح في البخور . والوشم ينطبع على جسده . على روحه . لكنه لا ينسى الرباب .. حفرت وشمها الخاص ومضت . دون أن يلتئم أى جرح . يستنزف النسيان قطرات دمه فلا ينسى . إكتشف متأخراً .. أنه يحاول الانتحار في جسدها ..

عاد إلى عمرو وفي يده قارورة كاملة . مختومة . وهتف ابن العاص معلناً إنه يصدقه . لكنه إنزوى في كوخه صامتاً . لقد عزم الا يذهب مرة أخرى وأن يرحل بعيداً عن الحيشة .. لن يعود إلى قريش .. ولا إلى أى مكان .. سوف يرحل وكفى .. وضائق الأنشطة لآخر مداها ..

في الصباح طلب ابن العاص الأذن بالدخول إلى النجاشي .. كان مملولاً من مطالبه غير المفهومة .. ولكن عمرو لم يلجأ للدليل هذه المرة . استعمل كل مهارته في العربية .. والامهرية ولغة الإشارة التي لا يخطئها أحد .

- خبرى هام يا مولاي .. ابن عمى سفيه خوان .. يختلق الأكاذيب ويبالغ فيها . لقد جاء بقارورة العطر هذه . وزعم أنه دخل على بعض نساءك وجاء بها ..

وفهم النجاشي .. كان عمرو هادئاً . رأى نظرة الجنون تطل من عينيه .. سمعه يلتقط انفاسه في صعوبة .. ورأى أصابعه وهي تتشنج على مقبض العرش .. بل يوشك أن يقفز غاضباً لكنه يبذل جهداً كبيراً ليتمالك نفسه . ويشير إلى ابن العاص أن يضع القارورة وينصرف . وسار عمرو . لقد غسل يده إلى الأبد من دم هذا المدعو عمارة . لقد حاول أن يلقيه في جوف البحر فألقاه هو في غياهب الحيشة السوداء ..

كان عمارة يجمع متاعه ويستعد لهبوط الجبل . إنفتح باب الكوخ بعنف وسد الباب عشرات الاحباش المسلحين بالرماح . القى المتاع ووقف جامداً . لقد كشف أمره .

وتوجهت كل الرماح إلى صدره . . قادوه عبر الاكواخ والكنيسة والأجساد السوداء . . إلى قصر النجاشي . . مثل جرة سيء الحظ .

دفعوه حتى إنكفاً تحت قدمي النجاشي . . حاول أن ينهض ولكن النجاشي ركله بقسوة . . كان سقف القصر بعيداً والوجه الغاضبة شديدة القرب . . القساوسة . . والسحرة . . يرتدون الأقنعة الملونة وأثوابهم من ريش الطيور . . يدقون العصي التي تنتهي بالجماجم . .

صاح النجاشي . توجه للسحرة ثم أشار إلى الحرس . اقتربوا من عمارة شقوا ثوبه ونزعوه عن بدنه . صرخ . دار وسط حلقة السحرة وهم يدورون ويدقون الأرض بالعصي فتهتز كل الجماجم . انبعثت أدخنة البخور من أماكن مجهولة . كانوا يصرخون في وجهه بالتائم والتعاويد . إرتمى على الأرض فانهضوه رغماً عنه . حاول أن يستر عريه أمسك أحدهم دهاناً أسود والقاء على جسده فصرخ . وتحولت صرخاته إلى عواء عندما اقترب منه شيء مفاجيء ولس الجزء السفلي من جسده . . يحرقه . . يشل رجولته إلى الأبد . القى ساحر على رأسه سائلاً جديداً . . مثل آلاف الجمرات الملتهبة . . تلوى والبقع الحمراء تتسع فوق وجهه وجسده . ومن بعيد يبدو النجاشي . وعمره . والرباب . . وشخص ما . يشير إلى جسده المشوه . . ويصيح . . هذا أجمل فتيان قريش . . لكن آلاف الحيوانات تركض في داخله . وتمزق أحشائه . . تدفعه حتى يعرى مثلها . . ويركض ويغرس أسنانه في أي شيء يقابله . يقف مخنياً وسط السحرة . . يقفز مثل قرد شرس جائع أبيض اللون يشاركهم رقصة الألم . .

تركة السحرة وسط القاعة . . أشار النجاشي للحرس ففتحوا أبوابها . . وفتح الخدم أبواب القصر . . وكانت الغابات مفتوحة . . قوس قزح تام الاستدارة . . جرى عمارة إلى حياته الجديدة . . أوقبره الأخير . . كانت كل الحيوانات في انتظاره . . كي ينتظم معها في عوائها الطويل

أعوام طويلة مرت منذ أن عاد ابن العاص إلى قريش يشكو ظلم النجاشي وخيانة عمارة وفعل السحرة حتى جاءت خلافة عمر بن الخطاب . خرج من بني مخزوم بعض من أبناء عمومته لبيحثوا عنه وملكوا نفس الطريق الذي سلكه من قبلهم نحو المحلول صعداوا الجبل . . يقودهم بجير بن أبي ربيعة . اجتازوا أفسوم . . كان النجاشي قد مات . ربضوا على حافة الغابة . . سألوا الأهالي وسمعوا الروايات المتناثرة عن الوحش الأبيض . . وظلوا يتبعون أي أثر له . . وصلوا إلى نبع ماء جار في وسط الغابة شاهدوا آثار الحيوانات وبينها آثار قدميه اختبأوا فوق الأشجار والوحوش تأق وتشم الهواء ثم تشرب في ذعر واضح وتنصرف . حتى جاء عمارة . غربياً . . لم يتعرفوا عليه . . جسده مغطى

بالشعر الغزير .. واظافره تحولت إلى مخالب .. وحين وصل إلى النبع إرتمى على بطنه وأخذ
بنهل من الماء .. قفزوا عليه .. نهض في فزع .. حاول أن يفلت ولكنهم أمسكوه ..
شدوا عليه وهو يصرخ .. يريد أن يعاود انطلاقه .. أن يهرب إلى حضن الغابة .. تعرف
على وجوههم لكن صراخه الوحشى ازداد حدة .. هتف يخاطب بجيراً :

- اتركنى يا بجير .. لا أستطيع أن أبعد عن هنا .. لا أستطيع العودة اليكم .
لم يتركوه .. كان يرتعد .. يمور في داخله ألم غامض . آلاف الأنياب والأظافر تنضب
في أعماقه .. يصرخ فيحاويه جوع كل حيوانات الغابة وحنينها للعتق والانطلاق .. دوت
الأجراس تبلغ رسالته العاجزة .. تنساب قطرات عرقه .. وينزف الدم من عروقه شعروا
بالفزع فتركوه .. ليذهب إلى حيث يشاء .. نهض في اعياء وسار بضع خطوات متجهاً إلى
الغابة .. ولكنه سقط .. والجرس يرن .. والحيوانات تعوى ..



الخنساء

من أين جاءت بكل هذه الدموع ؟

وأخيراً .. قال صخر لأخته :

— سوف نذهب لموسم الحج هذا العام .. لعلنا نرى من قتلوا أخانا .

ونفضت الخنساء لتمسح دموعها ، وتستعد للرحيل .. إلى البلد الحرام والأشهر الحرم حيث يتجاوز القتلة وطالبو الثأر ، دون أن يجروا أحد على رفع سيفه . لا تسمع سوى أصوات الشعراء والابتهالات إلى الآلهة حتى تكون أقل قسوة . إن الرحيل جوع جديد . ورأس الخنساء حليقة . جسدها لا يمسه طيب أو دهان . ومازال طائر الصدى ظمآن . يلح عليهم كما يلح دم معاوية .. ياديار سليم .. يا آل الشريد .. يا أذل العرب . فأركم ما زال ضائعاً . كوني حنونة يا نجوم السماء ، وتلونى بلون الدم . لعل نار المراثى تخبر قليلاً .

كانت الخنساء صغيرة عندما دق الموت بابهم . إسمها تماضر . وتشبه الظبي الصغير . وسميت الخنساء نسبة لأحد أسمائه . لم يلتفت أحد إلى جمالها ولم تلتفت هي إلى نفسها . كانت قبيلتها «سليم» في ذيل القبائل .. حتى جاء أخوها .. معاوية وصخر ..

منذ ذلك اليوم أصبح من حق أبيها أن يسير إلى عكاظ ليفاخر بقية العرب .. لا بماله .. ولا بنسبه ، إنما بولديه . يقف وسطهما ويتف :

— أنا أبو خيرى مضر .. ومن نكر .. فليعتبر ..

وحفظت الخنساء هذا التفاخر . تمثلته كحقيقة من حقائق الطبيعة . واستجمعت القبيلة المهزوزة شخصيتها . تغزوما حولها من القبائل وتفرض كلمتها .. ماذا يفعل بنو مرة أو أسد ، أو غطفان ، وليس فيهم صخر أو معاوية .. ومع الحرب والغارات تدفقت

الأسلاب على القبيلة ، وامتلاً البيت حول الخنساء بالملوثة بالدم . . وكانت راثحتها
أطيب من أى عطر !

معاوية هو الأكبر . . القائد . الشمس الساطعة التى تبهر عينها ، غاية فى السماحة
والجود والعتاء والقوة . لم يدانيه فى الفروسية إلا دريد بن الصمة فارس بنى جشم . لذا
تصادقاً ومخالفاً . ولكن نهاية معاوية كانت سريعة . . وكانت امرأة هى السبب . . مجرد
إمرأة يملكها الأقوى والأقدر على دفع الثمن . . «اسماء المرية» بغى سوق عكاظ . . دعاها
معاوية إلى نفسه فامتنعت . قالت إنها عند «هاشم بن حرملة» . عدوه اللدود من بنى مرة .
وصمم معاوية على أن ينالها . ولم يغفر له هاشم هذه الاهانة . ظل يترصده ويرقب
تحركاته . . حتى نخل معاوية ذات مرة عن صدره وسار وسط جمع قليل من رجاله . وإذا
بجيش بنى مرة يحاصروهم . وحاول معاوية أن يشق طريقاً بالسيف . لكن هاشماً وأخاه
تصديده . تظاهر أحدهما بالهزيمة وحين هم معاوية بالاجهاز عليه طعنه الآخر فى ظهره . .
منذ تلك اللحظة خرج طائر الصدى من رأسه يجوب الفضاء ويزعق من العطش . ولبست
الخنساء ثوب الحداد . . وبدأت أيام المراثى .

يا إلهى . . من أين جاءت الخنساء كل هذه الدموع . . ؟ . .
سافرت وأخيها إلى مكة . . طافا بالكعبة والاصنام وسوق عكاظ . . يسألان عن
مكان بنى مرة . كان صخر هادئاً . والخنساء ترتعد . رأت عباءة معاوية معلقة فوق إحدى
الخيام ، ممزقة من أثر الطعن . ملوثة بالدم . . وولدا حرملة واسماء المرية يشريان . .
ويتفاخران بما حدث . . وهتفت الخنساء فى كراهية : اقتلها . . الآن !

وقمى صخر بصوت عال : ليتنى أستطيع . . لولا هذا البلد الحرام !
وتقدمت هى . لم تكن تملك سوى سلاح الشعر . أخذت تفخر بأخيها . ترضيه وتهدد
القتلة وسط دهور الجالسين . انزعت عباءة معاوية . والتفت بها . بدت مثل شجرة صبار
ملوثة بالدم الجاف . إنها لا تزال صغيرة لكن صوتها ممتلئ بريح السموم . . وصخر
صامت ، وجهه مثل قناع كثيف لا يظهر أى انفعال ! . .

وعادا إلى ديار سليم . وبدأ صخر يستعد للثأر ، والخنساء تستعد للزواج دون حب أو
رغبة ، تؤدى ما يفرضه عليها التقاليد القبلية . زمان «قبل ان يموت معاوية» كانت تملك
القدرة على الحكم وعلى الاختيار ، حتى عندما تقدم لها «دريد بن الصمة» فارس بنى جشم
وحليف أخيها . رفضته . قالت لأبيها :

- أوأترك أولاد عمى مثل عوالى الرماح واتزوج شيخاً عجوزاً من بنى جشم !؟
وانصرف «دريد» مخذولاً . لم يفرض أحد رأيه عليها . واخذ «دريد» يهجوها بأقصدع
الألفاظ . لكنها كانت من القوة بحيث لم ترد عليه . ولكن معاوية مات . وجاء ابن عمها

«رواحة» . مثل «عوالى الرماح المثلومة» . تطلعت إلى وجه صخر فوجدته جامدا . لا رفض ولا قبول . . على أى حال . . كان يجب أن تتزوج !

فى ليلة الزفاف لم تخلع ثوب الحداد . زفت وهى حليقة الرأس . وظلت ساهرة تنتظر عودة صخر من أولى غزواته ! نسيت أنها ورواحة قد اصبحا فى بيت واحد . وعندما وضع يده عليها إرتعدت . نظرت إليه فى اندهاش . . وسمعت الخيل وهى عائدة فهرعت إليها . كان صخر وكأنه سيف ملوث بالدم . . فهتفت به :

- هل ادركت نأرك . . ؟ . .

قال : كلا . . لم اشف غليلي بعد !

وفى ليلة الزواج قالت أكبر مراتيها . . جلست أمام «رواحة» تحتر أحزان عمرها الذى لم يبدأ بعد . وإستيقظت فى الصباح فلم تجده بجانبها !

أى قوة خفية تشدها لصخر . . ؟ . . رغبة الشار الحارة . . ؟ . . عجيزها عن أن تعيش فى ظل غير ظله . . ؟ . . هل هو مجرد أخ رجل . . فارس منتقم . . رمز لأشياء مجهولة . . أم هورغبة محرمة . . ؟ . . لا توجد احابة محددة . لأنها حملت من السنين أكثر من عمرها . وأهدرت من الدموع ما لم تقدر عليه عين . وارتدت ثياب الحداد حتى بل جلدتها . . وتشربت كآبة المقابر حتى النخاع . . حتى كلمات شعرها تحولت إلى سهام مسمومة . .

لم يكن رواحة هو الروح المناسب . ولم تكن هى الزوجة المريحة . فهجر المنزل إلى اطراف القبيلة . . حيث يجتمع السادة والصعاليك واللصوص والتجار الشرفاء فى حلقات المقامرة . . وحيث ينهض حميس حساسرين . . ولا يدري أحد أين يذهب المكسب . . ؟ . . فى اليوم الأول . حسر «رواحة» كل نقوده ، وفى الثانى خس «خواتمه» كل ما كان يزينه من قلائد ذهبية . ثم عاد دون سيفه وخنجره . ثم بدأ يسلب الأشياء ذات القيمة الموجودة فى البيت . . ولم تكن الخنساء تريد أن تنجب منه . . لكنها انجبت رغما عن أنفسها طفلها الأول «عبد الله» .

وذهبت تشكو إلى صخر . أعطاه نصف ما فى بيته من أموال . . فأتى رواحة وسلبها . ولو أن المراثى تباع لقامر بها أيضاً . . وحاول صخر أن يسطحبه معه إلى الغزو فرفض رواحة . . وتطور الأمر بينها إلى التهاجى . . والتحدى . .

ثم عاد صخر سعيداً من الغزو . لقد روى طائر الصدى أخيراً ، وبلبل منقاره الأسود من الدم الصافى ، أباد بنى مرة . وقتل ولد حرملة . ظفر بثأر وحشى كامل . وسوف تظل الجثث عارية . . تأكل منها الجوارح حتى التخمة . . ثم تذرورها العواصف . لعل معاوية يبدأ . ولعل أشعار الخنساء تصفر قليلاً . اندفع إلى خيمتها ، يحمل البشرى فوجدها

باكية ، ممزقة الثياب . . شعثاء الشعر والولد الصغير ملقى في زاوية الخيمة . قالت :

- إنه رواحة . . لقد أخذ كل ما يمكن بيعه . . وذهب ا
ودمدم صخر . سيفه مازال دافئاً . لكن «رواحة» هو ابن العم ، وزوج الأخت
وأشرق وجه الخنساء وهي ترى علامات القتال على ثيابه . . هتفت بسؤالها التقليدى :

- هل ادركت ثارك . . ؟ . .

قال أجل . . وافنيت بنى مرة عن بكره أبيهم ا
كان يحسب أنها سوف تهدأ . . لكنها تساءلت في مرارة :

- وحلفاء بنى مرة . . أسد . . وغطفان . . مازالا بخير . . أليس كذلك . . ؟ . .
ووافقها صخر كأن الصحراء كانت مقبرة واسعة . . وعلى الجميع أن يكونوا فيها
موق ا

وفي الصباح عثروا على جثة رواحة . . قالوا إنه تعثر في الصخور وسقط . لكن أثار
الطعان كانت واضحة في جسمه . نقلوه إلى بيته . ثم إلى قبره . ولم تكن الخنساء قد خلعت
ثوب الحداد بعد . لكنها لم تنح عليه بكلمة . . لم ترثه ببيت . ولم تفكر لحظة في أن تزور
قبره . وظلت ترثى معاوية كأنه هو الذى مات بالامس . لم يبق إلا «عبد الله» . . الشاهد
الوحيد لهذه الزيجة ا

وتفرغت لصخر . وتفرغ صخر للثار المطلق . ثار يقع على كل من شاهد القتلة أو
سمع عنهم . ثلاث قبائل كاملة من أجل فرد واحد . . لكن القبيلتين الباقيتين لم تكونا
فريسة سهلة . توثقتا . وتعاهدتا . وأحضرتا ربيعة بن ثور أبرع من رمى الرمح في بلاد
العرب . . إستضافوه . . وجهزوا له الأموال والجوارى حتى يأتى وقته . .

وركب صخر فرسه الشفاء . وقال لأخته :

- أخشى أن يعرفنى . . ويعرفوا غرة الشفاء فيتأهبوا . .
وسودتها الخنساء بتراب الفحم . وودعها صخر ، تخلى وجهه للمرة الأولى عن
جموده . . وحمحت الخيل إلى ديار غطفان . وهتفت فتاة من فوق مكان عال : هذه والله
الشفاء . . لكن قومها ردوا عليها في بلاهة ، يا حمقاء . الشفاء غراء وهذه بهيم . وظلوا
ينكرونها حتى دهمتهم الخيل . ونفذ سيف صخر في اجسادهم . هرعوا إلى ربيعة بن ثور .
لقد حانت لحظته . ولم تكن سليم تتوقع هذه المقاومة الشرسة ، ولا هذا العدد الكبير من
الفرسان وجهاز ربيعة رحمة . ثم أطلقه كالوميض إلى الجانب الأيمن من صدر صخر . لقد
حافظ ربيعة على مستواه ولم يخطئ . هذه المرة أيضاً وانتزع صخر الرمح . وظل يقاتل . .
ويتراجع . . وينزف . .

تناثرت قطرات دمه على غرة الشفاء فتحولت إلى اللون الأحمر . وارتمى صخر - أشد فرسان الصحراء قوة وضراوة - عاجزاً ، فوق فراش داخل بيته . . . وهرعت الخنساء إليه . دفعت زوجته بعيداً ، وجلست بجانبه ورأت جرحه . إنه جرح غريب ، في أسفل الجانب الأيمن من الصدر واسع وعميق . تبرز منه كتلة حمراء دامية بحجم قبضة اليد . . . حاولت الخنساء أن تلمسها . أن تعيدها إلى مكانها . لكن صخر . . . صخر القوى الصلب ، يصرخ من ألم عميت . إنتفض جسده كله كأن براكين العذاب تفور في داخله . جاء كاهن القبيلة . إكتشف أن كبد صخر قد خرج عن موضعه . . . ولن يعود مرة أخرى .

مات معاوية مرة واحدة . لحظة واحدة . لكن صخرأ يموت كل لحظة عشرات المرات . والكاهن يحضر الجمر والاسياخ المحماة . ويكوى شفرق الجرح وصخر يتوسل اليهم أن يجهزوا عليه . أن يريحوه من عذاباته . . . أعطوه كل الأعشاب المداوية . . . ولم يكن هناك من يجرؤ على الاجهاز عليه . والخنساء تتأمله . إنه فارسها . ورجلها الحقيقي ولكنه عاجز مثل جواد نافق . . . يوم وراء يوم وشهر وراء شهر . وكل من يسأل عنه لا يتغير الجواب . . .

- «لا هوميت فينعي . . . ولا هو صحيح فيرجى» !
والجرح مفتوح . في البداية كان ممتلئاً بالدم . . . ثم أصبح ممتلئاً بماء اصفر عكر . ثم لم يعد ينزف غير الصديد . والرجفة تغمر جسده . تلهبه بالحصى والهديان . والخنساء عند قدميه . تتوسل لكل قوى الصحراء الخفية ان تنقذه . أن يعود الكبد ويلتئم الجرح ، وينهض صخر . لم تكن تتصوره ميتاً أبداً .

وفي اليوم الأخير من عام المرض والعجز . . . همس وهو يهذى :

- أنا الذى فعلتها . . . ؟ . . .
لم تفهم . . . كان قد فعل الكثير . . . قالت حتى ترضيه :

- أنت قاتلت كل القبائل من أجل نارنا .
هز رأسه بالنفي . . . وأضاف وهو يشهق : راحة . . .

وكف عن الحصى والهديان والصراخ أخذ نصيبه من الألم كاملاً . لم يبق للخنساء من يأخذ بالنار . ان نار الكون كله لا يكفيها . . . لقد تدفق الشعر كالسيل . . . لم تعد امرأة . . . أصبحت فقط نفساً غاضبة . وكلما بلى ثوب الحزن ارتدت غيره . وكلما جفت الدموع ، الهبت بالقصائد عيون الآخرين . أشعار جافة ، مباشرة . لا تأبه بصورة أو تشبيه . تكشف عن أغوار هذه النفس الإنسانية عندما يضمنها الأحساس بالغبن .

قيل للخنساء : صفى لنا أخويك صخراً ومعاوية . قالت : كان صخر جنة الزمان الأغبر . وزعاف الخميس الأحمر . وكان معاوية القائل الفاعل . قيل لها فأبيها كان أسنى وأفخر . قالت : أما صخر فحجر الشتاء . وأما معاوية فبرد الهواء . . قيل لها . . فأبيها أوجع وأفجع . قالت : أما صخر فجمر الكبد وأما معاوية فقيام الجسد . .

ركبت جملها إلى عكاظ . تذكرت المرة الأولى التي جاءت فيها مع صخر . وقفت تنشد المراثي . وتساءل العرب : هل هناك من هي أعظم مصيبة منها ؟ . . ولكن امرأة أخرى وقفت في محاذاتها هتفت في الموجودين مفاخرة :

- أنا أعظم العرب مصيبة !
نظرت الخنساء إلى البكاء المنافسة ، وسألتها :

- من أنت ؟
- أنا هند بنت عتبة اعظم العرب مصيبة . أبكى أبي عتبة بن ربيعة وعمى شيبه وأخى الوليد . وكلهم قتلوا في بدر . .

وانطلقت تنشد الأشعار . تحكى عن يوم بدر . وتحرض الجميع على «عمد» الذي أوقع العرب في العرب . . وانطلقت الخنساء أيضاً . كل منها تنبأه بقتلها . وتفضل مصيبتها . تحول الحزن الأنسان إلى منافسة كلامية . وتفوقت الخنساء بحكم الخبرة . وانصرفت هند مخلولة . لكنها ما لبثت أن أطفأت «حرقتها» حين مضغت كبد حمزة بن عبد المطلب في يوم أحد . وبقيت الخنساء في حاجة إلى عدد هائل من الاكباد . .

أفاقت «سليم» وقد عادت إلى مكانتها الأولى . ضعيفة . مكسورة الناب . لا تقدر على رد اللدغة . ذهب «فارساً» آل الشريد . وبقيت أسد وغطفان . خطر دائم متجدد . إجتمعوا . تناقشوا . وكان الاتفاق على الانضمام إلى أكبر القوى الصاعدة - والتي تعاديا أسد وغطفان في الوقت ذاته - أن ينضموا إلى الاسلام .

وتألف وفد منهم . ظهرت عليهم امارات الاقتناع المفاجيء بالدعوة الجديدة . والخنساء بينهم . تسير بثوبها الغرابي . كان النبي في مسجده . وأحست «سليم» أن الأمر مختلف عما تصورت . ليس تحالفاً أو سعيًا للحماية . إنه التزام صارم . . يتطلب العطاء قبل الأخذ . . إنها رسالة . . وليست فرصة تنتهز . لكن أحداً منهم لم يتحرك . انسابت كلمات النبي «ص» إليهم وتشربتها نفوسهم كالاراضي العطشى . . وابتسم النبي «ص» في وجه الخنساء ، وهو يقول : هيه . . يا خناس . .

استمع إلى أشعارها في حزنها . . أخبرها أن في الاسلام العزاء لكل القلوب الحزينة . .

تزوجت للمرة الثانية : مرواس بن أبي عمر . شيخ كبير يلائم مزاجها النفسى . ولم يكن صخر موجوداً فتفرغت لحياتها الزوجية ، ووالد انجاب الأطفال . تحاول تعويض أيام العقم والرثاء . لكنها تجردت من كل عواطفها . ومارست الطبيعة دورها خلال جسدها دون أى احساس حقيقى . ماتت داخلها رغبة الاستمتاع بالنزوات الصغيرة .. واصبحت أما .. صارمة .. عكرة المزاج ! .

ولم يمنعها هذا من أن تنجب بنتاً جميلة هي «عمرة» . ظبية صغيرة تملك قلباً متوثباً . يتوق للحب والمرح وأشعار الغزل وهمس العشق عوضت كل ما حرمت منه أمها ، وأخذت تصنع من الخطايا اليومية ذكريات جميلة ! .

ومات النبى «ص» . وانقسمت القبائل . اعتبروا الزكاة وكأنها كانت نوعاً من الاتاوة تؤدى لرجل قوى . وانتشر الأنبياء «الكذابون» يدعون أحقيتهم بالنبوة . وتذكرت الخنساء أن لها ابناً اسمه عبد الله من زوجها الأول . تذكرت ذلك حين إمتشق حسامه مع المرتدين . وقف خلف طليحة أحد الأنبياء الكاذبين ، يواجه جيوش المسلمين . وتبلدت مشاعر الخنساء إلى حد الموت لم تبال إن كان مسلماً أو مرتدأ .. نجح في المقاومة أولقى حتفه ..

لم تهتز إلا عندما اكتشفت وجود علاقة غرامية بين ابنتها عمرة وشداد بن مرواس ابن زوجها من امرأة أخرى . ذهلت من أن تقدم ابنتها على مثل هذه العلاقة المحرمة . ولم تبال عمرة . لقد وقعت في غرام عشرات الفرسان فلماذا لا تقع في غرام شداد وليكن ما يكون ؟ لكن الخنساء وقفت أمامها في حزم . وعندما مات مرواس قطعت كل ما كان يمت إليه بصلة . وورثته بأبيات باردة هشة . لكنها كانت خيراً من اللا شيء الذى كان من نصيب رواحة . وأنهات العلاقة . وهزت عمرة كتفها ، فهي لا تزال قادرة على الحب ، والعالم ملء بالفرسان الذين لا يمتون لها بصلات محرمة ..

لم ترحم الأيام الخنساء . حولت كل ذكرياتها إلى قبور . ولم ترحم هي نفسها فتحولت أيضاً إلى مقبرة . أمدت روحها بعشق دم الآخرين . وكانت أكثر عطشاً من طائر الصدى ولا أحد يدرى كيف إستقام هذا الشعر الجيد مع هذه المشاعر المريضة ! .

حين أقبلت على المدينة ومعها أناس من قومها التقوا مع «عمر بن الخطاب» وقالوا : هذه الخنساء نزلت المدينة بزى الجاهلية . فلو وعظتها يا أمير المؤمنين فقد طال بكأؤها في الجاهلية والاسلام . وقام عمر واتاها . قال : يا خنساء ما الذى قرح عينيك ؟ .. رفعت رأسها وقالت : البكاء على السادة من مضر .. قال : إنهم هلكوا في الجاهلية وهم وقود اللهب وحشوجهنم . قالت . فذاك الذى زادنى وجعاً ..

لم تغير ثوب الحداد . لعلها ماتت به ، مرة واحدة في زفاف ابنتها عمرة . التفت في

شال أحمر ، وجلست في ركن لا تشارك في الرقص ولا الغناء ، تاركة النساء الغربيات يزين
ابنتها . كانت تحاول أن تتذكر ما حدث في زفافها الأول . . هل غنى أحد أغنية من
أجلها . . ؟ . . فوجئت بعمره تدوس على قدمها . . كانت قد نهضت لقضاء حاجتها وهي
ترتدى ثوب العرس . . كانت جميلة بحق . . لكنها هتفت فيها بغیظ :

- يا حمقاء . إننى كنت أحسن منك عرساً . وأطيب درساً . وأبسط منك عرفاً .
وأرق منك فعلاً وأكرم منك بعلاً . لا أذيب الشحم . ولا أرى «البهم» ، كالمهرة
الصنيع . لا مضاعة . . ولا عندي مضيع ! .

وقفت «عمره» ذاهلة . وذهل بقية المدعوين . والأم تسلط لسانها الحاد . لقد
اكتشفت أنها لم تكن عروساً في يوم من الأيام . . لم تحب . . لم تستمتع .

جاشت أيامها كلها في الشيخوخة . وفقدت بصرها قرباناً لأيام البكاء الحارة . وحين
جاءتها الأخبار أن ولديها الأثنين قد استشهدا في معركة القادسية كانت قد استنفذت كل
الدموع ، وكل أبيات الشعر . لقد زاد عدد القبور قبرين . وأدرت بشكل غامض أن كل
ما يمت إليها بصلة مقضى عليه . لم يبق إلا هي : وحيدة كثيبة . . تنتظر وقع دبيب الموت
الذى تأخر عن مواعده !



أمية بن أبي الصلت المتوهم والمتنظر الأعظم

كان يهذى من الحمى عندما مرق طائران من خلال النافذة ودارا حوله عدة دورات ثم
نفذا إلى الفضاء الخارجى .. زعق .

- لييكما . لييكما .. ها أنذا لديكما ..
لا برىء فأعتذر .. ولاذو عشيرة فأنتصر ..

هتفت إبتته : إهدأ يا أبى .. أنت تهذى .. دفع يدها وهو يحاول النهوض .. هذان
طائراً النبوة . يحملان لى الخاتم والرسالة قالت . أنت تتوهم يا أبى لا توجد طيور .
والرسالة مجرد حلم . لكن صدره كان يعلو وينخفص . يسمع صراخ الطيور الحاد وهى
تناديه من فوق حواف الصخور المسنونة ومن قيعان الأودية المحترقة وعند الآبار والينابيع
حيث تموت الأوهام فى وهج الظهيرة .. يلاحقه الصوت الغريب فى النهار كالنذير وفى
الليل كالحلم .. إنهض يا أمية . جاءت أعلام الزمن الجديد . يتفصد جبينه بالعرق
ويصرخ : من ذا الذى يرفع الأعلام ؟ . ومن أى الجهات تهب الريح ؟ .. أحس ريح
الصبا .. وأحس بريح الموت .. ولكن أين ريح النبوة ؟ .

مرق الطائران خلف النافذة مرة أخرى .. فهتف :

- لييكما . لييكما .. ها أنذا لديكما ..
لا مال يغنينى .. ولا عشيرة تحمىنى .

نهض من الفراش . دفع إبتته بعيداً خرج من البيت واجتاز الحى وابتعد عن
المضارب . يقوده الطائران فى السماء نحو آفاق بعيدة .. رآه قومه من «ثقيف» .. هتفوا

به ..

- إلى أين تمضى يا أمية ؟ ..

رآه رعاة الماشية وحداة الأبل وعشاق الآبار الجافة . وكان الطريق الذى يسلكه لا يقود إلى اليمن أو الشام . . لكنها مسارب غريبة يا أمية لا تنى تتفتح وتتشابك كالفتح . . كأنك الطراد والصيد . والقلب الذى أضنته الحمى والانتظار الشاق يصرخ . .

- يا طيور السماء . يا كل الموجودات . من آخر أنبياء الزمن الآتى ؟
يهتفون به جميعاً . .

- أمية بن أبى الصلت . .

أهو السراب الخادع مرة أخرى . . أيتها الطيور توقفى قليلاً وأجيبى على سؤالى . . إذا كنت أنا حقاً آخر أنبياء الزمن الآتى . . فمن هو هذا النبى الذى ظهر من قریش . هذا الفقير البائس . . أتراه قد سلب حقى وسرق منى رسالتى ؟ ..

ولا تتوقف الطيور ، تخترق قطع السحاب المتناثرة وتقوده خلفها . أنفاسه كأنها الحشرجات الأخيرة ، وصدره مثقل وقدماه نفوس فى رمال متحركة . . وأخيراً توقفا فوق تل مرتفع وأخذوا يرمقانه بعيونهما المستديرة الحادة . . هتف :

- لبيكنا . لبيكنا . . هاأنذا لديكما . .
محفوف بالنعم . . محوط من الريب . .

وظل يتسلق التل حتى تجرحت راحته . . الاحجار جماجم . والرمل دم جاف .
والطائران خفاشان كبيران يلغان فى القاذورات ويرقبانه فى تحفز . . توقف مشدوهاً ثم هتف
نى ياس مطبق . .

- لقد خدعتنى السماء . .

وأغمى عليه ، حتى عثر عليه بعض الرعاة من قومه وشاهدوا طائرین أسودين يجثمان
على صدره وينقران لحيته .

لم يزل أمية بن أبى الصلت فى الانتظار . منذ أن شب ووعى . رأى الصحراء المترامية
تسكنها بطون وقبائل متفرقة لا يحكمها غير قانون الثار . . والأصنام الضخمة تنتصب حول
الكعبة . والتجار يستخدمون كل الوسائل من أجل الكسب . والعبيد يذوون تحت شمس
الصحراء القاسية تعباً وعرقاً . وبيوت اللهؤمتملىء بالحالمين التعساء . . سافر أمية شمالاً إلى
الشام . وجنوباً إلى اليمن . باع وكسب وخسر وعرف ، واتسعت حدود العالم وانبسقت
اليابسة . شاهد الرهبان فى أديرتهم المتناثرة واليهود فى معابدهم . ورأى الأحباش اتباع

سيف بن ذى يزن يمشون عمرهم في مصغ القات بعد أن تخلت عنهم الهالات الاسطورية . . وأحس بنظرات الاحتقار التي يلقيها الفرس والروم على كل ما هو عربي . . وعندما كبر قليلاً بدأ يقرأ قرأ كتباً لم تقرأها العرب وعرف نبوءات لم يسمع عنها أحد من قومه وهياً نفسه من أجل رسالة كانت جنيناً في بطن الغيب . أدرك أن الأصنام باطلة والخمر فاسدة والكون زائل فلبس السواد وتمسح بالزيت . . وانتظر . . قال أمية بن أبي الصلت يحدث صاحبه . .

- إن ها هنا راهباً عالماً أخبرني أنه تكون بعد عيسى عليه السلام ست رجعات وقد مضت منها خمس وبقيت واحدة وأنا أطمع في النبوة وأخاف أن تخطئني

كانت قبيلته «ثقيف» حملاً تنوء به أكتافه . . يجمل لعنتها واثمها المتكرر وسط عالم يقيم كل شيء وفقاً لسلسلة طويلة وقاسية من الانساب . تنحدر ثقيف من أباد . . وأباد من ثمود . الذين قتلوا نبي الله صالح وعقروا ناقته . هنالك حديث نبوي يقول .

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجب ثقيفاً . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يبغض الأنصار» .

ما من مكان يذهب إليه ثقيفي إلا وخرج له من يعايره بشمود . . وكلما فاخر العرب بعضهم بعضاً - والمفاخرة هي عدة الأمة العاجزة - عدواً ثقيفاً من غير العرب . وظل رمز عارهم ممثلاً في قبر «أبورغال» كلما مرت به قافلة أو جماعة رجته بالحجارة كأنما ترجم ثقيفاً كلها . كان جدهم الأكبر وأول ملوكهم . كان ظالماً حتى أنه ذبح الماشية التي كانت تمد الأطفال الرضيع باللبن . . وكان دليل جيش «ابرهة» . . بعد أن رفضت كل القبائل أن تدله على الطريق للكعبة دلهم أبورغال وهلك فيمن هلك مهم ودفن في مكان بين مكة والطائف ومر الرسول بقبره فأمر برجمه فرجم . فكان ذلك سنة . .

ظل أمية يحس بوطأة هذه اللعنة في أعماقه . تسرب إليه اللا شعور الجماعي الذي كان يثقل كل أفراد قبيلته بالعار . حتى أن اللعنة تحولت إلى وضع إجتماعي ثابت . لكن رغبة التطهر الحارة كانت تؤرقه . لم يصور الاصفهاني مثل هذه العاطفة الجياشة وهذا التوق الذي كان يفور بنفس هذا الرجل . كان في الرسالة التي ينتظرها خلاصه ، وخلص قومه ، ورفعهم من مرتبة القتلة إلى مرتبة المبشرين .

لقد ولد لديهم الشعور بالذنب رغبة متطرفة في التفوق . . يقول أبو الفرج عن أمية وقومه . .

- اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل ثقيف . . وأشعر أهل ثقيف أمية بن أبي الصلت . .

ويسبب وطأة هذا الشعور ولد الانبياء المتوهمون مثل أمية . وخرج القادة القساة المتعطشون للدم مثل الحجاج بن يوسف الثقفى . .

بدأ الأمر مثلما تبدأ الأحلام . كان نائماً وانشق السقف عن طائرين . وقف أحدهما صدره فشق . أخرج قلبه فشقه . قال الطائر الأعلى : أوعى ؟ . . قال الطائر : وعى . . قال : أقبل ؟ . قال : أبى ، واسرعا بالتحليق مبتعدين . وجلس أمية يمسخ صدره . قالت استنه . .

- يا أبى . . هل تجد شيئاً . . ؟ .
قال . . لا . . ولكنى أجد حراً فى صدرى .

وفى السماء هوى شهاب قرمذى أمام عينيه فاعتقد أنه النداء الذى ينتظره . وثغت شاة صغيرة فعرف لغتها وعرف أنها تشم رائحة الذئب . وتنبأ غراب أسحم بموته . سافر مع القوافل شهوراً وسنيناً باع الكثير وريح الكثير . . لكن النبوة كانت حلم الخلاص . . إنتشر شعره الجدل الملىء بالالفاظ الغريبة والصور الأشد غرابة . . لكن معانيه كانت تدور عن الآخرة والبعث . . وتساءل عندما تشاقلت الأيام . . متى نهىء الساعة . ويبسط الوحى ؟ . .

حدثوه عن راهب يعرف علوم الأولين ويعرف ميقات نبي الزمان الآن . وفى إحدى رحلاته ترك القافلة وظل يجب بناقته عبر فيافي موحشة حتى رأى الصومعة الوحيدة والراهب الوحيد . هبط إليه . كأنما كان الراهب ينتظر قدومه . . قال له :

- يا أمية ان لك تابعاً لا تراه يسعى خلفك . .
قال أمية بفرح حقيقى :

- نعم . . أحس بذلك منذ كنت صغيراً وصوته يلاحقنى .
سأله الراهب : من أين يأتىك ؟ . قال أمية : من أذن اليسرى . . سأله : بأى الثياب يأمرك . .
قال : بالسواد .
سأله : ما مركزك وسط قومك ؟ قال : أنا سيدهم وأكثرهم مالاً . .
قال الراهب بأسف . .

- لقد كدت أن تكون النبي المنتظر . لكن الآخر . يأتىه تابعه من أذنه اليمى ويأمره بلبس البياض . وهو أفقر قومه وأقلهم مالاً ، لكنه أشرفهم نسباً . . أما تابعك فهو من الجن ولا شك . .

ظل أمية يحدق فيه . لا يستطيع متابعة الكلمات . ينتظر أن يغير الراهب أقواله . .
يعدلها . . همهم . . ليس أنا . . هتف في حيرة . . واحد آخر غيرى أشد فقراً وأرفع
نسباً . . وظلت ابتسامة الراهب ثابتة . . أى أمل أضاع وأى حلم حطم . . ركب ناقته
وواصل سيره للشام . باع واشترى . كسب وخسر . حدث نفسه بإطمئنان : لا يوجد من
هو أحق منى بالرسالة . . تطلع للسما البعيدة : هناك إله واحد . . إله إبراهيم
واسماعيل . . الأصنام التي يحملها أصحابه ويتباركون بها باطلة . . الخمر التي يقتلون بها
الليالي فاسدة . . وبقي هو . . نقياً كما الثلج في جبال الشام . . صريحاً كشمس
الصحراء . عميقاً بعيد الغور كالبحر الممتد . وتساءل عن حرقة : كيف يكون النبي
فقيراً ؟ . .

وفي طريق العودة انفصل عن القافلة . وسعى براحلته مرة أخرى عبر الفيافي إلى نفس
المكان . الراهب الوحيد والصومعة الوحيدة والابتسامة الثابتة . . ترجل عن ناقته
وسأل . .

- متى يظهر آخر الأنبياء ؟ . .
قال الراهب على الفور :

- يا أمية لقد كانت الرجعة . . وقد بعث نبي العرب وكل السماء تتألق بنجوم
دعوته .

وإزداد ذهولاً أمية . . ضاع عمر الانتظار الطويل وظل طوال مدة السفر وهو يرتعد
ويحس الحديدية . . حتى الشهب التي تهوى ليست أكثر من أكاذيب . . وبعث فيه الحداء
الطويل الممتد شعوراً بالحيرة فبكى . . وعندما يبكي الرجال في الصحراء فهذا ليس من
الأمور الهينة .

عندما وصل إلى بيته لزمته الحمى وإستبد به الهذيان . لكن الأخبار لاحتته داخل
الفراش كدقات الطبول المنذرة . كلها تتحدث عن النبي الجديد والدعوة الجديدة .
تتحدث عن فزع السادة وعن فرح الفقراء والعبيد . هذه أيام الريح المواتية والحياة
المتدفقة . . عبر الحصار والأضطهاد وفي وجه كل العادات المتوارثة والعبادات والطقوس
والأوضاع الاجتماعية والمصالح والأوامر القبلية وفوق العصبية وقوانين الدم وشرائع
الصحراء كانت الدعوة تولد ، كان الفقراء مجتمعون عليها مثل الجوهرة ومثل جمر النار .

لم يطق رقدته . . تسلل من بيته حتى عرف المكان الذي يجتمع فيه أتباع محمد النبي
إختبأ خلف أحد الحواجز وأخذ يتطلع إليهم . . جماعة من الفقراء والعبيد ومعذب الأرض
يجلسون تحت شمس الصحراء القاسية يتدارسون ، وجوههم نحيلة مذبوغة ، وأجسادهم
دأبت على العمل اليومي . والنبي الجديد جالس في وسطهم وعيونهم مشدودة إليه . .

عندما يتكلم تتدفق فيهم الحياة وتنقلب موازين الكون البالغ القدم . أدرك أمية أن الهوائف خادعة ، وأن لبس السواد ومسح الزيت لا يهب خلاصاً . إن هذا الرجل الفقير الجالس وسط دائرة الفقراء وحده يملك القدرة على التغير لأنه يعرف ماذا يريد أن يغير .

تطلع أمية إلى نفسه . كان سيداً وكانوا بؤساء . . كان يحمل جرح اللعنة الذي لا يندمل . . وكانوا يحملون خلاص العالم كله . .

وبدلاً من أن يستعيد توازنه النفسى . أخذ قلبه ينفض بغیظ متأجج . . لقد خدعنى وأخذ رسالتى . سلب النبوة منى . . ومضى فى طريقه . يثير الرثاء أكثر مما يثير السخرية . يحس بالعالم وهو يتغير حوله دون أن يملك القدرة على المشاركة . . وتساءل فى حيرة .

- هل يعتنق الاسلام . . هل يرضى أن يكون تابعاً بعد أن وهب عمره كله ليكون نبياً . .

وزادت وطأة الحمى فأخذ ينادى الطيور التى خدعته . ويلعن الراهب الذى سرق منا البشارة . ومشى يتخبط بين الحيام . يلقى آخر تعاليمه ويدعى أن الوحى قد أخطأ طريقه فى الهبوط . . مجرد خطأ صغير . . لكنه قاتل . . لكن الأوضاع سوف تتحسن . . ها هى تعاليمه . . وهذه هى نبوته .

قالوا له . . أسلم . لعل فى الاسلام خلاصك .
رد غاضباً :

- اعلم أنه قد دنا أجل . . وهذه المرضة منيتى . . ولكن الشك يداخلى فى محمد .
رأى المسلمين يعدبون . رآهم يهاجرون بعيداً عن أراضيهم وديارهم لكن الرسالة تطوى الصحراء كالسيل . . وبقي وحيداً . نبياً بلا ظل .

يقولون : إنه بينما كان يشرب من أحد الكؤوس جاء غراب اسحم ووقف على حافة النافذة . تطلعاً لبعضهما - أمية والغراب - ملياً . ثم قال أمية . .

- سوف تقع من فوق حافة النافذة . . وتموت .

رد عليه الغراب :

- وأنت تشرب من هذه الكأس رشقه واحدة . . وتموت . .

ووقع الغراب من على حافة النافذة فمات . . ورشف أمية آخر شرابه ومضى
مضى المتوهم والمنتظر الأعظم . .



الحطيئة إنسان بلا ظل

ذهب الحطيئة إلى أمه يسألها عن أبيه الحقيقي .
كان وجهها الذي كان جميلاً قد تغضن . قالت أنها لا تدرى . أوقد الحطيئة ناراً ووضع
فوقها قدراً ممتلئاً بالماء . وعندما ارتفع البخار حمل أمه وأقسم أن يلقيها في القدر إن لم تخبره
بالحقيقة . ارتعدت الأم وقالت : إنهم كثيرون . قال محقاً . كم ؟ قالت : لا أذكر
لكنهم كانوا من بني ذهل وبني عبس لكى لا أذكر عددهم . تركها وجلس مقهوراً . لم
تعرف الأم أين أخطأت بالضبط ، فقالت تهون عليه . لم أضاجع إلا أشرف الناس أنت
بصورة أو بأخرى شريف النسب

هكذا يمضى ذلك الرجل المفرد قبيحاً مثل ناقة حرون . بالغ القصر مثل نسات
صحراوى . مغمور النسب . لا تطل من شرف يجتمى به . ولا سند يمنع اهدار دمه .
حتى أن «أبا الفرج» يقول :

- كان الحطيئة جشعاً . سؤولاً . ملحفاً دنء النفس . كثير الشر قليل الخير
بخيلاً . قبيح المنظر . رث الهيئة ، مغمور النسب ، فاسد الدين ، وما شاء أن تقول في
شاعر من عيب إلا وجدته وقلما تجد ذلك في شعره .

كان وحيداً في مواجهة مجتمع كامل . في مواجهة تقاليد وقوانين ضارية الجذور . يعيش
هو على حوافه على أطراف المضارب وعلى عطايا كرام الناس . . أو الذين يخافون لسانه . .
لا يعشق . لا يتشعب لا يحلم إلا بموطىء قدمية . . لم يملك شيئاً إلا لسانه . . يهجو
أخوته المزعومين من بني ذهل الذين حرموه من ميراث مزعوم . ويهجو أمه التي تزوجت ابن
زنا يدعى كليبا ، ويهجو سادات القبائل الذين أمسكوا أيديهم عنه . ثم يقلب الهجاء مدحاً

في نفس واحد حين يأخذ . . . وعندما ضاقت الدنيا به ذات مرة ولم يجد أحداً يهجو . . . نظر في
الماء فرأى وجهه القبيح ولم يتمالك فهجا نفسه . . .

أرى لي وجهاً شوه الله خلقه
لقبيح من وجهه وقبيح حامله . . .

وعندما جاء الاسلام أسرع بالدخول إليه . . . يؤرقه حلم المساواة الشاملة . . . لعله
يلدوب بين جموعه . . . لكن تفرده الوحشى ما لبث أن طغى عليه فارتد في ولاية أبي بكر . . .
كانت رغبته في الانتساب حارة ، وقافيته شاردة . يقول القصيدة فتشرد في كل الأركان .
كان إذا غضب على بنى عبس هجاهم وقال أنا من بنى ذهل فإذا غضب من بنى ذهل هجاهم
وقال أنا من بنى عبس . . . ولأن الشعر كان الزاد اليومي فقد توقاه الجميع . وحاولوا توقي
لسانه الذي لا ينفخ إلا شراً .

جاء الحطيطه يوماً إلى المدينة وكانت سنة مجدبة تغمر الصحراء بريح الجوع . رأى
الجميع قامته القصيرة وهو يسير أمام ناقته يتفرس في البيوت والمضارب حتى جلس على باب
المسجد . فزع أشراف المدينة . مشى بعضهم إلى بعض . . . قالوا . . .

- هذا الرجل شاعر ، والشاعر يظن فيحقق ، وهو يأتي الرجل ويسأله فإن أعطاه
جهد نفسه مدحه ، وإن حرمه هجاه . . .

واجتمعوا أنفسهم أن يجعلوا له شيئاً معداً يجمعونه بينهم . فكان أهل البيت من قريش
والأنصار يجمعون له العشرة والعشرين والثلاثين ديناراً حتى جمعوا له اربعمائة دينار . . .
وظنوا أن هذا كافياً . . . واعطوها له . . . لكنه ما لبث أن هجاهم وأسرع بالانصراف .

كان يمقت نفسه . يمقت أمه التي جاءت به سفاحاً . ويمقت كل القبائل التي تستز
بأنسابها وتظلل تسلسل حلقاتها حتى تصل إلى «اسماعيل» ويمقت الذين يعطونه العطايا خوفاً
منه . . . ويمقت المديح الذي يقوله لمن ليس أهلاً له . . .

عاش يجوب الجزيرة كلها مثل وحش الفلاة . . . والقبائل تردد شعره وتدارى خوفها
والشعر الذي لا عيب فيه - كما يقول النقاد الأقدمون - ينتشر ؛ حتى أن أحد الأعراب
يروى أنه كان ذات ليلة يسافر عبر الصحراء فنزل في ضيافة قوم هيبتهم غريبة . قدموا له
طعاماً لم يجد أسوأ ولا أثقل منه على معدته . . . وقال شيخهم لأحد الشبان .
- سامر ضيفنا . . .

فوقف الشاب وأخذ ينشد أشعار «الحطيطه» كلها . كلها فرغ من قصيدة تلاها بأخرى .

ودهش الاعراب لهذه الذاكرة الحديدية . . وسأله عن ذلك فقال الشيخ برصانة . .

- نحن من الجن . . وهذا الفقى أخو الخطيئة فى عالم الجن .

وصدق الجميع الحكاية بالطبع . وصدقها أبو الفرج نفسه ، وجاء بقائمة طويلة من الاسانيد التى تثبت صدقها .

مرة وحيدة تعرض فيها «الخطيئة» لمأزق حرج بسبب طول لسانه . وكانت هذه المرة مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . . كان مثل الكثير من الحكام لا يكن احتراماً لهذا النوع من الشعراء ، وهو ويسمع أعراض المسلمين وهى تسب كل يوم ويشهر بها . . ولعل أنباء ارتداد الخطيئة قد تناهت إليه وتندره عندما ولى «أبو بكر» فقال بيتين شهيرين يعلن فيها تنصله .

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا . .
فيا أهل حسب الله ما لأبي بكر
أيورها بكر إذ مات بعاه . .
وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

وكان الخطيئة قد هجا أحد ولاية المسلمين ويدهى «الزيرقان بن بدر» هجاء فاحشاً . وسب امرأته وأهله . . جاء الوالى إلى عمر بن الخطاب يشكو ، وروى الشعر . إستشار عمر من حوله فأتروا شكوى «الزيرقان» . وكانت حجة مناسبة للقبض على الخطيئة . فقبض عليه ووضعه فى بئر عميق ووضع عليه غطاء ثقيلاً وأقسم أن يريح المسلمين من شر لسانه . .

وظل الخطيئة حبيس البئر . يقول الأشعار ، ويتوسل أن يفرج عمر عنه . وللمرة الأولى عرف اللسان العصى طعم التوسل . جاء عمرو بن العاص يتوسل للخليفة . . فقال :

- ما أغلقت الخضرى ولا أقلت الغبراء أعدل من رجل يبكى على تركه الخطيئة . .
أمر الخليفة فأخرجوا الخطيئة من البئر ، ووقف أمامه وأمام الجميع مقبداً منكس الرأس . قال عمر :

- على بالكورسى . .

جاؤا بكورسى فجلس عليه فى مواجهة الخطيئة وأشار إليه باحتقار :

- اشيروا على فى الشاعر . فإنه يقول الهجو . وينسب بالجرم . ويمدح الناس ويلتهمهم بغير ما فهم . ما أراى إلا قاطعاً لسانه .

وأمر من حوله : على بالطست . . جاؤا به ووضعوه بينها قال :
- على بالسكين . لا بل على بالموسى فهى أسرع . .
أمسك الحرس برأس الخطيئة . ضغطوا بأصبعهم على وجنتيه حتى انفتح فمه رغماً عنه
وسال لعابه وتدلى اللسان الذى قال عُشرات الأبيات مدحاً وهجاءً وتشفيماً . لكن عبد
الرحمن بن عوف وقف بين الموسى واللسان المتدلى وهتف :

- يا عمر . . سوف تكون سنة تتداول من بعدك .
وتوقف عمر . خفت صوت الحاكم القوي . والموقف الليليل الذى عاشه الشاعر
أقسى من أن يخطر . . ولو أن عمر فعلها لكانت الستنا كلها مقطوعة لأوهى
الأسباب ! . .

قال عمر مهدداً :

- إياك وهجاء الناس . .

قال الخطيئة وقد اقترب من النجاة :

- إذا يموت عيالى جوعاً . هذا مكسبى . ومنه معاشى .

- فأياك والمقدع من القول . .

قال : وما المقدع ؟ . .

- ان تخاير بين الناس فتقول فلان خير من فلان ، وآل فلان خير من آل فلان . :

قال الخطيئة وقد بدأ يستعيد وقاحته :

- فأنت والله اهجى منى .

قال عمر مغتاضاً :

- والله لولا أن تكون سنة لقطعت لسانك ولكن اذهب . . فأنت له . خذه

يا زيرقان .

ووضعوا العمامة حول رقبته وسحبوه منها . وظلت الوفود الحاضرة تتبادل السخرية
به . حتى تركوه أخيراً فى الصحراء . المكان الوحيد الذى كان يشعر فيه بالأمان .

ورغم أن عمر بن الخطاب قد إسترضاه بعد ذلك . وأراد أن يؤكد عليه الحجة فاشترى
منه أعراض المسلمين سجيناً بثلاثة آلاف درهم . إلا أن هذا الحادث ترك فى نفسه أثراً
عميقاً . وزادت درجة توحشه . وازدادت درجة تباعده عن الاسلام . . لعله وجد السبب
الذى ينشده . . كان يأخذ زوجته وابنته ويطوف أحياء العرب ، ويجلس فى أطرافها ،

ويطلب ألا يكلمه أحد . ولا يزوره أحد . ولا يتشبه أحد ببنااته . . وكلما ذكر عمر ارتعدت مفاصله حتى بعد أن مات الخليفة . ازدادت أيضاً درجة بخله وأصبح يفرغ من استقبال الضيوف ، وأخذ يتندر على سداجة «حاتم الطائي» الذي قاده الكرم اللاحق إلى الافلاس حتى أوشك أن يذبح ابنه ذات ليلة . . ورأى جثة أمه وهي ميتة . متييسة الأعضاء . تساءل : كيف يمكن أن تضاجع هذه المرأة أشرف القبائل . وكيف يمكن أن يكون هو سليلهم . . كانوا يقابلونه فيسألونه :

- يا حطيثة . . من أشعر الناس ؟
فيخرج لسانه كأنه لسان الحية . . ويقول :

- هذا إذا طمع .
ثم يهتف :

- إن اعوى في أثر القوافي عواء الفصيل الصادى . .

ويقول النقاد القدامى كعادتهم عندما يطلقون الأحكام القاطعة . . «لم تقل العرب بيتاً أصدق من قول الحطيثة» :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه . .
لا يذهب العرف بين الله والناس . .
ويروون أن أحد أحبار اليهودية كان يستمع للشعر فلما ذكر أمامه هذا البيت هتف مدهوشاً . .

- والذى نفسى . . بيده . . إن هذا البيت مكتوب في التوراة .

وعندما جاءت النهاية كان قد أصبح شيخاً معطماً . لم يبق فيه نشاط إلا لسانه . .
اجتمع قومه حوله . . قالوا :

- يا أبا مليكة (ومليكة هو اسم ابنته) . . أوص .
قال : ويل للشعر من رواية السوء .

قالوا : أوص رحمك الله يا حطيثة . .

- ابلغوا غطفان أن الشماخ شاعرهم هو أشعر العرب إذ يقول . .
إذا أنبض الرامون عنها ترثمت . .
ترنم تكلل أوجعتها الجنائر . .
قالوا : ويحك . أهذه وصية . أوص بما ينفعك .

- ابلغوا أهل ضبابه أنه شاعر حيث يقول . .
لكل جديد لله غير أنفى .
رأيت جديد الموت غير للهد . .
قالوا : أوص ويحك بما ينفعك .
- ابلغوا أهل امرىء القيس أنه اشعر العرب . . حيث يقول .
فيالك من ليل كأن نجومه .
بكل مغار الفتل شدت ببديل .
- قالوا . . اتق الله . ودع عنك هذا . . هذا لا يفي عنك شيئاً . . لكنه أخذ يتمتم
بصوته الاحبش . .
- الشعر صعب وطويل سلمه .
إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه . .
قالوا يا أبا مليكة . . ألك حاجة ؟ .
- لا والله . . ولكن اجزع على المديح الجيد بمدح به من ليس له أهلاً .
قالوا : فمن أشعر الناس ؟ . .
اشار إلى فمه وأخرج لسانه وقال :
- هذا إذا طمع في شيء . أو إذا استعبر باكياً . .
قالوا : قل لا إله إلا الله . .
فأشاح بوجهه . .
قالوا : ما تقول في عبيدك ؟ . .
- هم عبيد . . أقنان . ما عاقب الليل النهار .
قالوا . . فأوص للفقراء بشيء .
- أوصيهم بالالحاح في السؤال ، فإنها تجارة لا تبور .
قالوا . . فما تقول في مالك ؟ .
قال . . للأنثى من ولدى مثل حظ الذكر .
قالوا . . ليس هكذا قضى الله جل وعز لمن .
- لكن هكذا قضيت . .
قالوا : فما توصى لليتامى .

- كلوا أموالهم .. وانكحوا أمهاتهم ..
قالوا : فهل شيء تعهد فيه غير ذلك .
قال ..

- نعم . نحمّلونني على أتان . وتتركزني راكبها حتى أموت ، فإن الكريم لا يموت
على فراشه . والأتان مركب لم يمت عليه كريم قط .
كانت النهاية مضحكة بعض الشيء . حملوه على حمار وجعلوا يطوفون بين مضارب
الحى . يتبعه سرب من الأطفال التصايحين والشيوخ الذين يؤكدون أنها علامة الساعة .
واختبأت النسوة الحوامل حتى لا تنطبع صورته البشعة في أذهانهن .. وظل هو يعرف
بكل الأشعار التي قالها والتي حفظها حتى مات .



الرحيل إلى أرض تميم

ناديت عليك يا تميم في الأبار القديمة . فلا صدى . الربع خال . والأحياء دارسة .
والصحراء صامته . وكراهيقي لكم تملأ قلبي . إنني تائه يا بنى يربوع . ضائع يا بنى دارم .
غريب يا حنظلة . فقدت هويتي عند أول بثر . ولم يزدني السفر إلا عطشا خرجت معكم في
الغارات . قتلت ولم أسر . فقسمت الاسهم وقت الغنائم وضاع نصيبي ذهبت إلى
«الوقيط» فوجدت فرسان بكر يسلبون جيش قتلاكم . وفي «جدود» لم أجد إلا الطيور
السوداء وقد أنجمها اللحم الميت . وفي «أباد» كانت كل الينابيع ملوثة .. وفي «قشاوة» .
«والوقبي» .. «والشباك» ..

إني أكرهكم . تحولتم كل الربوع إلى مواقع وعيون الماء إلى غحايء وهمسات العشق
إلى صيحات انذار . فماذا يبقى في الرمل بعد عشرات السنين . وهل جاء ذلك اللفظ
الاسود اللزج إلا من عظام موتاكم ونخاع اعدائكم .. فلماذا لا تظهرون وتندحرون
نحوى كالسيل . تأخذون بمشورة أكبركم وتأتّمرون بأمر أصغركم . تحاصرونني
وتجهدونني . وتطلبون فديتي من حشاش الأرض ..

تميم من مضر . ومضر من نزار . ونزار من عدنان . تناسل الآباء . وتصارع الأبناء .
وتفرقت القبائل مع التضاريس . كانت تميم ثلث العرب . وجهها شطر الصحراء وظهرها
للخليج . أمامها قبائل ربيعة .. بكر وتغلب وشيبان ... وخلفها بضع من فقراء
الصيادين ..

كُل صعايقك العرب قابلوني . وسألوني في دهشة . ولماذا تميم وأنت تكرههم ؟
قلت .. لأنهم يتحركون خارج مثالية التاريخ . يحملون أخطاءهم الاسانية ويرحلون .
ينتصرون انتصارات خاطفة . ويهزمون هزائم مرة . وقال لي الشيوخ العجائز . إذا اردت

تميماً فتوجه إلى مغارات الملح . قلت في دهشة . . مغارات الملح ؟ . . في وسط الصحراء . . ؟ . . قالوا وهم يعبثون في لحاهم . . مع تميم عليك أن تتوقع أى شيء . .

كنت أعرف ذلك . مع تميم عليك أن تتوقع أى شيء . عندما شعروا بالضعف وقرروا أن يدخلوا الاسلام . وتوجهوا إلى يثرب فقال كبيرهم : إن النبي يحرم الغزو : فماذا لو غزونا الأخيرة في الطريق ثم نعلن ثوبتنا . . وفي الطريق إلى يثرب غزوا إحدى القبائل . وقسموا الغنائم وجلسوا بين يدي الرسول . . سعداء . . شبعى . . وأعلنوا إسلامهم وهم يتنهدون في راحة . .

مع تميم عليك أن تتوقع كل شيء . . حين انقسم المسلمون وبدأوا عصر الشتات مبكراً . تقابل جمع من الخوارج مع جنود الخليفة الأموي . وظلوا يتقاتلون النهار بأكمله . وأطبق عليهم ظلام الموت والسيوف مازالت تصطك . وقالت فثة منهم : ويلكم أما تملون القتال . قالوا : كلا حتى تملوا أنتم . وسألوهم : من أين أنتم . قالوا : من تميم . وتواصل القتال . .

مع تميم عليك أن تتوقع كل شيء . . يقاتلون في غير زمن القتال . ويهجمون لمجرد نزوة سانحة . ويهزمون قبائل مجتمعة . . ولكنهم ينهزمون شر هزيمة أمام بطن واحدة من البطون وهم الوحيدون منذ أن توالى الرسل والأنبياء الذين أخرجوا نبياً انشئ . عندما جاءت سجاح بنت الحارث تهتف بهم . إنما أنا امرأة من بني يربوع . . وإن كان ملك فالملك ملككم . وكان كل واحد من تميم يعتقد أنه ملك في المنفى . وتبعوا سجاحاً دون وعي . كان النبي الحقيقي قد مات . وأخرجت كل قبيلة نبيها الخاص . ولكن النبي - المرأة خذلتهم عند أول منعطف . تقابلت مع مسيلمة الكذاب وقال لها . . « أتزوجك فأكل بقومي وقومك العرب . . » فتزوجته لأسباب بعيدة عن النبوة . وكان صداقها أن رفع صلاة العشاء وصلاة الفجر عن كاهل قومها . . وجاءت جيوش ابن الوليد واجتاحت كل شيء . . ومع تميم تتوقع كل شيء . .

الرحيل إلى مغارات الملح . .

بدأت رحلتى إلى مغارات الملح . لعل أحداً يدلنى إليهم . اشتعل الدم في عروقي وأنا أواصل الليل بالنهار . كنت لا أتلفت خلفي حتى تتم سفرى . في الصحراء لا يلتفت إلا العاشق حتى يعود . كنت أفعل كل ما يفعله التائه . أقلب ثيابي وأصيح في اذن ناقى . وأصفقه . واهتف . . . النجاة . . النجاة . الساعة . . الساعة . لعل أنجو من مغارات الصحراء . أعوذ بكل أصحاب الوديان . وكل ساكني الهضاب . واشعل ناراً لأترك ذكرى . .

وفي النهاية وصلت إلى مغارات الملح . تركت ناقى وقناعى وسيفى الصدىء في

الخارج . ودخلت . . لم ألق سلاماً . ولم أتل تعويذه . وحاصرتهى أعمدة الملح . كنت عملاً بصهد الصحراء . وبيعض من شمسها . . والمغارات مليئة برطوبة الزمن المتحجر هتفت يا تميم ثلاث مرات . فى الأولى جاوبنى الصدى كالبكاء وفى الثانية عوت كل حيوانات البرية . وفى الثالثة ظهر الفرزدق ؛ قبيح الوجه كما هو ، شاحباً كما لم يكن من قبل ، عباهته الدقيقة مغطاه بالملح والتراب . . قال فى هدوء كأنما كان يتوقع مجيئى .

- أنا دليلك إلى تميم . قبيلتى ومنفاى .

سرت وراه صامتاً . أخذنى فجأة إلى عالمه الملحى . كأن مغارة الملح كانت موجودة فى داخل . كل شىء يصبح هشاً حين تلمسه . أشار الفرزدق بيده . جسد امرأة ممدد أمامنا . ذراعاهما متقاطعان فوق صدرها والملح يحيط بها من كل جانب كأنه كص رمادى رقيق وقال فى صوت منهج :

- هذه هى «النوار» زوجتى وإبنة عمى المسكينة . تزوجتها رغماً عنها وليلة عرسنا هربت وأخذت اطاردها من قبيلة إلى قبيلة . . كل واحد جرؤت على ايوائها هجوته أشنع الهجاء . حاربت العرب كلهم بلسانى فلم نجد ملجأ إلا بيتى ولكن الموت اجارها . لم يرهه هجائى . . ولم يستهوه مديحى . .

سرت خلفه صامتاً . لم يكن يبدو نادماً . كان تميمياً قحاً ، وغدا حتى النخاع . . أشار إلى رجل آخر نائم فى غلالة الملح الرمادية وقال فى همس خائف . .

- وهذا قطرى بن الفجاءة . من الأفضل ألا نتكلم عليه وإلا هدم الخليفة المغارات فوق رؤوسنا . .

بدأت أشك فى نواياه . لماذا كان هو التميمى الوحيد الذى بقى حياً وكيف قاوم الملح والرطوبة . أشار إلى رجل آخر مفتوح العينين ينظر إلينا فى حنق . . قال متوجعاً .

- وهذا جرير . عدوى وتوأم روحى . كنا نلتقى خلصة بعيداً عن الجميع نشرب سوياً ونتناشد الأشعار . فإذا افرقنا تهاجينا وتناقضنا كما يهوى العامة والسلطان .

لم يحد عنى صوته المتهدج . كنت أحس بتميم وهى تنتفض . تحتج على هذا التقدم الرسمى الباهت . تملأ المغارات بضجيجها وعنفها واخطائها البشرية . وتصنع من كل هذا شمساً صغيرة باهته . جاء عمرو بن يربوع . حكى لى قصة زواجه بإنثى الغول . كان سعيداً معها . وكانت هى لا تخشى شيئاً إلا برق السماء . ولكنها ذات ليلة فاجأها البرق فصرخت ، وفرت هاربة فى عرض الصحراء ولم يرها بعد ذلك . كان يتحدث عن جمالها الوحشى . وعشقها الملء بالشراسة . وجاء بشارة العنبرى الأعرور حين حذر قومه من هجوم قبائل ربيعة فلم يصدقوه وخرقوا عينه الأخرى . ونهته متمم بن نويرة يبكي أخاه

مالكا . إن الشجاع يبعث الشحا . والعالم كله مغارة ملح واسعة . . كان مالك سيدا سمحا كريماً . وفي زمن الردة وقع أسيراً في يد خالد بن الوليد . وحدث الخطأ المأساوي وقتل مالك . وزادت فداحة الخطأ عندما تزوج ابن الوليد من زوجة المقتول حتى قبل أن تكمل عدتها .

كانت تميم تنهض حيولهم تصهل . . يستعدون لبعث جديد ولغزوة جديدة . وصدى الطبول يتردد عبر المغارات الموحشة تختلط بأصوات الملح وهم ينفضونه من على ثيابهم . . وجاء إلى خيبر بن عبادة . . امتشق حسامه وهتف بي في حدة .

- هل تذهب معنا إلى «المشقر»

ولم أجب . ولكن أصواتهم إرتفعت تهر . انتقلوا من الصمت إلى الغضب في سرعة تميمية هائلة . . استمزتهم صرخة الحرب وهتفوا جميعاً هيا إلى «المشقر» سوف نبدأ من هناك . . .

الرحيل إلى زمن «المشقر» .

على شاطئ الخليج ينتصب حصن «المشقر» . بلا شموخ ولا وقار . حصن بدائي من ترسبات البحر . والمحار الفارغ . والطحالب الصلبة والصخور الجيرية . يابه الخشبي عليه سلسلة حديدية صدئة . والحصن كله مترب . فيه عفونة دائمة تنبعث من سردابه الممتد الذي لا يجلو من القتلى أبداً . وكان «المكعبير» عامل كسرى على البحرين والشاطئ الشرقي للخليج قد آل على نفسه ألا يدع من تميم عيناً تطرف وجلس ينتظر مقدمهم من عرض الصحراء .

وكان «هوذة» عامل كسرى على اليمامة ينتظر قدوم القافلة السنوية التي يرسلها كسرى انوشروان إلى اليمن تحمل الاسلحة والأوامر الجديدة وحكام المقاطعات وكل ما يهم الحامية الفارسية التي تحكم جبال اليمن الوعرة . وخط سير القافلة السنوية لا يتغير . تخرج من المدائن في حراسة الاساورة حتى الحيرة . ويرسلها الملك النعمان بن المنذر في حراسة جنوده حتى تصل إلى اليمامة . فيحرسها هوذة وجنوده حتى تخرج إلى أرض تميم التي تتولى حراستها حتى حدود اليمن . ولأن تميمياً لا تدين بالولاء إلا لتميم فهي ولا بد أن تقبض ثمن هذه الحراسة .

ولكن هوذة لم ينس أبداً أن تميمياً قتلت أباه . وأنه عاجز عن أن يدرك ثاره . . وعندما وصلت القافلة تحمل الطعام والمال ثمناً لخفارة تميم ، قال للاكاسرة . .

- انظروا الثمن الذي تدفعونه لتميم فاعطونيهِ وأنا اكفيكم أمرهم وأسير بها معكم حتى تبلغوا مأمنكم . .

ووافقه الأكاسرة . وجمع هوذة فرسانه ورفع الاعلام الفارسية . وسار حتى آخر أودية

اليمامة . ثم توغلوا في أرض تميم . ولكن الأنباء سبقتهم . حملتها رياح الصحراء إلى تميم
المترقبة . أن يمنعوا من خضارة القافلة حتى اليمن فهذه أهانة . وإن تمنع عنهم الأموال التي
أرسلها كسرى فذاك شمة لا يرد إلا الدم .

وهجمت تميم في غضبها العارمة . ضربت الأكاسرة وقتلت الحرس . وسلبت العير
وأخذت هوده أسيراً . وكان قائد تميم أكثم بن صيفى الأسدى بسنواته التسعين . ووجهه
المنخفض الملىء بالجرروح جالساً في وسط المضارب يتطلع إلى هوده . .

- أخذت أجر خضارتنا . وسلبت تميماً حقها . . وسوف تكون حياتك هي الثمن . .
ارتعد هوده وشبح أبيه المهدر الثأر أمام عينيه . قال

- فإن شئت افديت نفسي وعوضت خسارتكم
قال أكثم . . ليس أقل من ثلاثمائة بعير .

سار هوده وسط فرسان تميم إلى هجر ذليلاً . حوله بصع من الأكاسرة المهزومين
السرقى الثياب . وأخذت تميم كل ما في مراعيه من ابل . كانت ثلاثمائة يقصون ثلاثة .
ثم انطلق هوده إلى المدائن مع الباقيين عن نجوا . راح كسرى يتميز غضباً وهو يتأمل
وجوههم المهرومة . قال لهوده . . كم ولد لك ؟ قال : عشرة . . قال كسرى : فأبهم أحب
إليك ؟ . . قال : غائبهم حتى يقدم . وصغيرهم حتى يكبر . ومريضهم حتى يبرأ . قال
كسرى في سخرية .

- الذى أخرج عنك هذا العقل أعجزك حتى طلبت منى الوسيلة . . هؤلاء الذين قتلوا
أكاسرتك وأخذوا مالى هل بينك وبينهم صلح ؟
قال هوده . .

- بينى وبينهم حساء الموت . هم قتلوا أبى . واقتادون ذليلاً إلى بلدى .
كيف لي بهم . .

- ان ارضهم لا تطيقها أكاسرتك وهم يمتنعون بها . ولكن احجب عيني الميرة فإذا
فعلت ذلك بهم سنة ، أرسلت معى جنداً من أكاسرتك فاقم لهم السوق . . فإذا أتوها
أصابتهم خيلك . .

. . كانت السنة مجدبة . والمراعى مقفرة . والماشية هزيلة . والغارات لا تؤن أكلها .
وادركت تميم خطأها عندما منع كسرى الميرة عنها . لم يعد هناك أمل في أية مساعدة أو طعام
إلا أن تكون ذائرة كسرى ضعيفة فينسى ويغفر ويرسل الميرة . . لكن الذى جاء هو هوده
ومعه ألف من الأكاسرة . ذهبوا إلى «المشقر» ونودى في الأسواق والبطون والمضارب .

- إن كسرى قد بلغه الذى اصابكم فى هذه السنة وقد أمر لكم بميرة فتعالوا وامتاروا .

وصدقت تميم لأنها كانت تريد أن تصدق . وأنساها الجذب الحذر . هرعوا جوعى إلى «المشقر» ووقفوا أمام بابه المغلق . وجاءت أوامر الحرس الأ يدخلون الافرادى واحداً خلف الآخر . وفتح الباب فتحة ضيقة فدخل أولهم . ثم فتح من جديد ودخل الثانى . وفى الجو رائحة غريبة . خليط من سخونة الخليج وقيظ الصحراء . ودخل ثالث . لم يبق إلا الاحساس بالجوع . والخوف من فصل مجذب آخر . ودخل رابع . وخامس . وسادس . ولم يعد هناك من يحصى . والابل تثغفى ضعف . . ما أغرب ذلك الشيع الذى يجعلهم يدخلون ولا يخرجون . . وآخر . . وآخر . . كان خبيرى بن عبادة يتأمل ما بقى حوله من جوعى تميم . . يدخلون ولا يخرجون . تأمل الشيوخ والأطفال . . يدخلون ولا يخرجون صرخ . .

- ويلكم . . أين عقولكم . . فوالله ما بعد النهب إلا القتل . .
جرى ناحية الباب . وإمتدت يد أحد الحراس يحاول أن يمنعه . ولكنه هوى بالسيف فقطع يد الحارس وقطع السلسلة التى على الباب . فإذا تميم رؤوساً مبتورة . ودماً على الأرض . وذبيحة مخدوعة . وإذا هوذة قد أدرك ثاره غالباً . . وصرخ خبيرى :
يا لتميم . . الفرار . . الفرار . .

- إلى أين . . ؟ . .
من الجحيم إلى الجحيم . . من المشقر الملىء بالجنث إلى المضارب المليئة بالارامل
والنكالى . . إلى الصحراء وقبائلها المعادية . إلى أين . . ؟ . .

الرحيل إلى زمن «الكلاب» .
فى أول ليلة من لىالى الحزن جلسوا وسط المضارب الخالية . . بلا فرسان ولا ازواج ولا أحوة . وجلس حكماء تميم السبعة واكثم بن صيفى وسطهم محطاً . . محنى الظهر . .
قال :

- أوقع بنا كسرى وأوهن قوانا . وإن الناس قد بلغهم ما لقينا وأخاف أن يطمعوا
فيما . وأنى قد قاربت المائة . وقلبي بضعة من جسدى نحل كما نحل جسدى . وبعد اليوم
لن نقدر على الغزو . ولن يخرج للرعى إلا الفتيان . فليعرض كل واحد رأيه فإن متى اسمع
الحزم أعرفه .
كانوا بقايا حطام . . يهدون بلا جدوى . . واكثم صامت . حتى قال النعمان بن
جساس . .

- لننظر إلى أى ماء نجتمع حوله . لا يعلم الناس أين هو حتى نقوى ونشتد ونضمد
كل جروحنا . .

ووافق اكثم . رحيل شامل لكل ما بقى . لا يبقى إلا الطلل الخالى . إلى ماء يقال له «الكلاب» يحميه جبل عال . ويفصلهم عن بقية القبائل المعادية مغارة موحشة . حطوا رحالهم والتفوا حول بعضهم وتناسوا كل الخلافات القديمة والتفاخر الأحمق بالانساب وكان في «الكلاب» نوع من العزاء لكل الأرامل والثكالى . . وهذا الزمان قليلاً وهدأت حدة الفيظ . .
ومر بهم مسافر من مدحج . . اثارته رؤية الفتيات اللان يقمن بالرعى والابل التي بدأت تسترد قواها . وانطلق من فوره إلى قبيلته وهتف بهم . .

- هل لكم في جارية عذراء ومهرة شوهاء وبكرة خمرآء . تلکم تميم . . ضعفاء مطروحين على ماء «الكلاب» . .
كانت القبائل التي قد أنهكها البحث عن تميم قد وجدوهم أخيراً . ضعفاء كما لم يكونوا من قبل . وسارت الرسل من مدحج إلى قضاعه إلى بقية القبائل المتحالفة . صاح كاهنهم . لا تغزوا . . فلم يستمع إليه أحد . لا أحد يبالي بالنبوءات عندما تتعارض مع المصالح . .
وهذه تميم . . مهيضة . . مكلومة . .

خرج اربعة من قادة القبائل اليمنية . كل قائد معه ألفان من الفرسان . ثمانية آلاف مجتمعة . ومعهم عبد يغوث . شاعر بنى الحارث وفارسهم . كأنه جيش وحده . وساروا جميعاً يبغون البقية الباقية من تميم . .
ويدت طلائع الجيش . فزعت تميم . لم تر من قبل تجمعاً بهذه الضخامة . كان اكثم ابن صيفى يحتضر . وتلفتت تميم فلم تجد غيره . . هرعوا إليه . .

- حقق لنا هذا الأمر فإننا قد رضيناك رئيساً . .
قال اكثم وهو يلتقط انفاسه في صعوبة :

- لا حاجة لي في الرياسة فإن الموت في انتظاري . ولكن أشير عليكم . . لتتزل حنظلة بالدنهان . وسعد ورباب بالكلاب . . فإى الطريقين أخذ القوم كفى احدهما صاحبه . .
كانت هذه هي وصاياها الأخيرة . .

- اقلوا الخلاف على امرائكم . واعلموا أن كثرة الصباح من الفشل . يا قوم تثبتوا فإن احزم الفريقين الركين . وأتزررو للحرب . وإدعروا الليل فإنه أخفى للويل . وإن عز أخوك فهن . البسوا جلود النمر والثبات أفضل من القوة . واهنأ الظفر كثرة الأسرى . وخير الغنيمة المال . ولا ترهبوا الموت عند الحرب . فإن الموت من ورائكم . وحب الحياة لدى الحرب زلل . . ومن خير امرائكم النعمان ابن جساس .

وتقدم النعمان ليمسك يد اكثم ولكنها سقطت في يده . باردة ميتة . لم يكن هناك وقت

للمرأة . ومدحج وقضاعه واحلافها قد حاصروا الجبل . إستولوا على الابل والماشية وأسروا
الفتيات . وبدأت المعركة محسومة مقدماً . ونزلت حنظلة إلى الدهناء . وتوجهت سعد
ناحية الماء . وقال ضمرة بن لبيد لقومه بنى مدحج . .

- أنظروا وانتم تستاقون الأبل . فإن أتت الخليل عصباً عصباً وثبتت الأولى للأخرى
حتى تلحق بها فإن أمر القوم هين . وإن لحق بكم القوم فلم ينظروا إليكم يريدون الأبل ولا
ينتظر بعضهم بعضاً فإن أمر القوم شديد . .

وانحدرت تميم . واكتسبت من إندفاعها سرعة السهم وحدته . . اخترقوا مدحجا
وصفوفها حتى وصلوا إلى الأبل ، وكل واحد يحارب كأنها معركة وحده في مواجهة كل
القبائل . وصرخ النعمان بن جساس .

- يا لتميم لا تقتلوا إلا فارساً فإن الرجالة لكم . .

ولكنه قتل في نهاية اليوم . وانسحبت تميم وياتوا طوال الليل يحرسون بعضهم بعضاً
وظلت مدحج أن الصباح الجديد سوف يحمل الهزيمة لتميم وفوجئت تميم بنفسها وهي
تنتصر . حتى عبد يغوث سقط أسيراً في يد فتي صغير من بنى عميرة . ما لبث أن اقتاده
مسروراً إلى أمه . فرأت الأسير عظيماً جميلاً . فسألته : من أنت ؟ قال عبد يغوث في
خجل . أنا سيد القوم . وضحكت الأم وهي تقول : قبحك من سيد قوم حتى أسرك هذا
الاهوج . وتواصل القتال . كان تمياً يتضاعف عددها . كان كل حواملها يلدن ويدفعن
بأطفالهن إلى المعركة . . فيكبرون وينضجون ويتشجون بدم القتلى . وصرح عبد يغوث .
يا بنى تميم . اقتلوني قتلة كريمة . . اسقوني خمراً ودعوني انح على نفسي . وضعوا أمامه دنان
الخمر . . وقطعوا عرق الاكلحل . . وتركوه ينزف ويموت ويرثى نفسه . .

الا لا تلومان كفى اللوم ما بيا
فما لكما في اللوم خير ولاليا

. . كانت تميم تنتصر . انتصاراً رائعاً وغريباً . والملح يدوب في مغارات الملح وعبد
يغوث يموت . وفلول مدحج تنسحب . وأنا اعشق تمياً . فنتعت من رحلتي بالعشق بعد
الكرامية . لا أبالي ان هزمتهم بطون عامر . أو شردت خيامهم حرب الردة . . لا أبالي
باخطائهم وضعفهم الانساني وكرامية المؤرخين لهم . الطبرى والاصفهاني وابن الأثير
والمسعودي . . فأنا اعشقهم . اعشق أخطاءهم الرائعة . وكثرة الثوار والمتسردين منهم
وثورتهم على اكفان الملح وكراسي الحكم واستفزاز الزواة ومنتحل الأشعار . اعشقهم رغم
حصار التاريخ الرسمي . ولا أتوقف عن السفر إلى أرض تميم .

نائلة : إنهم يقتلون الإمام

قال لها أبوها قبل لحظة الرحيل :

- تكحل وتطيبى بالماء .. كأن زيتتك هى الليل .. وكان عطرك هو المطر .

صرخ حادى القافلة بالعر أن تنهض وبالحيل أن تصهل . وبالرماح أن تشرتب .
ضم حضن الصحراء «نائلة» فأدركت كم هى غريبة . تهتز صعوداً مع حركة الناقة كأنما
الصخر يتنفس . كان المطر يقطر دما . والمكاحل نصال سكاكين . والقافلة ترتحل من
الشمال للجنوب . تطلعت خلفها فلم تجد إلا أرضاً قاحلة . تنهدت .

- ما أبعد الشقة بين الثلج والرماد ...

القمم رغيغ يابس . الأحلام شذرات من المخاوف . الأيام والشهور الصحراوية
متشابهة مضيئة . للياه ملوحة الرمل . وللريح نذير الموت . فقدت أغاني الرعاة . حتى
الكوفة أصبحت حليماً شاحباً من أحلام الطفولة . وعندما أشرقت الشمس هتف الغلمان
والجواري

- بشراك . بشراك . سوف تكونين زوجة الخليفة .

مدينة الرسول المنورة على حافة الأفق . قمم من النخل الأخضر كلمة عذبة لا يتكرر
قولها . فكرت نائلة . هذا هو موطنى الجديد : ريح رخية . وعقود تنفرط من الطيور
البيضاء كأنها ليست فى الصحراء . وكان هذا السلام السماوى لم يقدر إلا لهذه البقعة
الصغيرة وسط الجبال المتجهمة . . خيم الصمت على كل من فى القافلة . . تناهت همهمات
الناس والأسواق مثل أدعية متصلة . كان للبلدة تفردا وقوة حضورها ؛ لا يشبه سكنها
سكون . ولا ريحها ريح . كأنها يقظه مفاجئة بعد سبات الصحراء الطويل . قالوا لها :

- حمدا لله على سلامتك . إستعدى حتى تزنى للخليفة . .
. . لكن أحداً لم يجرؤ على إخبار الخليفة أن عروسه قد وصلت . . كان عثمان بن عفان حزينا كما لم يكن من قبل . يحدق في البئر العميق الضحل المياة . تضطرم في أعماقه حركات الغواصين كشهقات مخنوقة . تأمل عثمان الأثر الباقي من الخاتم . حز باهت في أصبعه الأوسط . سوف يختفى بعد مدة . كما اختفى الخاتم . ارتفع رأس أحد الغواصين من فوق حافة البئر الصخرية . حدق فيه بلهفة . لكنه قال مثلما قالوا :

- لا أمل

همهم بقية الصحابة في خيبة . وزعق عثمان :

- واصلوا البحث ، لا يجب أن يضيع هذا الخاتم

ولم يجد الغواص بدأ من المهبوط . والصحابة بدأ من الانتظار . . وسار موكب نائلة وسط الشوارع شبه الخالية . يرافقها طائر الحزن حتى بيت الخليفة . ولم يكن في استقبالها إلا بعض العجائز . . سألت عما حدث . . قالوا في وجوم :

- سقط خاتم رسول الله في بئر أريس .

كانت ما تزال غريبة . لكن الحزن هزها . كان الخاتم هو إشارة الحكم . يوقع به على كل مكاتبات الدولة . ورثه أبو بكر عن الرسول . وأخذ عمر عن أبي بكر . ولبسه عثمان وياعبته جموع المسلمين . لكن بئر أريس الضحل ابتلعه وأخفاه للأبد ، مقدمة بسيطة لكل الأحداث المأساوية . . وبدأ يوم زفافها الأول بارداً وكثيباً . . .

وفي المساء التالي جاء الخليفة . لم تكن رأته ، ولم يكن قد رآها أبداً . وتم زواجهما ببساطة أسرة . كتب عثمان إلى والى الكوفة سعيد بن العاص خطاباً يقول فيه :

- بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد . فقد بلغنى أنك تزوجت امرأة . فاكتب إلى بنسبها وجمالها . . .

ورد سعيد يصف المرأة التي تزوجها . بيضاء . . مديدة القامة . حسنة اللسان . معروفة النسب . . وكتب عثمان إليه . إن كان لها أخت فزوجنيها . وكانت الأخت هي نائلة بنت الفرافصة خطبها سعيد وحملتها القافلة . وجلست أمامه مبهورة . ترقبه حاسر الرأس . لامع الصلعة . لم تصدق أن يشع كل هذا الصفاء من إنسان واحد . كان ودعباً متعباً . أضنته أشواك الحكم . ومتاعب الدولة التي تتسع مثل الخطبوط وتلتهم كل أجزاء العالم القديم . أحست أنها لم تأت من الكوفة عبثاً . إنه في حاجة إليها كما أنها في حاجة إلى ظله . حاول أن يبتسم رغم كل ما يشعر به من مرارة . . قال :

- أما أن تقومى إلى . . أو أقوم إليك . . .

قالت :

- والله ما تمهشمت إليك من المسافة أبعد مما بينى وبينك . بل أقوم أنا إليك
جلست بجانبه . مسح رأسها ودعا لها بالبركة .
لكن أيام نائلة لم تكن سهلة

في الماضي كانت تعيش في بيتها الصغير بالكوفة . لا تهتم إلا لفتات الاحاديث ،
تخضع حياتها لناموس الحياة اليومية المتكرر . لكنها أصبحت الآن في قلب الدولة . تسمع
في غرفتها وشيش الأقطار البعيدة . وتدخل أخبار الحروب والهزائم والانتصارات مع ملح
طعامها

كان الامام شيخاً عجوزاً . والدولة فتية تموج بالمحاربين الأشداء . وسط عالم متأكل .
يختلط الطموح فيه بنزعة الاستشهاد والقداسة الدينية بالعصبية . وعندما تفتقت بدور الفتنة
لونت النجوم البعيدة بلون الدم . كان ابن سرح والى مصر يواصل فتح افريقية ومعاقبة
يجهز الأساطيل لغزو قبرص . وسعيد بن العاص يجهز على ما بقى من دولة الفرس . وكان
عثمان ينسى أنه قد أصبح خليفة . يستيقظ داخله الرجل الموسر القديم الذى يهب أى
شئ وكل شئ عن طيب خاطر . وتحولت هذه الهبات إلى أخطاء قاتلة . كان بنو أمية
بشراحتهم المعهودة قد أحاطوا به كديدان العلق . يريدون مالاً وولاية وأرضاً . . كان
الاسلام قد أصبح ارثهم . . وهو يهب . يصل أرحامه كما يعتقد . لا يعلم أن الزمن قد
تغير وأن لكل شئ حساباً . . حتى سماحته وكرمه . .

توالت الاحداث الصغيرة وتراكت . اختلف مع خازن بيت المال حول مبلغ كبير كان
يريد أن يهبه لمروان بن الحكم . قال للخازن غاضباً : أنت خازن عندنا . قال له الرجل
بهذوء : إنما أنا خازن المسلمين . وعلق المفاتيح على منبر الرسول واعتكف في بيته . وبدأت
المظالم ترد على الخليفة كل يوم . تشكو الولاة والعصبيات . وتعودت نائلة أكوام الخطابات
المكتوبة على أرقاق الجلد يظل الخليفة يقرأ فيها حتى الصباح ، ثم يكتب للولاة بملذهم
ويهددهم ويطلب منهم أن يعدلوا . لكنه ورغماً عنه كانت هناك طبقة جديدة تنمو وتشتد
وتغلى شروطها . كلما مات شهيد في غزوة قبضوا هم الثمن دنانير . منذ أن استن قانوناً يبيع
لمن يملك أرضاً في الأقاليم المفتوحة أن يستبدلها بأرض في الحجاز برز كبار الملاك كالغريان .
يجمعون الأرض للأرض . ويشترون العبد للعبد واختل ميزان العدالة الدقيق . . ألفاقت
نائلة مذعورة على صوت أبى ذر الغفارى وهو في طريقه للمنفى . وحيداً كما قدر له . يعيش
وحيداً . ويموت وحيداً . ويبعث يوم القيامة وحيداً .

وعندما أصر عثمان على نفيه لم يقبله أى من الولاة . تحول الصحابى القديم إلى لعنة
يخشها الجميع . ولذا اعتكف في قرية صغيرة حتى مات منسياً ودفن في قبر مهجور . وقال
عثمان لنائلة حائراً :

- لماذا يفعلون ذلك !

لقد وسع للناس في أرزاقهم وضيق في رزقه . أقام المآذب للجوعى . دفع دييات القتلى . وسعى جاهداً في جمع نسخ القرآن ليصنع نسخة واحدة يتفق عليها كل المسلمين . لكن بنى أمية ظلوا دائماً نقطة ضعفه . لم يهدب الاسلام شيئاً من شرايئهم للحكم . ومن الكوفة بلدها البعيد جاءت أنباء أخرى .. اختلف الوالى سعيد بن العاص وزوج أختها مع بعض وجهاء الكوفة حول فضل قریش على غيرها من القبائل . لكنهم ردوه عن ذلك بشدة . قالوا ليس لمسلم فضل على آخر . وتطور الأمر حتى اشتبكوا مع صاحب الشرطة وبعض الخدم . وبعث سعيد إلى الامام يطلب منه أن يسمح بنفيهم من الكوفة . وكانت هى المرة الأولى التى ينفى فيها مسلم عن أرض الاسلام . نفاهم إلى دمشق حيث سجنهم معاوية وعاملهم أسوأ معاملة . ثم ردهم للكوفة . ثم أعيد نفيهم للجزيرة . وتواصلت حلقة الاهانات . وعندما عادوا إلى وطنهم كانت جروحهم قد أصبحت جروحاً في جسد الدولة . قال لها معاوية معاتباً :

- أرايت ما فعل أهل الكوفة ... !

قالت مهونة :

- أنا أعلم الناس بهم .. لا تأخذهم بالشدة وأنت على العفو أقدر ...
جاءت أختها هند مع زوجها لزيارة المدينة . جلس سعيد مع الامام يقدم له آخر تقارير الفتنة والحرب . وجلست الأختان معاً تستعيدان ذكريات الطفولة في طرقات الكوفة . سألتها ...

- ماذا يحدث هناك .. !

قالت الأخت في خوف :

- كان الموتى يستيقظون وكل الأحقاد القديمة تزدهر ..
وقال عثمان لسعيد :

- عد إلى الكوفة وخذهم بالهواذة .. ما جدوى زيادة المنفيين والقتل !

وبعد أيام رحلا . لكنها لم يستطيعوا العودة للكوفة . كانت سيوف المنفيين فى انتظارهم . قالوا له . لقد عزلناك واخترنا والياً غيرك .. وعاد سعيد مقهوراً . وخضع عثمان لما طلبوا وولى أبا موسى الأشعري . لكنهم صنعوا سابقة خطيرة . أصبح من المخيف تصور الأيام المقبلة . عندما تأخذ كل ولاية خليفة المسلمين قسراً وتفرض عليه رأياها .. لقد تددت القدسية الدينية التى كانت تحيط بالخلافة وأخذ الصراع طابعه السياسى والاجتماعى واضحاً .

وامتد حبل الفتنة إلى مصر . وقال عثمان فى أسى :

حتى ابن بكر يقف ضدى ا

رأت نائلة الشيخ وقد تضاعفت آثار السنين على وجهه . تحول الصفاء إلى نجاheid خائرة والسلام الذى كان يكسبه من المدينة ، إلى هذيان ورؤى مؤرقة . أصبح يعتزل الناس ويترك الصلاة ليقوم بها على بن أب طالب . وترتفع درجة حرارته ويهلى . ونائلة ساهرة تضع خرقاً مبللة فوق جبينه . . يرفع أصبعه نحوها ويهتف متأسياً :

- ليتنى ما فقدت الخاتم . . كأنه سلبنى شرعيتى .

كان محمد بن أب بكر قد إنجه إلى مصر غاضباً . . كان يطمع فى إحدى الولايات لكن الامام الشيخ لم يستجب له . . وما ضاعف غضبه أن رأى بنى أمية ومن هم أقل منه ومن أبيه سبقاً للإسلام يظفرون بأرفع المناصب . وعثمان يرضن عليه . وهكذا أخذ يؤلب المصريين ضد الوالى والخليفة وكل بنى أمية . وضج ابن سرح بالشكوى . لكن ماذا يفعل عثمان مع ابن أب بكر الخليفة الأول وشقيق عاتشة زوجة الرسول . . قال له على بن أب طالب :

- إعتزل . . .

قال فى حسم :

- ما كنت لأخلع قميصاً ألبسنيه الله . . .

وبدأت حركة محمومة من المجادلات . جاء الولاة من كل الأقطار وتناقشوا . وجاءت وفود المسلمين تعرض مطالبها . واختلف الصحابة كما لم يختلفوا من قبل . . كل إنسان له مطالب وكل المطالب متعارضة . وعرض معاوية على الخليفة أن يصحبه إلى دمشق حيث يبقى فى حماية جنده . . لكنه رفض . .

- ما كنت لأستبدل دار الهجرة بدار أخرى . . .

وأطلق معاوية عدة تهديدات جوفاء لكل من يتعرض لحياة الخليفة ثم وعده أن يرسل له النجدة والمداد عند تعرضه للخطر . . لكنه كان أذكى من أن يفعل ذلك فى الوقت المناسب . .

وكالعادة وافق الخليفة على شروط الثائرين . ومر العام ولم يتغير شىء . واستشرى بنو أمية . وضم معاوية بقية ولايات الشام . إنتشر المحرضون فى طول الدولة وعرضها . الصحابة القدامى مثل ياسر بن عمار وأبناء الصحابة مثل محمد بن أب بكر . والموالى والداخلىين حديثاً فى الاسلام مثل اليهودى إبن سبأ وحتى عبد الرحمن بن عوف وكان على فراش الموت قال لعل :

- إحمل سيفك وأحمل سيفى وتعال . نجاهده . .

ثم عاود الثائرون زحفهم على المدينة . من مصر والكوفة والبصرة واليمن . كل من

يحمل شكوى أو مظلمة أو حقدا قدها جاموا هذه المرة لا ليتناقشوا . ولكن ليستولوا على المدينة عنوة . تبدد السلام السماوى الذى شعرت به نائلة في يومها الأول . فرت الطيور وهى تطلق صيحات الفزع . وخرج أهل المدينة المهاجرين والانصار . ليقفوا أمامهم . لن تسقط مدينة الرسول تحت السيوف أبداً . رغم معارضة البعض منهم لعثمان . وتماطف البعض مع الثائرين . إلا أنهم ظلوا واقفين أمامهم حتى اضطروهم للتراجع . . أو تظاهروا بذلك .

لكن أهل المدينة ما لبثوا أن استيقظوا والتكبيرات تملأ الشوارع . . فوجئوا بالشوار وسطهم . إحتلوا مدينتهم دون أى مقاومة . وهتف المتأدى :

- من لزم بيته فهو امن . . .

وبدأت أيام الحصار الخمسون حول بيت امام المسلمين وخليفتهم عثمان بن عفان . . .

كان الحصار هو اليقظة اليومية على صور الأحجار ترتطم بالنوافذ والأبواب . . وكان الحصار هو وجوه الغوغاء وهى ترمى الخليفة بأفدع الكلمات وتدوس بيئته تحت النعال . وكان الحصار هو الحفر كل لحظة من سهم طائش أو هدو مترصد . . وكان الحصار هو إحساس الغربة العميق والخوف الفرزى حتى من عيون الأصدقاء . . وكان عثمان هادئاً . . هدوء من أعد نفسه لهذا المصير . ظلت نائلة تتوسل إليه . . الأمر مازال فى يدك . أنت الامام . إبعث للأمصارع حتى تأتى بالنجدات . وفى فناء الدار توفز بنو أمية وأيديهم على مقابض السيوف . قالوا : نخرج إليهم . قال عثمان عاتياً : كيف يسيل دم الأخوة على أرض النبوة . . ا سوف أخرج إليهم توسلوا إليه ألا يخرج قالت نائلة :

يا سيدى أنت عجوز وهم قطع أعماء الغضب . وكانت دمدمات المحاضرين مثل حيوان شرس . زحف عبر جوع الصحارى . لكن عثمان خرج . وقف هادئاً أمام البيت كأنه إزاء يوم عادى من أيام الحكم . صمتوا ، هبطت أيديهم بالسيوف . سار إلى المسجد فساروا خلفه . إحتل المنبر . أحس بزفرائهم تبدد كل ما فى المكان قدسية . هتف بهم . . .

- اعوا الخطأ بالصواب وعودوا إلى عقولكم . إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم . .

إنساب صوته مؤثراً . يهدد ويلين . يحاول أن يوقظ فيهم عهد الولاء التى نسيوها لكن الصحابي الجليل كان قد تحول إلى شيخ . والشيخ إلى حاكم . والحاكم قد أخطأ . نهض أحدهم وزعق :

- يا عثمان إنزل لنحملك على الابل ونسيرك إلى جبل الدخان كما سيرت خيار

الناس . .

ادرك عثمان أنه قد فشل . هتف بهتق :

- قبحك الله

إمتلاء المسجد بالتهديد والتوعد . والامام صامد حتى في وجوه الاعتراضات غير اللائقة . قال . . أنا خليفة الله . ورفيق الرسول وزوج ابنتيه . لكن شيئاً لم يشفع له . نهض جهجاه بن سعيد الغفارى ونزع العصا التي كانت في يده . كانت عصا الرسول . أخذها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان . لم يبال . كسرها على ركبتيه . حاول البعض الدفاع عن الخليفة . لكن الثوار أمسكوا الاحجار وأخذوا يتقاذفون . شهد المسجد معركة غريبة أهدر فيها كل شيء . هوى حجر ضخيم على رأس عثمان . غمر الدم وجهه وسقط مغشياً عليه من فوق المنبر .

شاهدته نائلة من النافلة محمولاً على أيدي الرجال . صرخت : لقد قتلوه في المسجد . لكنه كان مازال يتنفس . مسحت الدم من على وجهه . رأتهم يتقاطرون خلفه . ويعاودون محاصرة المنزل . . صرخت فيهم :

- يا قتلة لو كان رسول الله حيا لقتلتموه . . .

هرع على بن أبي طالب . أخذ يعنف المحاصرين دون جدوى . كلف الحسن والحسين أن يقفا داخل البيت للمشاركة في حمايته . تطوع أيضاً عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة وقفوا يحمون جسد الامام المشنخ بالجراح . أصبح الجرح كبيراً في جسد الدولة ولأنها كانت فتنة كان النزيف غزيراً .

أفاق في المساء . بدأ يتمالك قواه . توصلت نائلة . .
- نهرب يا سيدى . لقد تركك أهل المدينة فريسة سهلة لهم .

ابتسم وربت على رأسها :

- إن لم يكن هناك مفر من الموت فما أحقه بجوار رسول الله .

ثم سرت شائعة بين الحاضرين أن الامام يرأسل الأقطار حتى يطلب النجدة . . ازدادت قبضة الحصار . منعوا الخليفة من الدخول والخروج . كلفوا من يؤدى الصلاة بدلاً منه . وكانت المدينة تسبح في جو غريب من اللامبالاة . الصحابة القدامى لزموا بيوتهم ولم يبدوا أى رأى . الأنصار كل من مر منهم بالمنزل أدار وجهه للناحية الأخرى . كأنه لا يرى . حتى عندما حان موسم الحج . وتقاطر الحجيج . . طافوا البيت وزاروا المسجد وتطلعوا لما يحدث في بلاهة شديدة أشبه بالتواطؤ . . لم يخرج الخليفة للحج كالعادة المتبعة ، كلف ابن عباس وحمله رسالة يقص فيها ما حدث ويتهدده . . لكنهم سمعوا الرسالة وهم يعضغون الثمر . وأكملوا المناسك وانصرفوا كأن لم يسمعوا شيئاً .

ثم منعوا عنه الماء والطعام . وظل والى مكة أقرب الولاية إلى المدينة يستمع إلى هذه التفاصيل اليومية ويبدى دهشته من تقلب الدهر . وابن سرح والى مصر الذي خرج معظم الثائرين من عنده لم يكلف خاطره بالاستفسار عن غايتهم . . . ومعاوية هادىء، ينتظر الفرصة أن تواتيه حتى يبكي ويثار فينال ثمن البكاء والثأر . . . كان هناك تواطؤٌ جماعىٌ لأغتيال الامام العجوز . .

وعندما اشتد به العطش . تركاً على كتف نائلة وصعد إلى سطح المنزل . شاهد الوجوه الغاضبة تترصد أنفاسه . قال فى أسى :

- لقد اشتريت بئر رومة من مالى وجعلته سقاية للمسلمين وها أنا أحرم من مياهه واشتريت أرضاً ضممتها لمسجد الرسول حين ضاق بالمصلين وأنا أول مسلم يمنع من الصلاة فيه . . .

كان يرثى نفسه . شعرت نائلة بالحزن يعتصر قلبها . هذه الجنة التى بشر بها . . كم عليه أن يتحمل فى الطريق إليها من العذابات الأرضية . عطشاً وجوعاً وقهرأ . حاولت أم حبيبه زوجة الرسول أن تحمل لهم بعضاً من الطعام . لكن الثوار ضربوا بغلتها وأوشكوا أن يسقطوها على الأرض . جاء على غاضباً صرخ فيهم :

- إن الروم يأسرون فيطعمون ويسقون .

وراحت صرخاته هباء . تحولت نزوات الحقد إلى اصرار وحشى للتدمير . وظلت الأحجار والسهام تهمل عليهم كأنها حقيقة أزلية . وجاء صباح اليوم الخمسين . شاحباً . بلا شمس . وهو حدث نادر فى الصحراء . حتى أن لون الرمل كان رمادياً . واستيقظ عثمان وقد نذر أن يصوم يومه . ابتسم فى وجه نائلة وقال فى وداعه

- اننى مقتول اليوم

قالت بفرح : بل يقتل عدوك يا أمير المؤمنين .

- جاء رسول الله وأبو بكر إلى فى المنام . قالوا لى . . افطر معنا اليوم يا عثمان . . فى الأرض صومى وفى الجنة سيكون افطارى إن شاء الله

تعالت ضجة فى الخارج . استأذن أحد المدافعين فى الدخول قال بفرح :

- يا مولاي . الامدادات على مشارف المدينة .

لكن عثمان كان يشعر بالمرارة العميقة :

- قضى الأمر . هل تذكروا أخيراً أن لهم اماما مهذور الدم . .

إزدادت حركة الثوار العصبية . نفثوا عن حنقهم بالأحجار والسهام ومحاولات تسلق

جدران البيت . كانت الأنبياء قد وصلتهم أيضاً وبدت رغبتهم المحمومة في الاجهاز على
الفريسة . قالت نائلة :

- ابعث إلى ابن أبي طالب لعله يتفاهم معهم ..

لكنهم كانوا معزولين . المدينة والأمصار وكل من في العالم ليس له وجود . والدم يخلق
جوعاً لا يشبعه إلا نهش اللحم الحى . صرخت وهى تشاهد أجسادهم تتلوى صاعدة على
جدار البيت . أسرع ابن الزبير وأخذ يقطع الحبال . اندفعت موجة محمومة لترتطم
بالباب . أنحنوا على جسد عبد الحكم بن مروان وبدأ على وشك الموت ، وكانت الصحراء
والمدن والأقطار المفتوحة والولايات والقصور هادئة ساكنة . . . قال عثمان بمرارة النبوة
الآتية :

- لئن قتلوني لم يصلوا بعدى جميعاً أبداً . . ولم يقاتلوا عدواً جميعاً أبداً . . .
وظلت حركات المهاجمين كالموج المتلاطم . تود لو تقتلع البيت من أساسه . تساءلت
نائلة . . هل نستطيع الصمود حتى تأتى النجدات . فوجئت بالدخان يتسلل وهماً الفناء .
صرخت :

- إنهم يحرقوننا ..

أشعل المهاجمون النار في كل الأبواب الخشبية . أتت عليها بسرعة عنيفة . أصبحت
كل النوافذ عارية . تلاحم الجميع في قتال وحشى زاد من ضراوته أن الدخان كان يخفى كل
شئ وعثمان يصرخ أن يكفوا . فتح المصحف وأخذ يقرأ لعل هناك منفذاً . رقية تبعد نذر
الكارثة . جلست نائلة عند قدميه وهى تبكى . ثم حدثت المفاجأة من الخلف . فتح عمرو
بن حزم باب خوره كانت تصل بينه وبين بيت عثمان وتدفع الثائرون . داهمتهم الأقدام مثل
دبيب القدر وصراخ الظفر الوحشى . نثرت نائلة شعرها فزعاً . صرخ فيها عثمان :

- خذى حمارك . فلعمري ما دخولهم على أعظم حرمة من شعرك . .
كانت السيوف مشرعة فوق رؤسهم . قال أحدهم :

- يا عدو الله

رد عثمان بهدوء . أنا عبد الله وخليقته . .

هوى السيف . رفعت نائلة يدها تقيه . بتر السيف أصابعها في سرعة خاطفة .
إنتفضت من الالم . . تناثر شريان الدم على وجه الخليفة وحيته . قبل أن يتحرك هوى سيف
آخر في منتصف رأس الخليفة ، شق مقدمة الأنف . . همهم بكلمات متعثرة لعلها كلمات
الاستشهاد ، انكفاً فوق المصحف المفتوح أمامه . دملوا في نشوة . .

- سوف نقطع رأسه ونرفعها على أسنة السيوف . .

لكن نائلة رغم النزيف والالم كونت بجسدها حاجزا فوق وجهه المشجوج ورقبته المهدة بالقطع . حاولوا ازاحتها . أخذوا يضربونها بالنعال . مزقوا ثيابها حتى تعرى ظهرها . . . وفي الخارج عربدت الوجوه الشرسة . .

- قتل عثمان . . . قتل ابن عفان . .

توقفوا مبهوتين : شاهدوا الدم والحريق والقتل . . ذنبهم وعارهم . . تبدد الدخان فكشف عن كل شيء . الرمل الرمادى المشبع بالدم . ونائلة تقف بثوبها الممزق وضمائرها المحلولة أسيرة رعب لا نهائى ، وعندما صرخت تعثر البعض وهم يفرون وأجهش البعض الآخر فى البكاء ، وكانت الجنة مسجاة أمامهم . . دم حرام وجريمة لا تحل لأحد
كتبت نائلة إلى معاوية . . « وان أمير المؤمنين بغى عليه وقتلوه غيلة . . » .

دثروا جثته فى ثيابه القديمة . وخلعت قميصه الملوث بالدم وكتبت . . « فوطئنا وطئا شديداً . وعرينا من ثيابنا وحرمة أمير المؤمنين أعظم . فقتلوه فى بيته وعل فراشه » وسافر القميص إلى الشام وحين صعد معاوية إلى المنبر وفرد القميص أمام المصلين تناثرت منه أصابع نائلة المقطوعة وكتبت . . « ورحم الله عثمان ولعن من قتله وصرعهم فى الدنيا مصارع الخزى والذلة . . » .

وكان دم الخليفة مهدرا . لا يحق لأحد أن يستحله . . لكن النبوءة تحققت منذ أن قرأ معاوية خطاب نائلة من فوق المنبر . منذ سارت الجيوش وتقاتل الأخوة . . وسال الدم بلا قضية وبلا ثمن . وامتزجت كل مشاعر الحب المضطرم بالكراهية الطاغية . . منذ هذا اليوم البعيد الموهل فى القدم ونحن لم نقاتل عدوا جميعاً أبداً .



عمر بن أبي ربيعة محاولة . . لتشخيص حالة

هذا هو الشاعر . فتي قریش المخزومی . أشعرها وأشدّها فسقا . ثمانون عاما قضاها على ظهر الصحراء . فتك منها أربعين ونسك منها أربعين . تقلب مثل رمية من رميات الزهر . تختلط عليه وفي داخله وجوه الخير والشر . إرتفع في السناء فكان شهاباً . وهوى حجراً أصماً ذهب بددا في الصحراء . لم يختلف حول شاعر كما اختلف من حوله . أنكروه واستعاذوا من فسوقه وحفظوا شعره وثلثوا به . وهو ساكن . لا تثيره الحروب والفتن . لا تجره دوامة الصراعات السياسية . لا يستشار إلا عندما يلمح امرأة جميلة . أو يسمع أوصافها . أو يذكر اسمها فقط أمامه . إن حواسه كلها تستفز . وقرينته ثمر كالبهر الصاحب .

مات عمر بن الخطاب في ليلة ميلاده . وإغتيال عثمان وهو في العاشرة . وقتل على وهو في الثامنة عشر . وهدمت الكعبة على رأس ابن الزبير . وسار الحسين إلى قبره في كربلاء .

قال الأقدمون . . « كانت العرب تقر لقریش بالتقدم في كل شيء إلا في الشعر . حتى كان عمر بن أبي ربيعة فأقرته لها ولم تنازعها في شيء » . لكن هاشم بن عروة يجذر كل الآباء . . « لا ترووا فتيا نكم شعر ابن أبي ربيعة لا يتورطن تورطاً » . وقال حماد الراوية عن شعره . . « إنه الفستق المقشر » . . وأقسم أبو القوم الأنصاري أنه « ما عصى الله بشيء كما عصى بشعر ابن أبي ربيعة » . « وأفاض مصعب بن الزبير في الحديث عنه كأنه جماع أشعار

العرب » سهل وقول . قاسى الهوى فأرى . وأعلن الحب وأسر . ويطن به وأظهر . وقنع من الرجاء بالوفاء . وأعلى قاتله . واستبكى عاذله . وأحسن التفجع . وأنطلق القلب . . ولا يكف مصعب عن إضافة النعوت . ولا يكف الآخرون عن نقده ومدحه وتبقى روح ابن أبي ربيعة قلقة لا تجهد من ينصفها دون مبالغة . .

المحدثون أيضاً أشد حيرة . طه حسين لا يراه منفصلاً عن عصره . ثمرة نية لمجتمع لم تكتمل أركانه اختلطت فيه البداوة بالبدخ . واستغلت فيه المقدسات الدينية من أجل جمع الأموال . جاءت الثروة والرفاهية والجوارى وأقامت ضياعها على الرمل فسلبت الصحراء شدتها وشظفها . وولد الفرسان الناعمون . ركبوا البغال بدلاً من الجياد . وتقاذفوا بالورد لا بالسهام ..

وحاول «العقاد» أن ينفذ خلف جلده . تعامل معه بترفع شديد كأنما يأنف من الكتابة عنه . يرجع كل ما يحيط بحياته من ملابس إلى طبيعته . حقاً إنه يغازل الحسان . ويطلق شاربه ولحيته كما يفعل رجال عصره . لكن كل مغامراته تعويض في الوهم . وكل أشعاره أكاذيب جدلة الكلمات . إنه فقط «يصف ويقف . يحوم ولا يرد» .

سأله سليمان بن عبد الملك :

- يا هذا .. ما يمنعك من مدحنا .. ؟ ..

قال عمر في إيجاز .. إلى لا أمدح الرجال .. إنما أمدح النساء ..

إن العالم بغير نساء ليس هو العالم . بدونهن تصبح الصحراء مصيدة . والقصائد غير مجدية . هذا هو الشعر وفق حاجته الشخصية . ووفق قناعته أيضاً . إن مشكلته بسيطة لكن جزءاً هاماً منها أن الآخرين لا يفهمونه . إنه ليس طموحاً . فلا حاجة له بهذا الطموح . وإذا كانت حياة أى إنسان تدور بين محورين : الحبز والحب فإن الحبز لم يؤرقه طوال حياته . كان من بنى مخزوم أغنى بطون قريش . وأبوه أغنى بنى مخزوم . تسميه قريش «العدل» لأنهم كانوا يتعاونون معاً ليكسوا الكعبة في عام . ويكسوها وحده في العام التالي . كأنه يعدلهم جميعاً . قوافله لا تكف عن السعي بين الشمال والجنوب . كلما نفق بعير أو لث حاد انصب العرق الأنسان في جيبه قطعاً ذهبية . هذا غير جيش ضخم من الأحباش يقومون على حراسة هذه الثروة ..

لم تكن حالته فردية . لكنه كان الملخص لكل تناقضات عصره الاجتماعية . منذ أن تولى عثمان بن عفان الخلافة وقد تنفست الأرستقراطية القريشية الصعداء . ذهب عمر بشدته وشظفه . كان يعرف أن الفتنة حين تولد سوف تولد من قريش . يساعدها إحساسها بالاعتداد والتفوق على كل ما عداها من قبائل العرب . من قبل الاسلام وهم رابضون حول الكعبة . وقد استثمروا هذا الموقع تجارياً حتى جاء الاسلام فأضافت القدسية الدينية ونسبهم للرسول قوة إضافية . يقول طه حسين ببلاغة . «إن النبى قد وعد «قريشاً» حين دعاها إلى الدين الجديد ملك الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة ؛ ففكروا جميعاً في ملك الدنيا وفكر بعضهم في ثواب الآخرة . .» من أجل ذلك شدد عليهم عمر ومنع الصحابة من مغادرة مكة لأى سبب خوفاً من أن ينتشروا في الأقطار المفتوحة . لكن عثمان جاء وأطلق كل شيء من عقاله وأعطى لقريش فوق ما كانت تحلم به . سن قانوناً جديداً يتيح لمن يملك

أموالا وأرضا في الامصار المفتوحة أن ينقلها أو يتبناها بأرض وأموال في الحجاز . وهكذا تدفقت ثروة العالم القديم لتلك المنطقة الضيقة المحصورة بين الجبال القفر . وأقيمت الضياع ولم تقم الحضارة . جاءت النعومة والثروة ولم تأت قيمة العمل . . جاء الخمول . . وتبعه السأم . .

وأشتعلت الفتنة . قتل عثمان وعلى والحسين وابن الزبير وعدد لا يحصى من الصحابة والخوارج والشيعية والأمويين والعلويين وأصبحت أطلال الشعراء مواقع للحرب . وينابيع المحيين ملوثة بالدم . أنتقل مركز الخلافة والحكم إلى الشام . أنتزعت السلطة من أرضهم أنتزاعاً . وأستفاد الامويون من أخطاء عثمان . وأغلقوا باب الحكم في وجه قريش . زادوا في أعطيتهم من المال والعبيد والضياع وكل وسائل الاغراء الا التفكير في السياسة أو التحدث فيها . قلموا أظفارهم بما يكفى حتى لا يعاودوا إنشائها في جسد الدولة . هكذا ظهر جيل ابن أبي ربيعة . معفيا من كل الروابط . كل الأهداف النبيلة قد تلوثت بالدم . وبالغ عمر فأعفى نفسه من كل الأهداف المحددة التي يرسمها العدد الاكبر من الناس ، ومن اعتبارات الحياء والاحتشام . إنه أكثر خفة من أفراد جيله . أقدر على السرعة والحركة والاقدام . لا يكبله الوزاع الاخلاقي الذي يرهب غيره . . لقد أفزعت مغامراته كثيرا من معاصريه . . يحكى أبو سمره . .

« إنى لا طوف بالكعبة فاذا بشيخ في الطواف فقيل لى هذا ابن أبي ربيعة . فقبطت على يده . قلت له . يا ابن أبي ربيعة . قال : قل ما تشاء . . قلت . . أكل ما قلته في شعرك فعلته ؟ . قال : اليك عنى . . قلت : أسألك بالله . قال . نعم . كل ما قلته فعلته . واستغفر الله . » .

والدولة تتسع . يرفع الشهداء راياتهم المخضبة فوق الرواي البعيدة . وشعراء الغزل يتفانون في الوجد والبكاء على أعتاب المحبوبة . كان عمر يمر بالخوارج في ثيابهم الداكنة وهم مشغولون بتغير العالم وأنظار المهدي المنتظر . وهو موزع النفس لان زينب قد أخلفت وعدها . كان يرى أن الخوارج عبيد طموحاتهم الشخصية ورغبتهم أن يعلو حقهم وباطلهم فوق كل حق وباطل . كان هو عبد لا مبالاته . لا يبالي بالمكسب والخسارة . عبد للمصادفة . المصادفة التي تعامله بغاية القسوة والخشونة في بعض الاحيان ولكنها في الغالب تمنح عليه وتقف في صفه . .

كان عمر جالسا في فناء مضربه وحوله غلمانه . أقبلت عليه جارية جميلة عليها آثار النعمة . سألت وحيته ثم قالت :

- حياك الله . . هل لك في معادئة أحسن الناس وجها وأتمهم خلقا وأكملهم أدبا وأشرفهم حسبا . .

وافق على الفور . . اضافت المرأة :

- ولى شرط . تمكنتى من عينيك أعصبتها وأقودك ثم أفعل بك ذلك حين تعود . .
وافق أيضا . عصبت عينيه مقاوته . لم يعرف إن كان قد سار كثيرا أم قليلا . لكن رائحة
العطر والبخور ملأت أنفه . رفعت العصابة . رأى أمامه امرأة لم ير مثل جمالها . نظر إليها
مبهورا وقابلت نظرته بازاءدراء : قالت :

- أنت الفاضح للحرائر . . ؟ . .
قال عمر : وماذاك جعلنى الله فداك ؟ . .
- ألسنت القائل . .
فلثمت فاما آخذا بقرونها
شرب الزيف ببرد ماء الحشرج
قال عمر . . أجل قلت ذلك . .
صرخت فيه :

- قم فأخرج عنى يا فاسق . .
فوجيء عمر بعبيد لم يدر من أين جاءوا . أنهالوا عليه ضربا بالعصى . تركته الفتاة
دون أن تبالى بصرخاته . جاءت المرأة وعصبت عينيه وقادته إلى مضربه .
في اليوم التالى جاءت نفس المرأة . . كان كل جزء من جسمه يتألم . . قالت :

- هل لك فى العود . . ؟ . .

وافقها على الفور . اختلطت عليه لذه الظفر بالانثى بالالم الذى يتكبده فى سبيل
ذلك . الانثى البعيدة تظل دائما مشتتاه . عصبت المرأة عينيه حتى أنهى لموضع الليلة
السابقة . هاجته رائحة العطر والبخور . رفعت العصابة فرأها أشد جمالا وبهاء .
قالت :

- ايه يا فاضح الحرائر . . ؟ . .
قال عمر : بماذا جعلنى الله فداك . . ؟
- ألسنت القائل . .
وناهدة الثديين قلت لها : إتكى .
على الرمل من جبانته لم توسد .
وصرخت صرختها المهدودة : قم فأخرج عنى يا فاسق . .

وجاء العبيد . وتركت العصى اثارها الحمراء فوق جسده . كانت الضربات تبعث
داخله نشوة سادية . كأنها بديل عن الرغبة المستحيلة التحفيق . لكنه استطاع أن يغمس

كفه في اناء صغير فيه طيب . وعندما عصبت المرأة عينيه أخذ يتسند حتى طبع كفه الملوث بالطيب على باب الخيمة .

وعندما عاد جمع غلماناه بسرعة . قال لهم :
- أيكم يدلني على باب خيمة عليه أثر طيب كأنه كف ، فهو حروله خمسمائة درهم .
انتشر غلماناه . لم يلبثوا أن عثروا على الخيمة . سار معهم فإذا الكف مازالت طرية .. وإذا الخيمة لقاطمة بنت عبد الملك ابن مروان ..
، وجاء الصباح . رحل الركب . لكنه إمتطى جواده وتبعهم . فرزت فاطمة .
إرسلت إليه الجارية .. قالت ..

- ويحك ما شأنك وماذا تريد .. ؟ انصرف ولا تهلر دمك ..
لم يخف من التهديد .. قال ..
- لست بمنصرف حتى تبعث لي قميصها ..

ولم تجد المرأة بدا من العودة وإحضار القميص الذى طلبه . نفس الرائحة التى كان يشمها كلما توجه معصوب العينين إلى خيمتها . وزاد هذا من حدة شغفه . حتى الرغبات «الفتشية» لم تتركه . لا يعرف العار ولا الخجل ولا الخزى . إنه صريح فى مواجهة نفسه والآخرين . يقف على الشعرة الفاصلة بين الوله والشذوذ . يتحمل الضرب والاهانة ويقنع من الغنيمة بأقل الأنصبة . لعل هذا كان هو الأسلوب الوحيد المتاح أمامه . إن احساسه الشديد بالخواء والسأم يدفعه للحديث أو للحركة لأن إحتكاكه بالكائنات الحية هو الوسيلة الوحيدة لأبقاء حيويته .. إن السأم وسط الصحراء هو الجحيم ..

أما المرأة فهي الجزء الآخر . منةاضاً ومكملاً له . هى الأكثر احساساً به . لأن الرجال لا يفهمونه . يشعرون بالاشمئزاز من تصرفاته . يقيمونه وفقاً لكل القيم التى يؤمنون بها والتى يعتقدون بالطبع أنها أفضل ما فى الوجود . إنه يختلف عن بقية الرجال . لا يعنيه فى هذا العالم الواسع المليء بالمشاغل إلا المرأة . لا يشبه الرجال المنغمسين فى هموم الحياة اليومية : ولعل هذا هو الرجل الأمثل لكل منشغل بها ودائماً .. باحثاً عنها إلى آخر العمر ..

إنه يختلف عن الفرزدق . كلاهما مولع بالنساء . لكن مدخل كل منهما للمرأة يختلف .. الفرزدق مخادع . عندما شب اكتشف أنه فقير . ضيع جده وأبوه ثروتيهما فى كرم أحق . وتعود هو أن يلجأ للخديعة ليأخذ ما يريد . كان يرى أن النساء مخلوقات أقل منه . لذا فإنه يخدعهن بلا هوادة . حتى النوار ابنه عمه . والجوارى اللاتى وعدهن بالزواج والقابلة التى خدعها على طريق مكة . مع كل واحدة لبس ثوباً مختلفاً . وحين يأخذ ما يريد

يمضى دون أن يلتفت . كل امرأة عرفت شعرت بمرارة الخديعة . شعرت بالخوف منه والحقد عليه . لكن إحساس المرأة تجاه عمر يختلف . إنها تعرف منذ البداية أنه يستحيل أن يكون زوجاً أو عشيراً وفاقاً . إنه عابر سبيل . رفيق لا يخاطب عواطفها ولا يطلب عشقاً وسهاداً . يعطى نفسه حتى آخر قطرة من دمه وينفق كيسه لأخر دينار ويعطى . حريص على أن تكون القسمة عادلة بينه وبين المرأة التي يعشقها . إن أعظم مصدر لسعادته حين يراهن سعيدات . ناسيات في نشوة سرورهن هموم الحياة الرتيبة خارج الصحراء .

ثم كان أن قابل «الثريا» . امرأة مختلفة . جدوة لا تمجد . وحشية الجمال ، نموذج للجمال الصحراوي . يجرى في عروقها دم نزق مجنون توارثته من جدتها عبلة بنت عبيد التي أرسلها زوجها إلى سوق عكاظ لتبيع أواني السمن ، ومعها ابن أخيه ، فباعته السمن والناقيتين ورهنت إبن الأخ وصرفت المال على هواها . . وهربت . . تدفق هذا الدم في عروق «الثريا» فنزعت الاحجبة والقت بكل النواهي وتعرضت للرجال بجمالها . لا يقدر أحد أن يتجاهلها . ولا يستطيع أحد أن يمتلكها . وعندما تقابلت هي وعمر أدرك كل منها أنه قد قابل صنوه . ورغم كل التقلبات ظل الرباط بينهما قائماً . كانت تعرف أنه لا يصلح زوجاً . وكان يعرف أنها لا تصلح زوجة . إن كمية النزوات بداخل كل منهما لا تستقيم معها أى حياة زوجية . .

كان سائراً فقابل بعض الرعاة قادمين من ناحية الطائف . سالمهم عن الأخبار . قالوا انهم سمعوا بوفاة امرأة اسمها نجم من الساء . جن . حث جواده للطائف من أخشن الطرق وأقصروها . وصل لاهثاً فوجدها سليمة تقول ضاحكة . .

- أنا أمرتهم بذلك لاختبر مالى عندك . .

كانت تعرف كيف تسوسه . كان معها يفتقد حذقه المهود . يرسل إليها الرسل فتردهم بتعال . .

- إن ابن ربيعة فارغ ونحن في شغل . .

كانت تعطيه أحاسيس متناقضة . روضت كل عواطفه الجائعة . أعطته فقط الأحساس بأنها امرأة فيها كل النساء . حنونة مثل ريح الصبا . عنيفة مثل ريح السموم . لا يعرف الحد الفاصل بين رضاها وغضبها . يذكر عمر حين أتاها ومعه صديق له . ولما كشفت الستر وأرادت الخروج إليه رأت صاحبه فرجعت . قال عمر ببلاهة . .

- هذا صديقى . لا أحتشمه ولا أخفى عنه شيئاً .

واستلقى وهو يضحك . خرجت الثريا وضربته بظاهر كفها . كانت تلبس خواتم في أصابعها العشرة . صرخ والدم ينزف من فمه . تكسرت أسنانه الأمامية . ورغم أنه سافر إلى البصرة لداواتها بالذهب فقد اسودت . وظل اللون في فمه كالذكرى المؤلمة . لقد تركت

«الثريا» في نفسه كثيراً من الجروح . وحين فكرت بطريقة عملية لمختارت الوقت والزوج . فقبلت أن ترحل مع زوجها إلى مصر بعيداً عن موطن الذكريات والفضائح القديمة . وعرف عمر بموعد رحيلها . سافر حتى لحقها في منتصف الطريق . جلس يعاتبها ويبكى . لكنها قالت في بساطة عملية . .

- ما جدوى العتاب وهذا وقت الرحيل . .

هكذا خرجت «الثريا» مثلما دخلت حياته بإرادتها . حينها شاءت . وظل عمر أسير الصحراء الواسعة . أسير الرمل والهضاب والصباب . مرت سنوات طويلة . وذاب الشباب من بين أصابعه . . أصبح شيخاً . لكنه لم يكف عن السعى . لعل هناك مغامرة لم يصيبها بعد . .

رأى امرأة جميلة . سعى خلفها يلح كالذبابة . . لم تجبه . ظل يتبعها ويصف ثيابها . .

الريح تسحب أذيالاً وترفعها .

يا ليتنى كنت مما تسحب الريح . .

وظل يهتف بالآيات . قالوا لها أذكره لزوجك . قالت كلا . لا أشكوه إلا الله . ثم

هتفت . .

- اللهم إن كان نوه باسمي ظلماً . . فاجعله طعاماً للريح . .

وضرب الدهر ضربته كما يقول أبو الفرج . . كان يعدو فوق جواده فهبت ريح قوية . نفس الريح التي كانت تقوده في شبابه . لكنها دفعته . سقط من فوق الجواد . القته على شجرة من أشجار «العضاة» يابسة . أشواكها حادة ومسنونة . انغrust في جسده . قيدته إلى أرض الصحراء . ذهب جسده بدداً في الرمل الشاسع . لم تبق الريح لجسده من أثر . .



قيس بن الملوح والموت في الحب

قبل أن يبدأ أبو الفرج رحلته . سأل نفسه :
- هل كان لقيس بن الملوح وجوداً حقيقياً . . ؟
تلفتت ظلية الوادي فرأته في أيامه الأخيرة . في لحظاته الأخيرة . يسعى فوق الرمل لا
يستر جسده غير خرق باليه . زائف العينين يداوم البحث عن شيء لا وجود له . . يسأل من
يقابله . .

- أين أنا من ديار بني عامر . . ؟ . .
ويأتيه الجواب هائلاً . . أنت على حدود العراق . . اتبع هذا النجم وسر للمجنوب . .
ومضى . فوق الرمل الخادع . تحت الشمس المعادية . تفتتح جراح قلبه كأخاديد
الصخور . ويمتد الصبار حتى عظامه . يصل إلى أول الأحياء فيسأل من يقابله :

- أين أنا من ديار بني عامر . . ؟ . .
يأتيه الجواب مستغرباً . . أنت في اليمن . . اتبع هذا النجم وأمض للشمال . .
تشابهت الصحراء علينا . والليل والنهار . والموت والحياة . تشابهت الشمس
ووجهها . كلاهما قاس وبعيد المنال . طاب مساؤك أيتها النجوم يا مضلتي . يا جبل
التوياد يا ذاكرتي الصخرية . يا كل الطلول والمراعى والعيون . طاب مساؤك أيتها الجراح
التي استعذب نزيها . ويا أيها الجنون ، يا بلسمى الشافي حين عز الدواء وحان الموت . .
وطاب صباحك . . يا ليل . .

بعد سير طويل عاد أبو الفرج خائب المسمى . . هتف يائساً :
- سألت بني عامر بطناً . . بطناً عن مجنون بني عامر ، فما وجدت أحداً يعرفه .
كل من سألهم ضلوه . أنكروا أشعاره وكذبوا أخباره . تنصلوا من كل ما يربطهم

به . وسار أبو الفرج لهات أنفاسه التي أضناها القنوط . ودبيب أقدام روحه التائهة . خلف
العيون اللامبالية . ذهب إلى راوية القبيلة . في ذاكرته كل الشعر والانساب . . سأل . .

- أتعرف المجنون . . أتروى شيئاً من شعره . .
قال الرجل باشمئزاز واضح :

- أو قد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروى شعر المجانين . .

وعاد أبو الفرج . حمل أوراقه الممزقة فواجهته الخيام . وجذوات النار الخابية . .
رماد . . رماد . . كل أحاديث الحب وأشعار الصبايات . ذهب إلى شيخ القبيلة ،
استحلفه بمكانته أن يقص عليه أخبار مجنون بنى عامر الذي قتله العشق . وهتف الرجل في
سخرية حقيقية . .

- هيهات . بنو عامر أغلظ أكباداً من هذا . إنما يكون هذا في القبائل الضعاف
قلوبها . . السخيفة عقولها . الصلعة رؤوسها . .

ورفض أبو الفرج أن يتناول القهوة . واحتج بأن التمر يهيج معدته . وخرج يائساً . .
وأصطحبه رجل عجوز كان يعرف كل أسرار القبائل ويحيد التحدث في شئون الدولة . .
قال له بجدية :

- إن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بى أمية كان يهوى ابنة عم له . وكان
يكره أن يظهر ما بينه وبينها فوضع حديث المجنون . وإخترق الأشعار التي يروها الناس
ونسبها للمجنون أيضاً . .

والتبس الأمر في ذهن أبي الفرج . أكان يسمى خلف وهم اذن . . ؟ . . أساء كاذبة
وأشعار منحولة . لم يكن هناك قيس . لم تكن هناك ليلى . أو يعجز البشر عن صنع هذا
العشق الغريب المدمر فيتحلون له الوقائع . حتى الأعراب الأخير الذي قابله وسأله . . رد
عليه باهتمام بالغ : عن أيهم تسأل . . ؟ فقد كان فينا جماعة رموا بالمجنون . . فعن أيهم
تسألنى ؟ . . وشعر أبو الفرج ببادة الأمل . . فسأل بلهفة : عن ذلك الذى كان يشبب
بليلى . . هز الأعراب كتفه : كلهم كان يشبب بليلى . وانطلق يقص الأخبار ويروى
القصائد . وتداخل كل شيء فلم يستطيع أبو الفرج التدوين . . وفى النهاية إكتشف أن
الرجل كان يكذب أيضاً . . ألقى الريشة والورق وصرخ في حنق :

- يا قيس . . هل أنت موجود . . ؟ . .

وحملت الريح صدى النداء . عبر فيافي الصحراء . والربوع المهجورة . كان قيس
وحيداً وسط سرب من الأطباء . يقص عليهم قصته ويروى أشعاره . والطباء تهز قرونها

الصغيرة . لا تفهمه لكنها لا تنفر منه . يؤكد لها أن ليل تشبهها تمام الشبه . ظبية حزينة ألقى الصائدون لها الشباك . خيروها في العار مع الحب . . أو الحياة بقلب ميت . وهل تملك الطباء الأختبار وهي تتخبط في الشرك . . كان جسده العارى قد تلون بلون الصخر الداكن . وإستطال شعره حتى غمر وجهه . لم يبق غير عينين تتألقان بفيض غريب من الوهج حين يهفو ذكر ليلي . كم هي نائية . . لكنها آخر ما يربطه مع العالم من خيوط . . يعدومع الطباء . ينام في أوكارها . ويشرب من مناهلها . ويختبئ خوفاً من الصيادين . .

في اللقاء الأخير تسللت أمه دون أن تخبره وذهبت إليها . . وقالت وهي تبكي :
- إن قيساً ذهب حبك بعقله . . ترك النوم والطعام . . فلو جئته هنيئة من الزمن . .
ربما ثاب إليه بعض من عقله . .
تغير وجه ليلي . كانت أوامر المنم مشددة . . والسيوف مشرعة . . لكنها قالت :

- أما نهاراً فلا . . لأننى لا آمن من قومي على نفسى . . ولكن . . قد أقدر على ذلك ليلاً . .

وحل الظلام فسارت إليه . إرتجفت الأيدي وهي تتلامس . وامتلأ الليل بحفيف الأنفاس الغامضة . . قال مبهوراً : إنى لأخشى أن أموت فجأة . . وفي النفس حاجات إليك . . كما هي . . وإنى لينسى لقاءك كلما لقيتك يوماً . . أن ابثك ما بيا . . كان جائعاً للمسة حنون . وتكورت النجوم على سفح «التوباد» واختلطت مع الحصى وبقايا الأغنام . حيث كانا صغيرين يرعيان معاً . والسياء تصب زرقتها الصافية داخل قلبها . كانت أمامه . ترفع طرف الخيمة وتدخل قلبه مثل أمية مستحيلة . بكت أمه في خباثتها دون صوت . . لم تشأ أن تخبره بما فعلت خوفاً من أن يتبدد الموعد وتزداد مرارة الحرمان . نظر ليلي . . ابتعد يتأملها . تأوهت النار وتطابى شررها . أسئلة حائرة . ظل يتمتم بحروف أسمها كأنما يردده للمرة الأولى . يخطها بيد رقيقة على قلبه . مثلما ينقر عصفور صغير . . تعلقت ليلي وهي ذات ذؤابة . . صغيرين نرعى البهم . . يا ليت أننا إلى اليوم لم تكبر . . ولم تكبر البهم . .

وضعت يدها على فمه . . قالت :
- هذه ليلتنا الأخيرة . . وهذا آخر عهدي بك . .
تطلع إليها غير فاهم . . واصلت القول برفق :

- وافق أبى على رحيلى مع ورد . . وفى الغد سوف يحملنى إلى ثقيف . .

ظل يتطلع إلى شفيتها وهي تتحرك . . كأن الكلمات تقولها شفاه أخرى . ما جدوى الحياة . . إذن . . أن تضىء النجوم وتدفع الشمس داخله بالقيظ والمرارة . . هي له . . رغم معاداة الأهل . . ورغم دمه المهدر . . هي له . . منذ تلك اللحظة التي رآها فيها

جالسة وسط نسوة من قومها . . نزل على مضاربهن وجلس يتحدث ويروي الشعر . . كان هذا شيئاً عادياً . لكن فتى آخر يدعى «منازل» جاء . . تركته النسوة وانصرفن إلى الواقد الجديد . . ولم يبق معه إلا هي . . تتسرب كلماته . تعطيه أهمية مضاعفة . قرأ في عينها أنها تريده وتوقف الزمن . واستيقظت القبرات من نومها . . كلما هبت الخزامى رددت إسمها . . وكلما سرى أقحوان الرمل التقيا معاً . . فما جدوى أن تحمل إلى ثقيف ولا يميلان معاً إلى قبر واحد . . واصلت التوسل إليه :

- لا تذهب إلى قومي . لا تسأل أحدا عني . لقد أهدر السلطان دمك إذا اقتربت من ديارنا .
صرخ فيها . . الموت أروح لي . فليتهم قتلوني . .

كانت هي التي تقتله . تعطيه الجنون مخدراً قبل أن تجهز عليه . قد ترحل . . وتتعزى . . وقد تنسى أيضاً . . قد تكتشف أن زوجها ليس بالسوء الذي تصورته . وأن الحب لا يحتاج لكل هذا القدر من المرارة . لعلها لم تكن تريد انقاذ حياته بقدر ما تريد ألا تزيد من احساسها بالذنب . كان هو يحترق . يترك يده وسط اللهب دون أن يحس بلسعتها . يختلط الحب بالاعتداز . والوداع بالخوف . . قالت . . سوف أمضى . . غارت النجوم وتولى الليل . لكنها لم تفعل . هبط القمر . والقى التوباد بظله الكثيف عليها . وخذت النيران . حاول احتضانها . لكن لحظة الوداع الأخيرة كانت مليئة بالخوف والارتباك . .

الظباء ترحل وتعود . لكن ليلي رحلت دون عودة . ذهب إلى حبيها فلم يجد أحدا . دخل منزلها الخاوي . رأى مكان نومها . . وبقية آثارها . . جزء من الحياة لم يمت بعد . ألصق صدره بالتراب وأخذ يهرغ وجهه ويبكي . أصبح وحيداً في الخلاء الواسع . في داخله إفتقاد مريـر . لم يحدد أحد . وحدد أبوها موقفه منه بصراحة . . اعترضه مستكراً :

- أفضح نفسي وعشيرتي وآت بما لم يأت أحد من العرب وأسم ابنتي بميسم الفضيحة والعار .
تمتم قيس . ليتني خرسيت ولم أقل الشعر . ليت النخل يكف عن الارتفاع . وأن تبدد زرقة السماء وتحل بدلاً منها صفرة قائمة . ندم قاتم . ما أوحش الخلاء . وتعاويد أمه . وسخط أبيه . واستهزاء قومه . وفقدان ليلي . .

حين أراد التعزى خرج مع بعض من فتيان قومه . مروا في طريقهم بجبل النعمان قالوا : يعابثونه . . قد كانت ليلي تنزل بهما . . توقف ملهوفاً . . فأى الريح يأتي من ناحيتها . . قالوا : الصبا . . قال : فوالله أريم على هذا الوضع حتى تهب الصبا . مضوا

وتركوه مشرباً حسة أيام كاملة . وهبت الريح فإذا جسد ليلي يتضوع عطرا . وهتف
قيس :

فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت
على نفس محزون تجلت همومه . .
فليوقفوا هبوب الريح اذن . .
التفتت حوله نسوة الحى . . هتمس به :

- ما الذى فعلته بنسكك من هوى ليلي . . إما هى امرأة من النساء إصرف هواك
إلى إحداها فنساعذك ونجزيك بهواك . ونرجع إليك ما ذهب من عقلك وجسمك . .
اجتمع أهل الحى إلى أبيه . . قالوا له :

- احجج به إلى مكة . ادع الله له . مره أن يتعلق باستار الكعبة فيسأل الله أن يعافيه
من حبه ويبغض ليلي إليه . .
وألح عليه أبوه . توسل إليه واستحلفه باسمها حتى سار معه إلى مكة ثم عاود
التوسل :

- يا بنى . تعلق بأستار الكعبة سل الله أن يعافيك من حبه . .
تعلق قيس بأستار الكعبة وهتف بكل ما فى قلبه من وجد . .

- اللهم زدنى لليلي حياً . . وبها كلفاً . . لا تنسى ذكرها أبداً . .

شعر أبوه باليأس . إقتاده إلى «منى» ليقتضيا الليل مع بقية الحجيج . وحين هجع كل
شئ . . وخفت الابهتالات . دوى صوت من أسفل الجبل . ينادى اسمها . لم يسمعه
سواه . لم يرتعد له سواه . صوت جياش باللهفة الجائعة . . استيقظ صارخاً : لبيك
يا ليلي . . واستيقظ بقية الحجيج . . لبيك اللهم لبيك . . لكنه هرول وسط الصخور :
لبيك يا ليلي . . تعثر فى الأجساد النائمة . والصوت يجذبه . يهوى به . حاولوا منعه
وامسأكه . واصل الصراخ والصدى يبدو الصرخات ويرجع النداء . . أفلت منهم ومضى
بعيداً . . حيث ينتظره الموت فى مكان مجهول .

انهك أبو الفرج من التعب . أوراقه مرققة لا تحمل إلا أخبارا مبتورة وأحاديث كاذبة .
ذهب إلى علامة بغداد «الجاحظ» . . كان منكباً يؤلف كتابه الضخم عن «الحيوان» . هتف
به :

- أتوسل إليك يا سيدى الجاحظ : حدثنى عن يـ بنى عامر . أهو موجود . أم
مختلق

إبتسم الجاحظ ابتسامة زادت من دمامة وجهه قال :
- تعبر ذلك الانسان الذي أصبح حيوانا . .
وددم أبو الفرج في غيظ . . ليكن ما يكون . إنسان . حيوان . نبات . . هل كان له
وجود . . ؟ . . وأجاب الجاحظ في غموض :
- كان موجودا . ولم يكن موجوداً . .

وأوشك أبو الدح أن يبكي .
يعشق أولاً يعشق . تلك المسألة . لقد كان سيد قومه . وسيط النسب . معروفا بثقته
الشديدة بنفسه . كان مهيباً لأن يصنع الكثير . أن يغدو أعظم وأرق ما شاهدته العرب من
شعراء . لكنه فجر في الحب كل طاقته . سخر له الكلمات والقصائد والحظات العمر .
تمزقت ثقته بنفسه مثل ثوب قديم لصار عاشقاً ضعيفاً عارياً .

لم يسخط أبداً على ليلي . رغم كل التقلبات . في أول العشق اكتشف أن له منافسا
يدسى « معاد » هتف معزياً نفسه : كلانا يا معاذ يجب ليلي .

وعندما وعدته قبل أن يمن أن تزوره وظلت تامله . واجراءات زواجها من « ورد »
تتم كالقدر المحتوم . ذهب إلى ديارها وجلس مع نسوة يحدثن عنها ويبكى وهي تسمعه .
أطعته وعصيت الناس كلهم في أمره وهواه وهو يعصيني . . لم تف بوعدا رغم ذلك .
وعندما اشتهر أمره بها . وتناقل الناس أشعاره فيها . وذهب يخطبها . بذل خمسين ناقة
حمراء . . ولم يبذل لها « ورد » سوى عشر نوق فقط . . قال أهلها . . نحن نجبروها بينكما
فمن إختارته تزوجته . . ودخلوا إليها وأيديهم على مقابض السيوف . صاحوا بها . والله
لئن لم تختاري ورداً لنمثلن بك . واختارت ورداً . تركت لقيس الخلاء والجنون . وقف
يرقب رحيلها إلى ثقيف عاجزاً عن السخط . عاجزاً شعور بالحق يخفف من مدى
مرارته . . كان حبه نوعاً من القضاء والقدر لا مرد له . . ثابت لا يتزعزع . لا يملك إلا
أن يهتف . لقد ثبتت في القلب منك مودة . . كما ثبتت في الراحتين الأصابع . تحول العشق
إلى تسليم لا إرادى عاجز . . واستبدل الحرمان في الحياة بنوال كامل في العالم الآخر حين
يحشران سوياً في يوم القيامة . .

لم يكن للليل العامرية شكل محدد . حين سألوه عنها وصفها بكل ما هو جميل وصعب
تكاد يدي ، تندى إذا ما لمستها . .
وينبت في أطرافها الورق النضر . .

إنها القمر حين الظلام والمطر وقت العطش والنجم في ليلته وهي كل شيء . .
ول تكون امرأة .

من لحم ودم . . عندما يمر برجلين قد اصطادا ظبية وربطاهما بحبل نظر إليها وهي
تركض مقيدة . . كانت تشبه ليلى . لحظة ودعته . أن وضعت أناملها على حبيبه وابتسمت
دامعة . قال للرجلين :

- خليها وخذا مكانها واحدة من أبلى . .
ورضى الرجلان بالصفقة . . وتركوا الظبية تفر منها ومنه . . همهم . . ياشبه ليلى لا
تراعى . لكن ليلى بعيدة . . تفر مثل ظبية . .

وعندما تعذر منالها أصبحت بالنسبة إليه شيئاً مثالياً لا يمسه . . ولا يتصور أن يمسه أحد
غيره . اكتسبت من بعدها لا واقعية غير محددة . . وبلغ الأمر غايته من الألم حين قابل
ورداً ذات مرة . سأله مباشرة .

- بربك هل ضمنت إليك ليلى . .
قبيل الصبح . . أو قبلت فاهها
وأجابته «ورد» ببساطة : اللهم إذ حلفتني فنعم .

وقبض قيس بكلتا يديه على قبضتين من الخمر . . ما فارقهما حتى سقط مغشياً عليه
وسقط مع الخمر لحم راحتيه . . ولم يفعل ورد أكثر من أنه هز كتفيه . . ومضى . .
وظل أبو الفرج سائراً . أوقفوه أمام باب «التكية» . . قالوا له : إن «نظامي» شاعر
فارس الكبير في الخلوة ولا يقدر أحد على ازعاجه . سألهم عن ميعاد انتهاء الخلوة فابتسموا
في رثاء . .

- وهل يتبدد الوجد . . وينسل المحب من محبوبه . .
لم يفهم شيئاً . ألقى جالساً جنب السور وامتلأ الجوبتومات الدراويش وهي تصوغ
أدعية التتل بلهجة غريبة وعامضة . مر به موكب للصوفية ، لابسى الحرق محننى
الطهر . . هتف في حيرة . .

- يا نظامى أجب مسألتي . . وخفف من حيرتي . .
رأى نظامى أمامه . خارجاً من التكية في ثوبه الأبيض . وشعر رأسه الأشيب منسدلاً
على كتفيه . يتطلع إليه في تساؤل . قال أبو العرج بسرعة .

- جئت أسالك عن قيس بن الملوح الذى أحب ليلى العامرية . . هل كان
موجوداً ؟

ابتسم نظامى . تخلل لحيته بأصبعه . . ثم قال مؤكداً . .

- أجل قيس كان موجوداً . . لكن ليلى لم تكن موجودة بطبيعة الحال .

وألقي أبو الفرج الورق والاقلام .. أخذ يضرب الأرض بقدميه مثل طفل غاضب ..

- يا لها من مسألة .. يا لها من حيرة ..

لم تكن ليلي امرأة . كانت رمزاً لكل الصبوات ما من شاعر عشق إلا وهتف باسمها . من من أحد حلم بامرأة إلا وكانت هي . لكن «قيساً» هو الذى أكمل الرحلة للنهاية . وختم بموته دائرة العشق . هناك في بلاد بعيدة اسمها اليونان .. امرأة اسمها «هيلانه» .. اشعلت الحب والحرب .. وكل شرار الشهوة والموت .. هذه المرأة تشبه ليلي عند العرب . ولو أنها لم توجد لابتدعوها .

لم يصب قيس بالجنون . إنما طغى شعوره على سلطان عقله . فاضت عاطفته من القلب فملكته حياته لقد دخل أول درجات الوجد . وارتقى بالتأمل الجسماني المحدد . لم يقف عند صفات ليلي المادية . خلقت العين كمرأة . فيها آلامنا . وفيها جمالنا . وفيها قبورنا .. والعين ترى ما تريد أن تراه . والروح تهو للارتقاء .. لم تكن ليلي جسداً يحتضنه قيس ، بل كانت مداراً يدور حوله كالنجم الثائب .

ولم يفهم أبو الفرج أى كلمة . لم يحس بالحيرة وهو يتتبع أخبارا كما أحسها الآن .. ودلو يلقى بالأمر كله وينسأه . لكنه نظر في حيرة إلى نظامي . أكبر شعراء فارس واحد اقطاب الصوفية . وهو يميز أن ليلي عاشت عذراء . لم يمسه بشر . لا قيس ولا زوجها .. وظلت حتى ماتت عذراء . وفكر أبو الفرج : هذا مستحيل . هذا غير بشرى . إن الأخبار التي جمعها تؤكد أن الأمور لم تكن كما يعتقد نظامي أبداً ..

ماذا يعنى هذا ؟ غير أن نظامي قد أطال مقامه داخل «التكية» فأنساه ذلك كثيراً من الطبايع البشرية ..

أقبل على أبي الفرج اعرابي من بني عامر وهمس في اذنه :

- اليوم يشيع جسد قيس ..

تمتم مدهوشاً .. أو قد عثروا على جثته .. ؟ .. وهرع إلى مضارب القبيلة .. رأى أباه يبكي ويشير إلى الجسد :

- والله ما كانت تطمع في مثله ..

حين لحقه الخيل . هام في الفيافي وجدأ عليها . حبسوه وقيده . فأخذ يعض لسانه حتى خشى الجميع أن يقطعه . خلوا سبيله . وهكذا انطلق . اختلطت آثار اقدامه بحوافر الوحوش والظباء . وتعددت أمه أن تخرج كل يوم فتضع طعاماً على حافة النل . لعله يأتي ويأكل .. وفي أيام لم يمسه الطعام تقريباً . في أيام أخرى كان يؤكل عن آخره . لم تكن

تدرى . أهو الذى يأكله حقاً أم أنهم رفاقه من الوحوش . لكن ذلك كان يعطيها بعضاً من العزاء . . إنه مازال حياً . . يربطه بأمه شيء ما . .

ثم مرت خمسة أيام والطعام بحاله لم يمس . لا تقربه يد : ولا تقترب منه أى آثار . وكلما أبدلته عادت وأخذته كما هو . وفي صباح اليوم السادس . قالت لأبيه قلبى يحدثنى أنه مات . . همهم الأب . . وكيف يموت وقد كان ميتاً ؟ ألحت الأم عليه . أذهب وابحث عنه . . إئتنى به أوبجسته . وخرج الأب . قرأ الجميع ما على وجهه فساروا خلفه صامتين . تتبعوا أثره . . حاولوا تمييزه عن آثار بقية الحيوانات . تلالاً صعودها وودياناً هبطوها . حتى وصلوا إلى وادى الحجارة المسنونة . حاصرتهم الطيور السوداء وهى تتدافع بعرض الفضاء . تصرخ بصوت حاد متواصل كنعيب النسوة . نظروا أسفل الوادى فرأوا جثته . . قطعتها الأحجار مزقاً . . وهشمت الرأس الذى لم يكف لحظة عن الهديان بالحلب . . وأوقفت القلب المضنى أخيراً . .

ضموا جسده فى عباءة وعادوا به . استيقظوا كلهم . أفاقوا على موته القاسى . لم يبق امرأة . لم يبق رجل . . إلا خرج وتذكر ويكى . وقف أبو الفرج ذاهلاً وسط مظاهر الحزن الفاجع . هدم الرجال خيام كل القبيلة فأصبحت فى العراء . . ووقفت النسوة حاسرات الرؤوس . . وجاء بنو عامر . جثا أبو ليلى أمام الجثمان الممزق وهتف فى حرقه . .

- ما علمت أن الأمر يبلغ هذا . . لكننى كنت امرأ عربياً أخاف العار . . زوجتها وخرجت من يدى . .

نهض . . نظر إلى صفوف الباكين . . توسل إلى ابن قيس . .

- لو علمت أن أمره يجرى هكذا ما أخرجتها من يدى .

ورأى أبو الفرج الجسد المكفن بالثوب الممزق وهو ينزلق ببطيئاً فى الهوة الرملية الفاغرة وتمتم محزوماً . .

- كان موجوداً اذن . .

وتعالى الصرخات . أخذت النسوة يرثينه بكل أشعار الحب العذبة . . واقتربت الظباء النافرة . . وقفت على أنقاض الخيام تتأمل رفيقها الوحيد وهو يغيب فى جوف القبر . . مكان راحته الوحيد الممكن . . ثم ولت هاربة . .



ديك الجن الشراك منصوبة للشعراء

يا طلعة طلح الحمام عليها . الشمس ندهب بدداً . تنحدر خلف نهر «بردى» الصحل
ورسول السلطان يطوف بالمدينة .

- الأمان .. الأمان يا ديك الجن ..

في يده راية بيضاء . وغرة الجواد بيضاء . لكنها شمس تموت ويأتى الصباح بشمس
أخرى مخادعة . هذا المخبأ رطب . قهواً سود . والوحدة بالغة المرارة . يا ديك الجن ذهبت
الصبوات العذاب واحترقت الشهب .. يا طلعة طلح الحمام عليها . وجنى لها ثمر الردى
بيديها .. تدق الطبول فوق أبراج دمشق .

- الأمان .. الأمان يا ديك الجن ..

لا البيوت الشهباء . ولا الحدائق الوفيرة الخضرة . ولا السلطان الذى تراسى ملكه
من البحر حتى الصحراء يعطونى الأمان . إنكسر المثلث وضاع طعم الأمان .. ما جدوى
الهرب اذن والتخفى .. نوافير الحرس تدوى .

- الأمان .. الأمان يا ديك الجن ..

خرج ديك الجن من مخبئه . إزداد عمره وتضاعف . إمتدت الغضون من أعلى الوجه
حتى اللحية الكثية . سيفه فى الغمد لم يزل ملوثاً بالدم ، وطوال شهور الحرب لم يمرر على
غسله . آخر ما تعلق به من آثارهما . هى وهو .. رفيقته فى البيت ، ورفيقه فى الصيد ..
زوجه وغلامه . إنكسر المثلث . رويت من دمها الثرى ولطالما روى شفتى من شفتيها .
وقف ديك الجن أمام حاكم دمشق . أمرهم أن يحملوا عنه وثاق السيف . قال ..

- عفا السلطان عنك .. لكنه حرم عليك حمل السيف مدى الحياة .

أخرجوه من غمده وألقوه في أحد الأركان . . رأى الدم الخاف على نصله وفد أصبح
إكناً . رأى صوراً غريبة تذييل في حمص . وأمطاراً صافية تتحول إلى سيول . ورآها تبسم
من خلف الحمار . هتف أحبك . قالت . لا تنس نفسك أنت مسلم وأنا نصرانية . كان
أسمها «ورد» وكانت سماء حمص لا زوردية ناعمة وكانت السحب قريبة المنال

فلماذا أنا وحدي أحببت ثم قتلت . . ؟ . .
الحاكم يتكلم . .

- كان السلطان قد أقام الحد عليك . لكن أحمد بن علي اهاتمى تشمع لك .
وأشار للحراس أمراً . إطلقوه .
فأطلقوه . ومضى . .

وهاد الطريق المهجورة تعرف عبد السلام بن رغان الشهير بديك الحس معروف أر
سكان العوالم الخفية يصبون الشعر في همه فيتحدث عموا بأعدب الكلمات برحل
الجنيات إليه من وادي عبقير إلى الشام . مثلها رحل حده الأول من قبيلة تميم مع الفنوحات
الاسلامية الأولى واستوطن حمصاً وبنائه من بعده يعرف أن ديك الجن متشيعاً . شديد
العصبية على العرب . يقول قولة جده . .

- ما للعرب علينا فضل . جمعتنا وإياهم ولادة ابراهيم وأسلمنا كما أسلموا . ولم نجد
أن الله فضلهم علينا إذ جمعنا في الدين .

تعرف الوهاد مراثيه الطويلة . عندما يتذكر الحسين ودم كربلاء . وعندما يستدير قمر
عاشوراء وتبدأ طقوس الندم ومواكب التفكير . . من أجل الشهداء الذين اغتيلوا بلائع
يقول عبد السلام أشعاره فتغدو مراثي عامة يحفظها الرجال وتنوح بها النساء . . لكن الوهاد
لم تعرف أن الرائي لم يعد يرثي إلا نفسه . . وأن حمل الندم قد ناء به . .

توقف أمام خيمة يجلس عليها رحل عجوز سألته : أهذا الطريق إلى
حمص . . ؟ . . تأمله الرجل ملياً . قال . أنت ديك الجن . إنما تعرف حمص بك . وأي
الطرق سرت إليها تحمل حمصاً حيث تحمل . إبتلع مرارته وسار . يا شيخ الطرق متشابهة .
والأقاويل متشابهة . ما قاله ابن عمه أبو الطيب هو نفس ما قاله رفاق السحر وخلان
الليالي . . إبتعد عنها . . إنها لعوب . . إن فيها نهايتك . كان الغلام يقف بين يديه .
يرتحلان تحت الشمس . يصبح به : شد قوسك يا مولاي حتى لا يذهب الصيد بعيداً . .
وطار الصقر ثم حط على جيفه . . قال لها : ارفعي نقابك . . رفضت في المرة الأولى . الح
عليها فرفعت . رأى وشم الصليب . قالت . أما قلت لك . . الآن تمضى مبتعداً . الآن
تموت إحدى قصص الحب في ليل حمص . . لكنه كان يحبها . أدرك هذا وهو يهتف
متوسلاً .

- لو أنك تحبينى لتركك دينك وتزوجتيني ..

إبتسمت وأسدلت النقاب . صاح الغلام «بكرة» يا مولاي لو أننا سرنا ثلاثة أيام وثلاث ليالى فسوف نصل إلى وادى الظباء . وكان ديك الجن يحب غلامه . يربط بينهما عشق الصحراء الواسعة وإنطلاقة الجياد في هدأة الصباح والليل الدامس . خيمة صغيرة ونار موقدة وسهم لا يجيب . وظبي طازج لا يكاد يلفظ الروح حتى يتحول إلى شواء . وعند الينابيع البالغة البرودة - في الفجر - يخلعان ثيابها ويفوصان سوياً . رجلان حقيقيان . لا مولى وغلامه ..

قابلا عرافا تائها . قال ساخرا : إنه يتنبأ للاحجار عما سيكون المستقبل . سأله ديك الجن عن طالعه . قال العراف . مثلما يتلوث سهمك بدم الظباء ، يتلوث سيفك بدم الأدميين .. سأله الغلام عن طالعه .. قال العراف : الموت معلق على كتفك . الموت ظلك . ولم يدفع له أجراً . ولم يبالي هو بأن يأخذ أجراً .. يا طلعة طلع الحمام عليها .. أعلنت ورد إسلامها . كانت تعلم شدة حبه . إن صياد القوافي والقلوب قد إستكان عند حافة نبعها . قال أبو الطيب ابن عمه في حنق ..

- هذا دأب عبد السلام .. يصاحب الفسقة .. ويتزوج النصارى ثم الزواج وامتلأت أرسفة حمص بالنجوم الملونة . ورفع ديك الجن نقاب عروسه فتوهجت الشموع وذابت الثلوج فوق الجبال البعيدة .. يا ورد صفا الزمان .

كان ديك الجن يتساءل .. أهذا هو الطريق إلى حمص حقا .. ؟ .. هذه القرى ما كانت مهجورة هكذا . ولا الأرض مغطاة بالرمل والنباتات مريضة والشمس معادية .. كيف اختل ميزان زماننا ومالت كفتنا للنقصان .. ؟ .. صرخ الغلام . إقتل فريستك يا مولاي . كانت الفريسة ظلياً صغيراً وقع في الشرك وجثم الصقر عليه . يتطلع نحوهما - السيد والغلام - بعينيه المستديرتين اللامعتين .. يسألها عن السبب .. لماذا يكون القتل دائماً نهاية اللعبة . هتف الغلام .. لا تتردد يا مولاي حتى لا يفلت الصيد . والعينان تدوران في محجريها . تومض ومضات التساؤل الحارة والأمل الواهى في النجاة .. أكان هذا البريق في عين ورد .. نفس الدهشة ونفس السؤال :

لماذا يكون القتل دائماً نهاية اللعبة .. ؟ ..

أبو الطيب يسعى في المدينة خلفه . يهبط كالبومة على مجلس الخلان فيذهب نشوة الخمر ويعنفه دائماً يعنفه . يا عبد السلام لا تفعل كذا وكذا . إترك أصحابك ومتعتك .. كف عن قرص الشعر .. طلق المرأة النضرائية . أفعل كذا . وكذا .. كانا أولاد عم . شاهدت حوارى حمص المتربة طفولتهما ورضعا سوياً من شمس الطرقات . لكن الجنيات

هن السبب . لما رحلت من وادى عبقر اعطين عبد السلام كل شيء وتركن أبا الطيب أسير الظل والحرف الباهت . كانت المدينة تروى أشعار عبد السلام في لوه ومرانيه وهو منزو بعيداً عاجزاً عن إيصال حاجته الملحة . وحتى الجوارى أيضاً — عليهن اللعنة — عندما كن يحملن رسائل سيداتهن لعبد السلام لم تبالى احداهن بالقاء نظرة واحدة على أبي الطيب . لكنه ظل يطارده . . يفرض حوله حصاراً ووصايا محنقة . . وعندما تزوج عبد السلام ملأ المدينة بالاشاعات . . الزواج كان ورطة . . هل رأى أحدكن ورداً . . كل الذين حضروا الزواج شاهدوا ارتفاع بطنها الغريب . . و . . وفي عرض الطريق وعلى الملاء قابله ديك الجن وصفعه على وجهه . . .

هذه أول مشارف حمص . البيوت البيضاء تبرز مثل جبال الثلج . الشوارع المرصوفة بالاحجار مغطاه بالورق الأصفر . كهول ونسوة يلبسن السواد مقعيات جنب الجدران . والجواد ينقل الخطى منهكاً . وقع سنابكه لا يكاد يسمع . . يا طلعة طلع الحمام عليها . . كانا — هو والغلام — يدقان احجار الطريق بالسنايك فتستيقظ المدينة كلها . أمس واليوم وغداً . نهار واحد متصل . . مثلث هو الضلع الرئيسي فيه . . ورد الضلع الثانى ويكر الضلع الثالث . كان هو يتواصل مع الضلعين الآخرين فهل تواصل الضلعان بعيداً عنه عند القمة . . ؟ . . أليست هذه طبيعة الأمور . . مادام هناك عبد السلام — ورد ، وهناك عبد السلام — بكر فلماذا لا يكون هناك ورد — بكر ؟ أتراه كان يدرك هذا من البداية ويتقاضى . لقد سارت حياته رخيية هكذا وسط نظام محكم الأتصال . وعندما تدخل الوشاة وثار السيف تفككت أضلاع المثلث وأصبح الضلع الثالث وحيداً . مجرد خط باهت في الفضاء لا يصل ولا يتصل . . لو أنه عرف دون تدخل أبي الطيب والآخرين . . هل كان الأمر يصل إلى نفس النتيجة . . ؟ .

كان قد أصابه عسر وطالت به الأيام الضنك فقرّر الرحيل . «سليمة» احدى البلاد التى يحكمها صديقه الأمير أحمد الهاشمى وابتعد عن البيت . . أكاثت هذه مرتها الأولى أم مرتها الأخيرة . . ؟ . . قالوا أنها همس له إذ تريد . . وإنه يأتيها من حلف الحديقة . . والجوارى يتحدثن عن فحولته . . قال الجميع . . إنهم شاهدوها . . وإستعداد في ذهنه عشرات الكلمات والاشارات والحواث والنظرات الخفية والأشياء التى بدت لحظتها غامضة فسل السيف وسال الدم وبدا أبو الطيب أقرب إليه منها . يشد على عضديه ويهمس له بكلمات عسلية مسمومة .

هذه حمص أخيراً . . طيور مذبوحة وأبواب مغلقة . يا طلعة طلع الحمام عليها . قد بات سيفى في مجال وشاحها . ومدامى تجرى على خديها فوحق نعليها وما وطىء الحصى . شيء أعز على من نعليها . ما كان قنليها لأنى لم أكد أبكى إذا سقط الذباب عليها . لكن ضمنت على العيون بحسنتها . وأنفت من نظر الحسود إليها . . هذه حمص أخيراً . . منفى جديد . . والأصدقاء القدامى كم أصبحوا غرباء . .

دخل حديقة داره، لا أشجار تظل . مجرد فروع يابسة . كأنها اذرع فزعة . الدار قفر
لا يسكنها سوى العناكب والنباتات تمد أشواكها . . قديماً كانت الأحجار تعرف سيدها ،
لكن الفراغ يجهل الجميع ، لكنه وجد شخصاً ؛ كله كتلة سوداء مكومة جنب الحائط ؛
فاطمة مربيته وخادمتها منذ أن شب ووعى . تتأمله بهدوء مثلما تتطلع أم إلى ابنها وقد عاد
لتوه من اللعب في الخارج . قالت : هل عدت يا سيدى . . . قال بمرارة .

- أين كنت عندما خاناني سوي . .

لطمت المرأة وجهها . قالت : سبق السيف العزل يا سيدى . . لكننى لم أغادر فراشها
في أى ليلة من ليالى غيابك . هتف مبهوراً . . كان يعرف صدقها . وأوصلت المرأة القول :
ليتك سألت قبل أن تهوى بسيفك . أننى لم افارقها لحظة ولم يقربها بكر لحظة . . قال هل
كنت أنا على خطأ ؟ . . عاودت النواح . . لو سألت قبل أن تأتى غاضباً وقبل أن نفر
نادماً . . تركها . هرول عبر البهو الخالى والحديقة المهجورة والشوارع الموحشة . . البيوت
ثكلى والأصدقاء يرتدون الأقنعة . . أكانت مؤامرة . . ؟ . . تضاعف إحساسه
بالخديعة . . كلهم كانوا يعرفون إلا هو . . لكنهم ابرياء من الدم إلا هو . . ومثل المرة
الأولى أقسم الجميع أن أبا الطيب هو الذى فعل هذا . . كل الأمر من تدييره . . صرخ
وسط الشوارع . .

- هل كانا بريئين . . ؟ . .

كانت تنثر الزهر حول فراشه وكلما ضم جسدها تضوع برائحة الطيب . . كان بكر
يدعك جسده بكريات الثلج فتبعث داخله رعدة من النشاط . . صرخ وسط البيوت . .
هل كانا بريئين ؟ . . هرع إلى دار أبى الطيب وجده قد لاذ بالفرار والأثاث يتسم ابتسامه
صفراء . . لم ينس أننى صفعته وسط الناس . . أننى قلت أشعاراً أهجوه فيها . . كانت
تقبل أطراف أنامله وتقول .

- دين المرء حيث يجب . .

صرخ : لن يفلت من يدى . قال الحاكم : يجب أن توقف حمام الدم الذى تغرق
فيه . . هتف : لقد خدعوني . حمص كلها تأمرت ضدى . صعد فوق أعلى مكان ورأى
المدينة مثل قوارير فارغة قبيحة . لقد حولوني إلى قاتل يا حمص يا شرارك الصياد . ما جدوى
المراثى يرددونها المخادعون . جاء أبناء العمومة من «مزينة» وحاء الأباء من تميم وهبت ريح
الموت من الجبال . ونبت الحب من ظهر المقابر . وماتت العرلان في المنافي البعيدة . وتبدد
الزبد على حوافى الجزر الغرقى وأصبح الشاعر وحيداً . . لا يعرف ماذا يفعل ولا إلى أين
يذهب . . يا طلعة طلع الحمام عليها وجنى لها ثمر الردى بيدها . . رويت من دمها الثرى
ولطالما روى الهوى شفنى من شقتيها . .

كثير عزة نصيب الشعراء من العالم

كان «كثير» ينتظر قدوم الحوت . وكان الحوت يتثاقب في جوف المحيط . وكان المحيط متخياً بالمحار الفارغ . . فكيف انشق الموج عن قريش . وامتلأت الخيام بالطحالب وسار الحوت فوق الرمال . . وكيف جاء الموت بكل هذه الأحلام العذبة . . ؟ . .

يا عزة . . ملأ الشوق عروقي بالملح . . ودفن الرمال واحات قلبي . . وعز الطبيب والدواء . . وأنت تربيته وموتى

كان أبو الفرج الاصفهاني متنكراً في هيئة «نطاسي» مغربي . يرتدى ملفحة سوداء وعلى رأسه قلنسوة طويلة مدببة . . واقفاً يتخلل أصابعه بلحيته . كأنما يفكر بعمق ثم هتف :

- لا فائدة ، لا بد من إعادة كيه بالنار . .

وجسد «كثير» ملقى على الفراش . فرع يابس جاف . لا أثر للحياة فيه إلا هذه الأنفاس التي ينتزعها . والنيران تركت بقعاً ملتهبة في بطنه . وظهره . وجنبه . ورغم تعدد مرات الكى إلا أنه لم يفق من غيبوته المتصلة . يفيق ، يسعل بعنف ويصق ذمأ . . ثم يعاود الغيبوبة . . .

كانت قريش كلها تنتظر موت كثير . . وكان «كثير» ينتظر قدوم الحوت . . .

منذ الصباح والأسواق تبيع كل شيء . كلما زاد عدد الأمصار المفتوحة تنوعت البضائع . . جاريات الروم البيضاء . جلد الصين المدبوغ . أصباغ فلسطين . العباءات المراكشية الموشاه . فخار مصر الملون . وكانوا . . يبيعون جسد «كثير» . . . في منتصف السوق كان رجل يهتف . . .

- من يريد أن يحفظ شعر «كثير» لقاء ثلاثين ديناراً .

ازدهمت النسوة حول الرجل . اختلط صوته المؤثر بتأوهات «كثير» . . كانت قصة الحب قد أصبحت مبتدلة تماماً من طول التكرار . . لكن النساء كن يبيكين . كلما زاد أعراض عزة . وشموخ أنفها . . ازدادت حرارة التأثير . . وتمنت النسوة لو يكف «كثير» عن التأوه قليلاً حتى يحسن الاستماع . .

وأعلن آخر عن بيع رداء «كثير» . رداء ممزق قصير . قدر . إختطفه الرجل ذابت مرة من فوق كتفيه ولم يشأ «كثير» أن يلتفت نيهماً وتكبيرا . وافتتح الرجل حول الرداء مزاداً صغيراً ما لبث أن رسي على أحد الخدم الذي اشتراه لحساب سيدته . . .

وكان هناك من يبيع صندله . ولفة عمامته . وقميصه . ورقاً من الجلد فيه أبيات من قصيدته ومكحلة وقنينة . . ونجح أحد الحلاقين في بيع لحية صغيرة مدببة وصدق الشاري أنها لحية «كثير» بالفعل . . قلب مساعد النطاسي الكرات النحاسية فوق الحجر حتى اكتسبت لونه المتقد . . أسرع آخر في تعرية جسد «كثير» نهائياً . تلقف أبو الفرج الكرة النحاسية بواسطة الملقط في مهارة فائقة . . بحث عن بقعة من الجلد لم تحرقها النار بعد . ثم ألصق بها الكرة في حركة مبالغته . صرخ «كثير» . . أصدر اللحم المحترق صوتاً ورائحة ثقيلة . تقلصت ضلوع الصدر البارز . صرخ «كثير» من خلال الغيبوبة . . .

يا عزة» . . .

الأم ماء نبع ينبثق من اغوار عميقة ؛ كأنها الصحراء غضبي . وكأنها عزة معرضة . كانت تجلس على الطرف الآخر من عين الماء . صبية صغيرة بهبة الحسن . تمد يدها فتتهطل السماء بالمطر الخزير . ولا تجود هي بابتسامه . تهمس . . أنت أقصر مما ينبغي . . لو أحبتك لعابرتني بك صوبمجاتي . . وتمضى . تغرس في كبده سهاماً صغيرة ملونة . وتتركه يتلوى من التزيف .

« وان أك قصراً في الرجال فاني . .

إذا حل أمر ساحتي لطويل . . » .

وقال الطبيب مستغرباً . إنه يبتسم . كأنها يستعذب الكى . كانت عزة تضع أناملها على جبهته . تهمس مدهوشة . من الذي يصدق أنني سوف أحبك مثل حبك لي . . ؟ . . كانت في الصحراء بئر بعيدة . إذا شرب منها عاشقان لا يفترقان . ذهباً يبحثان عنها وسط الشعاب فضلاً الطريق . وعندما وصلها كان وحيداً . وكانت عزة قد تزوجت من رجل آخر ؛ لا يقول شعراً . . ولا يجلم ببئر المحبة . . لكنه طويل عريض . . فحل . . مثل كل الرجال . . .

دق النطاسي أبو الفرج الأرض بقدميه مثل طفل غاضب . . صرخ :

- لا فائدة . كل مكان في جسده أصبح محترقاً تماماً ولا يريد أن يكف عن السعال ويصق الدم . اللعنة على الشعراء . متعبون وهم أصحاء ومتعبون وهم مرضى . .

أحست قريش أنها سوف تفقده . ودخلت صرخته البيوت وهزت أوتاد الخيام ، وجاء الموت ممتطياً غيمة سوداء . خفت الضجة في الأسواق . شعر التجار بالخجل والصيايا بالحسرة . ولم يكن «كثير» إلا حالمًا . لا يعتد بوجوده المادى . كان صغيراً دميماً . يقسم الذين يعرفونه أن طوله لا يزيد عن ثلاثة أشبار . وكانت عزة إذ تحس بحبه لها يمتزج ذلك بشعور حاد من الخجل . وكان «كثير» لا يكف عن السير وحيداً في الصحراء ، وذات مرة خرج عليه فارس مصنوع من النحاس . وقف في مواجهته . طويل . عريض المنكبين . لكن ملامحه النحاسية هي نفس ملامح «كثير» . . . قال له . . .

- أنا قرينك من الجن . . جاء أوانك حتى تقول الشعر . .
وصهل الجواد فأحس بالسنايك تدق صدره . إختلطت دقاته الهائجة مع وجيب القلب وكان الرمل ساخياً والشمس قاسية . ومهض من إغماءته وتكلم فكان الشعر . وكان حلم الحياة المتجدد وامتد النحاس داخل عروقه . . واختلط الدم بالكلمة . . ياريفقى يا أختى الجن . . فى أى الكائنات . هب لى حب عزة دون خجل .

كان يرعى الغنم . مر بنسوة من بنى ضميره كن يتضحكن ويشرن إلى قامته . لم تكن تتجاوز ظهور الخراف . . شعر بالحنق نحوهن . . كانت السخرية تفقده الثقة فى فارسه النحاس . . قال لمن . أين أجد الماء لأسقى غنمى . . ؟ . . أخرجن له فتاة صغيرة سارت أمامه حتى ترشده للبئر . سأها . . ما أسمك ؟ قالت : عزة . ورمقته بنظرة خجلى . فكر أنها خالية من السخرية وكان ماء البئر أزرق كوجه السماء . لم يعرف لون عينيتها . كانت مجرد فتاة صغيرة . جعدة الجداول . فمها صغير ، حين تضمه تبدو مثل الأميرات . . قال لها . . هل أقول لك شعراً ؟ قالت : لا أحب الشعر . كانت مجرد فتاة صغيرة . . قال : ما اسم أبيك ؟ قالت : لا شأن لك . هذا هو الماء فأسقى غنمك . وتركته يتطلع فى أمرها . ثم عادت تحمل بعض الدراهم ، قالت : تقول لك النسوة بع لنا كبشاً وسوف نرد لك بقية الثمن فى طريق عودتك . توثب من الفرح . انتقى أجمل كبش فى قطيعه وطلب منها أن تحتفظ بالدراهم . وإن تنتظر عودته . وأخذت عزة الدراهم . وسأقت الكبش دون كلمة شكر واحدة . كانت مجرد فتاة صغيرة . ورحل للتلال . كانت النجوم فى متناول اليد . والسحب قطع من الزيد المتناثر . والشمس وجه عزة . وعاد بعد ثلاثة أيام . وجد النسوة بنى ضميرة كما تركهن . قلن : خذ دراهمك . . قال لستن غريماتى .

قلن : فمن أذن . . قال كأنه يحلم : عزة غريمتى ولست أقتضى حتى إلا منها ضحكن فى صوت عال . قلن : ويحك . عزة جارية صغيرة وليس فيها وفاء لحقك أحله إلى احدانا ونحن أقدر على الوفاء . لكنه كان يريد عزة . فقط عزة . مثل حاجته لشعاع من قمر بعيد . . .
قضى كل ذى دين فوى غريمه . .
وحين عزة ممطول معنى غريمها . . .

ظل يروح ويحيى أمام خباتهن . وهن يتضحكن على فامته التي تطاول الأغنام . وهو يقول شعراً . والنحاس يتمدد داخل عروقه . كنفن عن الضحك . أخذن ينصتن في إنبهار حقيقى . ذهبن إلى خباء عزة وأخرجنها . كانت مجرد فتاة صغيرة غضبى . تسبه وتسبهم . لا تريد أن تخرج ولا تحمل أدنى فهم لأشعاره . حتى أن نجومه المتوهجة أصبحت أحجاراً . ومضى الشاعر القصير البالغ الدمامة مفرداً . ولكن كان مقدراً لها أن تنمو وتكبر وتفهم الشعر . . وأن تحس بالفخر لأن كل هذه القصائد قيلت من أجلها . . ولأن الشاعر الذى تهوى الملوك مديحه يغر صريع لمسة واحدة من أناملها . وهكذا ينمو الحب . زهرة وحشية ومزيج من الخجل المؤلّم والزهو الكاذب . .

توصل النطاس أبو الفرج إلى فكرة عبقرية . هتف بالمحيطين به . .
- سوف نقتطع قطعة من جسده . إن الألم الذى سيحدثه الجرح كفيلى بإيقاظه من إغماؤه الطويلة . .

أحضر مساعده سكيناً صغيراً مدبباً . أمسكها أبو الفرج بنفس المهارة وطعنة صغيرة . فتح كثير عينيه . كانتا حراوين قانيتين . ضرب أبو الفرج الأرض بقدميه فى سرور : ألم أقل لكم . . أنا جالينوس العرب وبعث الحركة فى أرجاء قريش وابتسمت الصبايا الصغيرات . وواصل التجار البيع والفصال فى ارتياح . وطلب «كثير» قطرة من الماء . لكن النطاس أخبره فى حزم أن جسده ملء بالحروق وأن الماء معناه الموت . قال «كثير» . . .

- سوف أرحل . سياخذنى الحوت الأسود فى جوفه لمدة أربعين يوماً . . ثم أعود .
أولد من جديد . . هكذا قدر لى . . كأننى أقرأ الآن لوحى المحفوظ .

واغمض عينيه . وعبثاً وخزه النطاس ليقظه . أخذ يهذى عن يونس بن متى والأمام المنتظر . . وعزة ؛ كانت جالسة فى خيمة بعيدة بينها صحراوات مفقرة . وحبال محبة متقطعة . كانت ترب اللبن فى زق من الجلد . وتفصل عنه السمن . وتغسل ملابس زوجها وتعانى من اضطرابات الهضم التى تصاحب الحمل . يسألونها عن الأشعار التى قالها «كثير» فيها فتكتشف أنها نسيت معظمها . كان الحب اغماؤه قصيرة تبعثها يقظه قاسية . تدخل على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فيهتف مدهوشاً . أنت عزة كثير . ما الذى أصعبه منك ؟ . . ردت على الفور . أعجبه متى ما أعجب المسلمين حين صبيروك خليفة . . وسكت الخليفة بعد أن أدرك سلاطة لسانها . وفى أحد مواسم الحج طلب منها زوجها أن تأتبه ببعض السمن . . طافت بين خيام الحجيج تسألهم . حتى دخلت إحدى الخيام فوجدت أمامها «كثيراً» . . لم تكن تدرى أنها خيمته . ولم تكن تدرى أنه مازال على قيد الحياة . كان جالساً يبرى سهامه . وذهل حين رآها ترفع طرف الستر وتدخل . أخذ يبرى أصابعه بالسكين . والدم ينفجر شوقاً ورغبة عاجزة : جلست بجانبه تضمد جراحه . تقول له كلمة من كلمات العزاء . أى عزاء يقال للموتى . ولم تنسى أن تأخذ زق

السمن الوحيد الذى كان يملكه . . وبعد أن تناول زوجها غذاء دسماً . . اكتشف آثار الدم الموجود فوق الزقى . وثار ثورة عارمة كما يليق بزواج شهيم ، وكان الإنكار مملأً فقصت عليه ما حدث . وصمم الزوج أن تمضى معه إلى خيمة «كثير» ونسبه . وكانت تعانى من صداع مستمر . وتمقت المجادلة فنهضت معه . ذهبت إلى «كثير» ، لكزها زوجها فتقدمت خطوة وصرخت فى وجهه . . .

- يا ابن الأئمة . .

وانصرفت . ونفخ الزوج صدره ومضى مختالاً كالطوارس . . كان الأمر صبيانياً . ما جدوى طعنة اضافية والقلب تكاثرت عليه الطعان . . لم يبق إلا الحلم . . المهرب الأخير . . .

- « بعد اربعين يوماً من موتى . . سأعود على فرس عتيق » .

كان الحلم هو التعويض عن كل الآلام . والجراح التى لا تكف عن النزيف . والسخريات اليومية . . كان يحلم بالبعث . بالرجعة فى صورة أكثر بهاء وشباباً . يكون فيها فارعا عنيدا كقفارس . قويا جوادا كسيد . مهيبا شديدا رهبة كملك . لن تكون عزة ذلك الحبيب الخجل البعيد المنال . سوف تفخر بين أصحابها . وسيقف الملوك كالشعراء الفقراء يتلقون عطاياه . . وسوف يصبح العالم أكثر جمالا وبهجة . لا يكون فيه شيء قبيح أو مثير للسخرية . .

دخول على عمته العجوز فطرحت له وسادة يجلس عليها . . قال لها . .

- أنت لا تعرفينى . . ولا تكرمينى حق كرامتى . .

دهشت عمته . . أخذت تذكر اسمه . ونسبه . . لكنه قال فى إيجاز . .

- أنت لا تعرفينى . . أنا يونس بن متى . .

لم يكن بمنوناً . ولكن لم يكن هناك بد من انتظار الحوت . حين يصل حب عزة لهذه الدرجة من القسوة والتباعد ، فلا بد أن يبتلعه الحوت ويلفظه من جديد . لعل هناك أملاً ما . وحين يعجز الأمويون عن إقامة العدل على الأرض . فإن الشيعة هى حلم الخلاص . ودم أولاد الأنبياء الذى سال فوق سهل كربلاء هو قربان العدل المفتقد . سوف يلتهم الحوت كل شيء . زوج عزة أولاً . وقصور الأمويين . والشعراء الذين يسخرون من قصر قامته . ويترك العالم خالياً ليبيشر الأنبياء الصغار بدعواهم . . لعل عزة تحمل له ولو قليلاً من الحب . . تعطيه قبلة واحدة . . كانت عزة تستأذن فى الدخول على زوجة الخليفة أم البنين . . سألتها . . .

- يقول «كثير» فيك . . .

قضى كل ذى دين فوفى غريمته

وعزة مطول معى عريها . . .
ماذا يقصد بتلك المماطلة ؟ . . .
قالت عزة . كنت وعدته بقبلة . . .

قالت أم البنين . . إعطينها وعلىّ ائمة يوم القيامة . .
كانت قبلة الموت أشد برودة واصل النطاسى المتشح بالسواد نخزه . لكن الجسد
كف عن الاستجابة . تكررت الجروح دون تقلص . أخذ حلمه واطوى عليه . صعدت
امراً إلى سطح البيت وناحت بصوت عال :

- يا ولداه . . مات «كثير» . . .

وتلون الجسد بالزرقة . . بدا مليئاً بالثقوب والدم الجاف والدوائر المحترقة .
بكت البنات الصغيرات فى صوت خافت خوفاً من آباءهن . إرتعدت الأغنام .
وإستيقظ الحوت مفزوعاً من أعماق المحيط . لكنه لم يكن يعرف الطريق للصحراء .
توقفت أصوات الفصائل . وخرجت قريش كلها من المضارب والبيوت . توجهت إلى
داره حيث يرقد الجسد المتهرىء . هز الطبيب كتفه بلا مبالاة . كانت عزة بعيدة . كأنها
لم توجد أبداً . . كيف توجد وهى لم تعط سوى المزيد من الألم . وكأنها تضاعف عدد
الناس . وإختلطت صيحات الاستغراب والتكبيرات . ولملم الشيعة أطراف عباءاتهم .
وأخذوا يدفعون الباكين :

- اذهبوا بعيدا يا أوصار أمية . . بالامس قتلتم الأنبياء . . واليوم تقتلون الشعراء .

ونهنه شيخ عجوز من الكيسانية

- سوف يعود . ستسمع قريش وقع جواده . . سيعود مع الأمام المنتظر . .
وكانت النسوة المتشحات بالسواد يمتشدن فى الطرق . رغم أنوف أهلهن . وإرادة
أزواجهن ويحتمعن فى رثاء متصل . يا ولداه . . يا ولداه

جاء أولاد حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . . يحملون رغم صغر سنهم سمات
آل البيت . حيث تختلط القداسة بالعدوية . جلسوا أمام بيته فى صمت . هل كانوا ينتظرون
نهضته ؟ . . أن يقف بين أيديهم ويلقى أشعاره فى رثاء كل صرعى العدل من آل البيت ،
ويضع بين أيديهم كل ما أعطاه له بنو أمية من عطايا . ويقبل أيديهم . لكن جسده مازال
ملقى . جمع النطاسى أدواته ومضى . جاء الغسالون . حملوا جسده بحذر شديد حتى لا
تتهشم أعضاؤه . . وعندما وضعوا الماء عليه ازدادت زرقة كأنه قطعة من المحيط
البعيد . وتمتم الغسال مدهوشاً لم أر جسداً كهذه الزرقة . كأنه طفل سماوى . وواصلت
عرة رب اللبن . شاهده يتخثر ويتحول إلى قطع داكنة . تذكرت بيتاً من الشعر قاله «كثير»
ذات مرة . . وقد زعمت أنى تغيرت بعدها . . ومن ذا الذى يا عزلا يتغير ؟ تساءلت . ما

الذى ذكرها . بهذا البيت الغريب ؟ لم تهتم وظلت ترب اللبن . ويبحث حفار القبور عن مكان لائق فلم يجد إلا تلا مفرداً عليه صبارة وحيدة . سأل زميله عن إتساع الحفرة . . قال له : أحفر ثلاثة أشبار فقط . . هذا كل نصيبه من الأرض . وامتلات كل الساحات بالناس . وقف الأمويون والشيعية والكيسانية والخوارج - كل من فرقتهم الحروب الأهلية والثارات القديمة - جنباً لجنب ، ولف الجسد في قمصانه القديمة . ثم في غطاء الفراش وكان أبو جعفر محمد بن علي بن أبي طالب في طرف المدينة يحاول اختراق جمع النسوة حتى يتصدر الجنازة . وأخرج الجسد أخيراً . وصرخت النسوة ينادين عزة . لعل الصوت يعبر الفياق المقفرة . وأخذ أبو جعفر يدفع النسوة وهن يذاهنه . ضربهن بكمه وصرخ .

- تنحين يا صاحبات يوسف . . .
وقفت امرأة في طريقه وقالت :

- صدقت يا ابن بنت رسول الله - وإنا لصوايحات يوسف . وقد كما حيرا منك
له . . .
نظر إليها في دهشة . . واصلت هي قولها :

- نحن دعوانه للذات من المطعم والمشرب والتمتع والتنعيم وأنتم معاشر الرجال
القيتموه في الجب ويعتموه بأبخس الأثمان وحبستموه في السجن . فأينا كان أحسن
عليه . . .

وإبتلعها طوفان النسوة الأسود . تاهت في الزحام . لمس أبو جعفر النعش فأحس به
حاراً كأنما يوشك أن يبعث . كان الرجال يحملونه للقبر . . والنسوة يحكين قصة حبه .
عمره الحقيقي . . كان الرجال يسخرون من شكله . يخطفون عاءته ويؤلفون فيه أشعار
الهجاء . ويسفهون كل أحلامه وكانت النساء يرددن اشعاره . ويبس قلبه نبضاته الأخيرة
ويكون بملاسهن السوداء حوتاً هائلاً ينتشر على الرمل الأصفر يوشك أن يعيبه في جوفه
ويخرجه بعد أربعين يوماً . شاباً . قوياً . لم تر قريش من هو أجمل منه . . .



وضاح اليمن الموق يكتمون السر

غفى الوليد بن عبد الملك يوماً وهو جالس على العرش فحلّم بصحراء جافة قاحلة وأنه يقود قافلة عطشى . كلّمها وجدوا بئراً كان مسموماً . كانت الحيوانات تنفق والشمس لا ترحم . وأخيراً وصلوا إلى بئر عذب . أخذ الخليفة يلهث وهو يجذب الحبال الطويلة حتى صعد الدلو والماء يتألق فيه . لكنه ما أن مد فمه ليشرّب حتى فوجىء برأس مقطوعة تملأ الدلو والماء يتألق فوقها . . لم يتعرف على الوجه . لكنه ظل يصرخ حتى استيقظ .

جمع الخليفة الفقهاء والحكّماء وسألهم التفسير . عبثوا في الحاهم وبشروا الخليفة بكل أنواع الانتصارات على جميع الأعداء . لكنه عندما مضى إلى غرفته تذكر الوجه فجأة وتذكر أنه يعرفه . قال لنفسه . .

- إنه وضاح . .

لم يكف الامويون أبداً عن الحلم بهذه الأحلام الدامية . . كلّموا ترامت الدولة وتوالى الخلفاء وازداد الاتباع والقصور . وربت جزية الأمصار المفتوحة . إزدادت التركة المثقلة مدم أولاد الأشراف والصحابة والمنشقين والشعراء . كان هذا مخاض الدولة . مخاض قسرى في أغلب الأحيان . ذلك الصنف من الرجال الذين بنوا الدولة كانوا بالغي القسوة وبالغي الخنكة أيضاً . أقاموا دولتهم في مواجهة تحديات الهيمنة الدينية والروح العشائرية لأنهم كانوا الأقدر على فهم ظروف العصر . وكانت وسيلتهم الأساسية هي نقل الصراع الداخلى الذى كان يستنفدهم دون طائل إلى صراع خارجى في مواجهة امراطوريات العالم القديم ، حتى أن دولتهم إمتدت من سهوب آسيا حتى شطآن أفريقيا وأطراف أوروبا . من أجل ذلك ضربوا بكل قسوة على أى انشقاق داخلى . .

كان مركز الثقل قد ارتفع مع المد الجغرافى من الجنوب إلى الشمال في دمشق . وظلت

الصحراء هي موطن الكارثة الأولى . تهب عليها ريح السياسة وتنحسر وتترك خلفها الكثبان ساكنة والمضارب منصوبة وكل شيء يبدو - للوهلة الأولى - على حاله . لازال الشعراء العذريون يلفظون أنفاسهم لقاء لحظة من العشق . والقبايل تتداول قصائد التشبيب وقصص الحب بنفس الاستمتاع . فإذا اجتمعت واحتاج الأمر لموقف رسمي تقاعس الجميع ووصفو الشعراء الغزليين بأقبح الصفات . . حتى أنه لم يوجد في الجزيرة من لم يحفظ شعر عمر بن أبي ربيعة ، ولم يمنع هذا قائل أن يقول :

- ما عصى الله قط قدر ما عصى بشعر عمر بن أبي ربيعة . .

وكان وضاح اليمن أحد هؤلاء الشعراء . .

شاعر غزل . إجتلمعت فيه كل صفات العصر المتطرفة . . شعر رقيق بالغ الرقة . وحسن فائق . ونهاية مأساوية . حتى أن طه حسين يشك في وجوده أصلاً . ويعتقد أن الخيال اليمني هو الذي ابتكره في مواجهة السيطرة الحجازية . .

كان مولدًا . الأب عربى والأم فارسية من أتباع جيش الفرس الذي قدم لليمن لنصره سيف بن ذى يزن في صراعه مع الأحباش . وهو صغير ثار نزاع حول نسبة . . هل عربى أم فارسي ؟ وعندما ذهبوا إلى أحد القضاة العرب ، راعه جمال الصبي فهتف وهو يمسخ على شعره . .

- أنت وضاح اليمن . . ولست من أتباع ذى يزن . .

واشتهر بهذا الاسم . .

كان اشبه بـ «أرفيوس» عربى بالغ البراعة . يجل حيث لا مكان . يهتف بالأشعار فيهتز إيقاع الزمن . ويظل يجوب الجزيرة طولاً وعرضاً مثل قطعة سحابة تحشى الدوبان . كانت الدولة تتسع والأماكن الحبيبة تفقد الفتها . يتكاثر عدد الأمراء وقواد الحرب وملاك الأرض . والسكاكين قد أعدت - كما هي العادة - لاغتيال الشعراء . ومثلها أحاط الشك بمولده . . أحاط الشك بموته . .

أصدر الخليفة أمرا أن يرتدى وضاح اليمن واثنان كانا معه من أجمل فتیان الجزيرة العربية أقنعة فوق وجوههم حتى لا يفتن نساء المسلمين في موسم الحج ويذهب حجهم باطلاً . وعندما إرتدوا الأقنعة لم يكن ظاهراً إلا العيون التي تتألق مثل جمر النار . . ولم تحجب الفتنة . .

في بواكير الشباب . عندما كان الشعر طازجا . أحب فتاة إسمها روضة . . إشتهرت باسم روضة الوضاح . فتاة يمنية حسناء . والحب ينصب الشراك عند عيون المياه العذبة في المضارب بعد أن ينام الأهل ذوو السيوف الحادة . لكنه مثل عادة كل الشعراء المتأججى

المشاعر أخذ يقول القصائد يشبب فيها . يصف اللقاءات المختلطة حتى طارت أنباء الغرام
الجديد وعرفه الجميع . .

تقدم وضاح إلى أهل روضة يطلب يدها رسمياً . لكنهم كانوا يحفظون الشعر . وكانوا
غضبي . وثارَت تلك المخاوف التقليدية من أن يؤكدوا بقبول الخطبة صحة ما أشيع .
نفس الموقف الذى وجد فيه الشاعر التمس قيس بن الملوح نفسه . لا يستفيد العشاق أبداً
من تجارب بعضهم البعض . لذلك تتكرر المأسى بنفس الصورة . . وهكذا . . رفض أهل
روضة . . بل وأسرعوا بتزويجها لرجل آخر . .

كان رد فعل وضاح اليمن معاصراً فقد أغرق نفسه فى الخمر . وفى مجموعة أخرى من
النساء . . يتراوحن بين بنات الأسر الشريفة وبين الجوارى الخادمات . . وكان حب روضة
هو حزن وحدته الليلية . وعندما أخذها الزوج الجديد ورحل . ظل هو يتابع القافلة حتى
غابت وراء الكثبان وعاد وحيداً يقول أشعاراً فى عشق الجوارى السود . .

لم تنته قصة الحب عند هذا الحد . ذات ليلة جاء رسول إلى وضاح وأخبره أن روضة تود
أن تراه . لم يصدق أذنيه . وسار وراء الرسول ثلاثة أيام وثلاث ليال عبر فيافي موحشة لا
تسكنها إلا الضباع . وطوال الطريق ظلت الغربان يعيونها الجائعة . تراقبها وتتنظر كان
الرسول لا يتحدث كثيراً . وعبثاً حاول وضاح أن يعرف منه كيف جاءت روضة إلى هذا
المكان الوعر وماذا حدث لزوجها . وأخيراً توقفوا عن الرحيل . . وهتف الرسول به :

- سوف تكون روضة فى إنتظارك . .

كانت هناك خيام بائسة . . وأكواخ خشبية متكسرة . . وأوان للطعام . . وبقايا
عظام . . ورائحة عطنة تغمر كل شيء . . وإستدار وصاح ففوجيء بالحقيقة المرعبة . .
كان فى وادى المحذومين . حيث تعزل كل القبائل المرضى الذين حلت عليهم اللعنة . .
ينتظرون الموت البطيء . .

كانت روضة تقف أمامه . . تحت الشمس الساطعة . والجذام يأكل الملامح التى
عشقها . البقع البنية السوداء لا ترحم . . تزحف وتنتشر . بدأ الشعر الفاحم يتحول إلى
اللون الرمادى ثم يتساقط . والعضلات تتقلص . والرياح إذ تلمسها تغدو مسمومة قالت
باوضاح . . أنا أموت . وفى صمت وضع ما يحمله من مؤن بينه وبينها وأسرع بركوب
جواده من وادى المحذومين للاحقه صوتهما تنادية لكن الحب القديم كان قد تحول إلى
كابوس . .

عاد للناس الأصحاء أكثر عزلة وخوفاً . الحلم أكله الجذام . وبصمة الأصابع السوداء
فوق در شيء . يرثى لها ويستحم فى اليوم أكثر من مرة . . ويخاف من ملامسة
الآخرين

حان موعد الحج . . وزوجة الخليفة أم البنين كانت تستعد للحج . والخليفة بعث يهدد كل الشعراء يحذره من أن يقولوا شعراً في أم البنين أو في من يصاحبها . . كانت أم البنين في لحظة قبل الغروب . تقترب حثيثاً نحو الخريف النهائى . . جاءت نمح . وتعانق الصحراء . كانت تحذيرات الخليفة تلاحقها . وذهب وضاح لموسم الحج دون رغبة أو أمل . . لكن عينا أم البنين كانت تضىء . .

ما كان أبعد هواء الشام . وما أشد برودته . بعثت إليه ذات مساء فوافاهما في خيمتها وقال شعراً في عينها . . وفي الأقمار التي تتألق على جبينها . ويبدو أنه نسي روضة التي كانت تلفظ أنفاسها في وادى المجذومين . . أما أم البنين فقد اختلطت عليها صورة الأبن وصورة العشيقي وهي ترى وضاحاً . كان عمرها ضعف عمره . وكان جماله هو الزهور التي ذلت بين أيديها والولد التي فشلت أن تنجبه . . وظل الأمر مكتوماً بينها . .

إنتهى موسم الحج . وارتفعت الجمال البأركة بأهالها . ومضى الركب نحو الشمال . وفي اليوم الثالث إنضم للقافلة فارس جديد . . وقف أمام هودج أم البنين وقال أشعاراً عن مرارة الفرة . . وحفظ الجميع الشعر على الفور . .

وعندما وصلت القافلة لدمشق كان الخليفة مشغولاً بأبناء فتح جديد . أرسل عبداً لام البنين حتى يهتئها بالوصول ووعد أن يزورها في المساء ونسى الوعد . وعاش وضاح في دمشق . .

لكن الحماسة لم تفارق وضاح فأخذ يهرف بالأشعار . وأخذت الأشعار تنتشر . ولم تكن أذن الخليفة صماء لهذه الدرجة رغم أنه كان آخر من يعلم كما هي عادة معظم الأزواج .

طلب الخليفة أن يرى وضاح . سعى أحد الشعراء الذين كانت لهم صلة بالقصر . وأوصى وضاح أن يذهب للخليفة ويمدحه في أحد قصائده حتى يزيل الريبة من قلبه . . ذهب وضاح . وقف أمام الخليفة . وتلقى الرجلان للمرة الأولى والأخيرة . . أدرك الخليفة أن كل ما سمعه كان حقاً . وعندما خرج وضاح من حضرته . صر من بين أسنانه . .

- سوف أقتله . .

لكن ابنه عبد العزيز بن الوليد . نهض واقفاً . .

- يا مولاي . . إن قتلته فضحتنا . سوف يقول الناس أن الشائعة صحيحة . . وأنا قتلناه انتقاماً .

قال الخليفة بحق متزايد : سوف أقطع لسانه . .

- سوف نجعله يذهب بعيدا عندئذ تموت الشائعة . .

هذا الخليفة بعض الشيء . لكن وضاح لم يهدأ . ظل يقول الشعر ويتخفى يلبس زى امرأة ويتسلل إلى القصر كلما حل الظلام وذات يوم وقع الذي لا مفر منه . جاء إلى القصر تاجر مجوهرات يهودى فاشترى الخليفة منه بعض الزمرد وأعطاه للغلام حتى يذهب به ويعطيه لأم البنين . حمل الغلام الجواهر ودخل الغرفة فجأة ، فقفز وضاح إلى أقرب صندوق وأختبأ فيه .

ويأدب جم أعطى الغلام الجواهر . فتقبلته شاكرة فضل الخليفة . لكن الغلام ظل واقفاً . . وتطلعت إليه متسائلة . .

- الك حاجة . ؟ . .

قال الغلام بهدوء . .

- أريد واحدة من هذا الزمرد .

فهمتت زوجة الخليفة بغیظ . .

- لا عليك اللعنة . .

حرج الغلام من عندها وذهب للخليفة وروى له كل شيء . وكان الخليفة أكثر حنكة وتفهماً للأمور : بدا فاتهم الغلام بالكذب وأمره فذبح . وأمر الجند فمروضوا حصاراً حول القصر لا يدخل ولا يخرج أحد . ثم سار إلى غرفة زوجته . كانت جالسة أمام المرأة تتزين في هدوء تطلع . . حتى وجد الصندوق الذى أعطاه الغلام أوصافه فجلس عليه . سادت فترة من الصمت الثقيل . . ثم قال الخليفة . .

- هل اعجبك الزمرد . . ؟ . .

قالت : ما تعطيه هو فضل منك يا مولاي . .

- ألا تعطينى شيئاً مقابله . . ؟ . .

- كل شيء ملكك يا مولاي . .

صمت قليلاً . مسح أنفه . أشار للصندوق الذى يجلس عليه . .

- اريد هذا الصندوق . .

قالت بفرع . ولكن . ثم صمتت . وبدأ وجهها بالغ الشحوب . قال الخليفة . .

- ولكن ماذا . . ؟ . .

- فيه ثياب وأشياء تحصى . .

- سوف أعرضك عنها ..
ولم يكن أمامها مهرب : فإستسلمت : هولك .

صفق الخليفة فجاء الخدم والأتباع . أمرهم فأزاحوا طرف السجادة . وأمرهم فحفروا
في الأرض حفرة واسعة . ونهض من فوق الصندوق . وأمرهم فحملوه . وضعوه في الحفرة
وأهالوا عليه التراب .. وسوا الأرض .. وأمرهم فارجعوا السجادة إلى مكانها .. وقف
فوق السجادة وقال ببطء ..

- يا هذا لو كنت كذبا فما دفنا سوى الخشب . ولو كنت صدقا فقد أرحتنا
واسترحت .. ومضى ..

يقولون إنه لم يناقش زوجته في هذا الأمر أبدا .. وأنه لم يمس فراشها حتى مات ..
ويقولون أن أحدا لم يرو ضاح اليمن منذ هذا اليوم ..
لقد علم الموت وضاحا أن يكتنم السر ..



قيس بن ذريح الطلاق . . أو الموت

كلفت خوص البحر والبحر زاحر يقولون لبني فتنه . كنت بخير قبلها فلا تندم عليها وطلق . فطاوعت أعدائي . وعاصيت ناصحي وأقررت عين الشامت . كأنى أرى المحبين كلهم عصاره ماء الحنظل . وهل الحب إلا زفرة بعد وفيض دموع تستهل إذا بدأ . يالبي قلبى فى هواك سقيم . تتوق إليك النفس وأردها . أرواحنا فى الليل تلتقى ونعلم أنه بالنهار نقيلاً ، إذا طلعت شمس الصباح فسلمى فأية تسلمى عليك طلوعها . تعلق روحى قبل خلقنا ومن بعد كناطافا . وفى المهدي . ومن يعلق حب لبني فؤاده . يمى . أو يعيش كما عاش سقيم . إلى الله أشكو ما أتى من الهوى . . وليل طويل الحزن غير قصير . إلى الله أشكو فقد لبني كما شكنا إلى الله فقد الوالدين يتيم . .

هذا قيس بن ذريح . وهذه نثار قصائده . طائر صحراوي يموت . . ممتلىء القلب بالحب والندامة . . رسالته الأخيرة إلى لبني . . هديان وبعض الأشعار . . كان العذاب شاقاً على قلبه . . هو الجاني . . وهى المجنى عليها
من منبها أشد عذاباً . . ولبني تسمع رسائله هون أن تصدق . . تقول بلا مبالاه . . ما أراه إلا كاذباً فيما يدعى . . متعللاً كعادته . لكنه لم يكن كعادته . لم تعد تجديه التعللات . . ماذا يفيد المسافر من حصى الطريق . . وكل ما ينتظره رساد بارد . . مقبرة للعصافير المحتضرة . .

يبدأ الحب زهرة سرية . تنفتح فى نطاء . وتذوى سريعاً . ولا تبقى سوى الذكريات . . كان قيس يتذكر لحظة التفتح الأولى . . وهو يسير عبر مضارب بني كعب والحى نخال من الرجال . . وعيون النساء ترصده من خلف خيامهن . كن جميعاً يعرفنه ويكفى أن أباه ذريح أغنى أغنياء المدينة . . وقيس سيد حقيقى كما يجب أن يكون

السادة . . فارس . . شاعر . . وبنو كعب قبيلة فقيرة . . تقع بظاهر المدينة وتعيش على
فنائها . .

أحس بالعطش . وقف بالمصادفة أمام خيمة . مجرد خيمة صغيرة لا يميزها شيء عما
حولها . . وقف صامتاً . . كل ما فعله هو أنه رفع يده وأشار إلى فمه وانتظر . ثم سمع
صوتاً واهناً . . والتفت فراها واقفة . . ساحرة الوجه . مديدة القامة . . ولكن عينيها
كانتا زرقاوين . . قطعة من زرقه السماء . . بحر حقيقي عميق الغور فيه دعوة ملحة
للغرق . .

شرب قذح الماء الذى قدمته له وظل عطشان صادياً . حملت إليه كوباً آخر . . وأدرك
أنه لن يرتوى أبداً . . إبتسمت وقالت . .

- أتنزّل فتبترد عندنا قليلاً . ؟ .

نزل إليها ، سألها عن اسمها . . قالت . . لبنى بنت الحباب . هتف مبهوراً . . لم أر
في الصحراء عيناً بهذه الزرقه . . حدقت فيه بلا خوف ويادلته الكلمات . . كانت الشمس
تواجه وجهها وتغير لون عينيها . . كل لحظة لون جديد . . ونظرة جديدة . . تضع أمامه
طبقاً من النجوم الملونة . . وجاء المساء دون أن يشعرا . عاد الرجال إلى الحى . وإنسجبت
لبنى إلى خيمتها . وعاد الحباب الكعبي فرأى جواد السيد يرعى . . ووجد السيد نفسه
ذاهلاً . . وحين إكتشف أنه ابن ذريح شخصياً إزدادت درجة ترحيبه . زعق في أهل بيته أن
ينحروا للمضيف . وأفاق قيس ليكتشف أن الذى يحدثه هو اب . . وليس لبنى . . يتحدث
عن جذب البادية . وشمح الأمويين . وحق الحسين الضائع . كان الحباب يعرف جيداً أن
قيساً والحسين بن على قد رضعا معاً من أم واحدة . .

عاد قيس إلى المدينة يهرف بالأشعار . يصف سماء الحب التى يخلق فيها . يجمع أشعة
الشمس الغاربة ويضعها في قلبه ليظل مضيئاً طوال الليل . يتحدث عن عيون لبنى وسفرته
الطويلة فيها . وانتشر الشعر كالعطر . . وظن أصحابه أن هذه صبوة جديدة من صبوات
الشاعر . . لكنه كان جاداً . . لا ينام . . ولا يسلمو . . وسار إليها للمرة الثانية . وقف أمام
خيمتها فخرجت إليه مبتسمة . دعتة للنزول . . كانت قد سمعت كل ما قاله من شعر .
أبوها كان غاضباً وأمها عاضبة . لكنها كانت راضية . ترسم الكلمات في قلبها أخاديد
رائعة من النشوة . سألها قيس . . أتقبلين الرواج منى ؟ . قالت ضاحكة . . أسرع قبل أن
يزداد انتشار الشعر ويزداد غضب أى . .

عاد إلى أبيه . كان يحصى أرباح تجارته ويدون أرقامها . . كل الجيوش كانت
تتحارب . . بعضها يحارب الأعداء ومعظمها يحارب بعضه البعض . . وأيا كان الفريق
الفائز فإن «ذريحاً» يربح . والتاجر الساجح لا يفرو بين القتلى والمقتولين . قال قيس . .

- إلى عاشق يا أبي ..
لم يكن الوقت مناسباً . رمى الأب أكياس نقوده وقال بسخرية خفيفة :
- العشق مفسد للقلب .. ومبدد للريح .
وكان قيس جاداً فألح على أبيه .
- لقد عزمت على الزواج ..
- أخيراً ، طالما الححت عليك . إن المصالح متداخلة والزواج هو الذى يوفق بين
هذه المصالح ..
قال قيس فى سرعة ..
- سوف أتزوج لبنى بنت الحباب بن كعب .
قلب ذريح شفتيه فى إزدراء واضح ومتمم ..
- يا بنى .. عليك بإحدى بنات عمك هى أحق بك .. وأكثر ثراء ..
- كان الأب يعتقد أنها نزوة .. نزوة لا تبيح له أن يهبط إلى مستوى بنى كعب .. وقيس
يتحدث بلغة قلبه وهى لغة غامضة لا تجيد التعبير عن نفسها .. والأب يعرض أرقامه
الصريحة ويرفض أى صفقة لا تعود عليه بكسب واضح .
- ذهب قيس إلى أمه .. وكان رفضها عنيفاً وأكثر أنانية .. كيف تقبل ، وما كعب إلا
قبيلة تعيش على فضل السادة ؟ .. وتطاييرت أنباء الرفض . الأب سخر فى مجالس
التجار .. وأبدت الأم امتعاضها فى مجالس النساء .. وكانت اهانة الحباب بالغة .. وكان
رد فعله اعلانه أنه يرفض رفضاً قاطعاً زواج ابنته من قيس لعله يسترد شيئاً من كرامته ..
- وسار قيس إلى الحسين بن على .. وحكى له ما حدث .. فنهض من فوره إلى بن
كعب .. وفوجيء الحباب بوجوده أمام خيمته فنهض وهو يهتف ..
- يا ابن بنت رسول الله .. ما جاء بك ؟ .. ألا بعثت إلى فأتيتك ..
جلس الحسين فى مقدمة الخيمة وهو يقول مبتسماً :
- إن الذى جئت فيه يوجب قصدك وقد جئتك خاطباً إبتتك لقيس بن ذريح .
وتردد الحباب .. كان الرفض أكثر من طاقته .. قال فى تردد ..
- يا ابن بنت رسول الله ما كنا لنحصى لك أمرا ، وما بنا عن الفتى من رغبة ولكن
أحب الأمرين أن يخطبها ذريح أبوه وأن يكون ذلك عن أمره فإننا نخاف إن لم يسع أبوه فى أن
يكون عارا وسبة علينا ..

كان محققاً . ويتحدث من منطلق الدفاع عن نفسه . سار الحسين إلى مجلس ذريح .
كان وسط التجار يناقشهم أهمهم أكثر مالا . . شيعه على أم الخوارج عليه . وهتف
بالحسين .

- ألا بعثت إلينا فأتيناك . . ؟
ويادره الحسين قبل أن تفتقر التحايا . .

- أقسمت عليك ألا خطبت لبني علي ابنك قيس ؟

صمت ذريح . تطلع إلى الحسين . إلى التجار . صفقة خاسرة ولكن كيف يمكن أن
يرفضها . واعترف بينه وبين نفسه أن قيساً قد أحسن التدبير . وأصر الحسين أن يتم الأمر
في الحال . وساروا جمعاً كبيراً . . الحسين والأب وقيس في المقدمة وخلفهم بقية التحار
ووجهاء المدينة . وظلت الأم كثيفة في حباثها . نهض الحباب في وجل . أسرع يقترض
السجاجيد والحشايا والأرائك وحتى صحاف الطعام . تضافر الجيران حتى يبدو سيداً وسط
السادة . ولم يمنع كل هذا ذريحاً من أن يقلب شفثيه في ازدراء . وخرجت الكلمات بين
أسنانه :

- جئتكم خاطباً ابتك لبني . . لابني قيس .
وانبهر الحباب بالمفاجأة . . فقال ببلاهة . .

- قبلنا الخطبة . . وقبلنا الزواج . . وقبلنا كل شيء . .

تم الأمر في بساطة أشبه بالحلم . تزوجاً في خيمة صغيرة على حدود المدينة . على حافة
الأفق . وجد قيس أخيراً مكاناً دافئاً بين ذراعي لبني . تسطع عليها شمس الصباح
المنخفضة . وترتعش على جسديهما تجمع حول جسده عباءة الذكريات . . كل ما قاله من
أشعار قبلها كان وهماً . . لكن الآن . . والعالم طوع يديه . حتى السحب تحي جبهتها
له . . إنه عاشق . . يدخل عيني لبني فتغلقها عليه ويسبح . . وسط المحار . . وعشب
البحر . . والأسماك الفضية . . وظل أبوه غاضباً . وأمه متباعدة . لم يزوراها . ترسب
بيها نلج الجفوة . . ذهب إليها أكثر من مرة يرجوها . ويتودد إليها . . لو يمنحانه فرصة
أخيرة يتعرفان فيها على لبني . . لعل شيئاً ما يذيب هذا الثلج . . لكنها رفضا كل محاولاته
للتقريب . .

ذهب إلى أخيه في الرضاع . . لعله يعاود التوسط . . لكن الحسين كان يستعد
للرحيل . . حان الوقت ليسترد ملكه المضيع بين أيدي الأمويين . . أهل العراق ينادونه .
والشيعه تستحثه . . كلهم يوجهونه للسير إلى بقعة صغيرة من هذا العالم اسمها كربلاء
سوف يتحدد فوق ترابها كل المصائر . . وهتف قيس . .

- سوف أسير معك .

سار معاً في طرقات المدينة . . وسط أصوات التحريض والمبايعة . . وعاد قيس ليعد ربحه وسيفه . . وإمتقع وجهه لبني . وحاول قيس أن يهون الأمر عليها . . كانت تعرف أن الحب لا يعيش وسط تحريضات القتال المتواصلة . . وفي الصباح اشتكى من بعض الصداع . . والحمى . . وألحت عليه لبني أن يلزم الفراش لكنه أصر على الذهاب إلى أبويه ليخبرهما أنه قد قرر السير . وتلقيا النبا بدعر واضح . همهمت الأم . . أما كان يكفي الزواج حتى تلقى بروحك إلى الحرب . . وهتف الأب وقد تخلى عن جموده . . سوف أرفع للحسين كل ما يريد . . وضحك قيس وأبوه يرفض أن يفكر إلا في المال . . ألح عليها أن يعوداها . . أن يقبلا زوجته . . ألا يزيدا في هذه الجفوة المدمرة . . كان يترنح متعباً . . ولكن الأم قالت في حده . .

- لقد شغلتك عن برى ،

وانسحب قيس . إرتقى في أحضان لبني وهو يهذى وفي المساء إحتقن وجهه وتفصد جبينه بالعرق . وأصبحت لبني مجنونة . . تضع له أكياس الرمل المبلل . . وتغلى الأعشاب . وتستدعى الطبيب . . وهو غائب عن وعيه . . يهرف بأشعار الحب . . ويناشد أباه وأمه . وأصبح جسده رقيقاً كورقة شجرة زاوية . . وجاء الحسين لزيارته . . وقال لجسده الفاقد الوعي . .

- كنت أرجو عونك . . ولكني أسأل الله أن يعينك على شدة المرض . .

وسار الحسين إلى الشمال . . وهبط الوباء السفح . وإعتلى التل . . وتناثرت الجثث . . كان الجو حاراً خانقاً وكان على لبني أن تذهب إلى بيت الأبوين . . رغم المقابلة السيئة التي تتوقعها . . لكن الأبوين هما اللذان حضرا . إقتحما خيمتها دون استئذان . لم يلتفتا إلى وجودها . انجها إلى جسد ابنها المسجى . . لمسا جبينه المندى بالعرق . ويكت الأم بحرقة . والتصقت لبني بالجدار وقد إلتابها شعور غريب بالذنب . وأشار الأب من خلال الباب إلى العبيد الذين كانوا يتبعونه . . إقتحموا المكان . . فردوا الأغطية ولفوا جسد قيس . . حملوه . . أوشكت لبني أن تصرخ . . لكن نظرات الأم القاسية أسكتتها . . حمل العبيد الجسد وساروا وسار الأبوان . . ولم تجد لبني بداً من أن تسير خلفها . . كانت تحبه كثيراً . . وقد وهبها ذلك قدرة كبيرة على المقاومة . .

ساروا إلى البيت الكبير . . البيت الفخم الذي لم تجرؤ لبني من قبل على دخوله . دخلته كاحدى الغربيات . . غير مدعوة . . ولولا أنشغالهم لوجدت من يمنحها . استدعى الأب كل نطاسى المدينة . انزوت هى بالقرب من سريره . . كانت هى بلسمه الأخير . . ظلت بجانبه . . قدرها أن تبقى في هذا المكان . . معشوقة ومرفوضة في الوقت ذاته وذات يوم دون أى قصد سمعتها يتحدثان عنها . . وعن قيس . . كانت الأم تقول في حدة . .

- لقد خشيت أن يموت قيس ولم يترك خلفاً . وقد حرم الولد من هذه المرأة وأنت دو مال وسوف يصير مالك إلى غير أهلِكَ . . وهذا والله لن يكون . .

وغاص قلب لبنى . . وهمهم الأب موافقاً ثم سأل . .

- وماذا تريد . . ؟ . . .

- زوجه بغيرها لعل الله أن يرزقه ولداً . .

وأحست لبنى كأنها تختنق . تتلوى وسط طرقات البيت المتداخلة . . يمتلىء قلبها بالسواد . . والجسد المريض صامتاً . . لا يملك لها حيلة ولا مساعدة . . هتفت بحرقة . .

- لا تتركنى . . لا أدري أهو ذنبك . . أم ذنبي . . ولكن لا تتركنى . .

ألقى عليها قيس نظرة مستغربة . لم يستطع التعرف عليها . . أهذه عين الحب التي رآها بها للمرة الأولى . .

نهض قيس من مرضه أخيراً . . نحيفاً . . رقيقاً . . كأنه يستعد لدخول العالم للمرة الأولى . . وجد نفسه في بيت أبيه فحسب أن الأمور قد عادت لطبيعتها . . وساعده هذا على سرعة الشفاء ولكنه كان واهماً . . كان كل شيء مؤجلاً فقط . . وكانت لبنى تعيش مأساتها الخاصة في داخلها . . كانت تترقب دورتها الشهرية في رعب بالغ الحدة . . إنها تحمل لها كل شهر نذير الفرقة والعجز عن المقاومة . . وهذه المرة فشل قيس في أن يعاود التحليق بها مرة أخرى . .

وحدثت أول مواجهة صريحة بين الأب . . وبين قيس . . قال الأب :

- يا قيس لقد اعتللت هذه العلة فحفت عليك ولا ولد لي سواك . وهذه المرأة ليست بولود . . فتزوج إحدى بنات عمك لعل الله يهب لك ولداً تقر به عينك وأعينا . . هتف قيس بلا تفكير ولا تردد .

- لست متزوجاً غيرها أبداً . .

قال الأب :

- فإن في مالي سعة . . فتسر عنها بالاماء والجوارى .

- ولا أسوءها والله بشيء أبداً . .

صرخ الأب في حده . .

- فإن أقسم عليك إلا طلقته .

- الموت والله أهون على من ذلك . ولكني أخيرك خصلة من ثلاث خصال . .

- وما هي . . ؟ . .

- تتزوج أنت فلعل الله يرزقك ولدا غيرى ..
- ما فى فضل لذلك ...
- دعنى اذن ارحل عنك واصنع ما كنت صانعا لومت فى علقى هذه ..

- لا والله .. ولا هذه ..
- فادع لبنى عندك وارثى .. لعل الحق بالحسين .. اولعل اسلوها .
- وهتف الأب فى تصميم نهائى ..

- لا أرضى أو تطلقها .

صمم كل منهما على موقفه .. ووصلت أصدااء حوارهما العنيف إلى الأم وإلى لبنى .
وسمعا سوياً الأب وهو يقسم بكل الايمانات المقدسة ألا يظله سقف بيت أبداً حتى يطلق
لبنى . وعلى الفور خرج الأب من البيت إلى العراء الواسع .. تحت السماء الصامتة ..
والصحراء المترقبة .. وقف مثل صبارة عمجوز والريح تزوم وتملأ أرويته ..
وعاد قيس إلى لبنى .. كانت ترتعد .. والقطرات الحمراء تتسلسل .. تلوث ثيابها
وروحها .. توصلت إليه ..

- لا تطع أباك .. فتهلك .. وتهلكى ..
- وقال قيس وهو يشاركها البكاء .

- ما كنت لأطيع فيك أحدا أبدا ..

كان الحسين بعيداً .. والأب بلغت به درجة العناد حتى أنه ترك تجارته وأمواله وظل فى
العراء .. فى الصباح تشرق الشمس فى نعومة .. ثم تستدير فى قسوة .. تفتح كل جروح
التلال والصحور .. وتسكن رأس الأب .. وتوصل إليه قيس أن يعود إلى داخل البيت ..
أن يرحمه ويرحم نفسه .. لكنه لا يرد .. وجهه جامد كالصخرة .. وقف قيس بجانبه ..
فرد رداءه فوق رأسه لعله يستظل قليلاً .. وإنقضى اليوم وبدأ زمهرير المساء . لم يعد يجديه
التوصل .. وحاول قيس أن يذهب إلى أمه .. لكنها رفضت أن تقابله .. كانت تحمله ذنباً
جديداً .. عاد إلى لبنى وعانقها وبكت فبكى معها . وأشرق الصباح سريعاً يحمل لهما دورة
أخرى من دورات العذاب .. الأب جالس وقيس غادر رداءه والشمس تسخر منها معاً .
لا كلام ولا تواصل .. ولبنى تترقب معجزة كل شهر . لعل القطرات تتأخر قليلاً لعله
مازال هناك بقية للأمل الضائع .. لحظتها سوف تخرج وتهتف فى قيس والأم والأب ..

- اننى حامل .. سوف أنجب عشرات الأولاد ..

لكن الأيام تمر . والأب المعجوز يتقوس تحت الشمس . مثل حبات العنب وهى
تتحول إلى زبيب جاف داكن . تضاعف عمره . وتشابكت التجاعيد على وجهه .. وقيس

يظله بالرداء حتى يسقط إلى جواره والام داخل خباياها تذوى في صمت . عام كامل من
العداوات المتصلة ..

وتأخرت قطرات الدم .. نهضت لبني في ميعادها فلم تجدها . لم تشعر بالامها أحست
بنبضات غريبة وغامضة تسرى في بدنها .. لعلها البداية .. لعل جسدها أصبح صالحاً
لدبيب الحياة في داخلها .. سوف يكون هذا اليوم آخر أيام العدايات . ستلبس أجمل
أثوابها .. وتتزين بأطيب عطورها .. وتخبئه ..

لكن الأب سقط متحسرج الأنفاس .. سال خيط من اللعاب الداكن من جانب
فمه .. وصرخ قيس . حاول أن يقيمه مرة أخرى .. وسمع صرخة أمه من الخلف ..
كان وجهها قاسياً صلباً وهي تقول من بين أسنانها ..

- أيها الولد العاق .. سوف تقتله .

تجمع الناس .. كل منهم يرمقه بنظرة إتهام صريحة .. يحاصرونه كقبضة يد قاسية ..
وهتف في أبيه يستحثه للنهوض .. ويعلن هزيمته على الملأ ..

- انهض يا أبى سوف أنفذ أوامرك .. سوف أطلقها من الليلة .. انهض ولا تحملى
وزرك ..

لم ينهض ولكن نظرة الانتصار بدت واضحة وجلية في عينيه . أسرع قيس إلى لبني ..
كانت في انتظاره مثالقة كليله عرسها .. متفتحة للحظة الحب الأولى .. لمست وجهه
الأشعث المغبر .. قبلته وهي تقول ..

- عندي لك أخبارا جديدة ..

هتف في وهن ..

- بل أنا الذى أحمل لك الأخبار .

امتقع لونها .. تراجعت إلى الوراء . وضعت يدها على بطنها كأنما تحاول أن تحميها من
خطر داهم .. وهتف قيس ..

- ساجينى . لم أستطع .. هذا أقوى مما أحتمله .. لقد طلقتك .. وأنت حرام على
منذ هذه اللحظة ..



الفرزدق .. السائر على حد السيف

* حدثني أبو الفرج الاصفهاني عنه بحماس بالغ ..
الفرزدق لقب عليه وتفسيره الرغيف الضخم الذي تجففه النساء للفتوت اسمه همام
بن غالب بن صعصعة بن ناجية ..

* حدثتني النساء عنه ناشمتراز واضح ..
كان يعشقنا . ونحن نعشق من يعشقنا . يكمل لك في داخلنا دورة الرصي
والكبرياء . ولكن خلف نظراته الشرهة كان يكن احتقاراً هائلاً لكل ما مثله . لم يكن نخاهه
كما يفعل الرجال . كانت القبائل تهتز أمام لسانه . وكنا نقاط ضعفه إن الشره أحمق
دائماً . قالت نسوة من البصرة : خرجنا يوماً إلى غدير خارج البصرة لم يكن هناك من
المخلوقات سوانا . خلعتنا ثيابنا ورمينا بأجسادنا الحارة المتعبة . كانت المياه ناعمة .
والشمس دافئة . ونحن لا تكف عن الضحك . فوجئنا بوجهه الكئيب المتنفخ يطل علينا
من فوق بغلته . فزعنا . حاولنا أن ندارى عربنا .. أن نهرب منه .. ولكنه ظل واقفاً
مبجلق العينين في نهم .. طلبنا منه الأنصراف حتى نتمكن من الخروج .. ولكنه أخذ ثيابنا
وطلب أن نخرج عاريات .. قال :

- سوف تفعلن معي كما فعلت النساء مع امرؤ القيس في دائرة جلجل ..
ولكننا بدلاً من ذلك قذفناه بالماء والطين والحصى ويكل ما وصل إلى أيدينا حتى فر
هارياً .. لقد كان امرؤ القيس أميراً حتى وهو يعابث النساء .. ولكن معاينة مثل هذا
الشره لا تجلب سوى العار لنا جميعاً .

* وحدثتني «النوار» عنه برعب هائل ..
... ماذا أقول وهو ابن عمي .. ؟ .. قدرى الذي قدر لي . لم أكن أتعامل معه

كرجل . كان أكبر منى . وولى امرى . والمتصرف فى أموالى . يدخل دارى وقت يشاء .
فتتدافع أمامه الجوارى ويجرى خلفهن مثل ضبع شرس . أفف بعيداً غير راضية . لا أجرؤ
على الاعتراض . كنت أتمو . وأرى ذلك فى عينيه . بدأت أهرب من وجهه . اتعلل بأى
شئ حتى لا أراه . . ثم وقعت فى الحب . فارس من بنى دارم . ير أمام بيتى كل يوم ويدق
الأرض بجواده . كأنما يهب قلبى نبضاته . الملح لحيته وطرف شاربه فأتوارى خلف حمارى
وأحلم باليوم الذى سياتى فيه وينقذنى من وجه ابن عمى الدميم . كنت أخاف أن يصل
الأمر إليه بطريقة ما فيشهرى وبأحلامى . ثم سارت الرسل بينى وبين فارسى النبيل ، قال
إنه يريد أن يتزوجنى . قلت إننى موافقة . ولكن الأمر الصعب والسخيف . هو أن أرسل
للفردق حتى يأتى وأخبره لأنه ولى امرى . وهو الذى سيزوجنى كما يقضى العرف . أرسلت
إليه جارية سوداء وأنا أعرف ضعفه أمام سوادهن . جاء خلفها يتلمظ . حط على بعينه
الشهيتين . . قلت :

- خطبى رجل من بنى دارم . . وأنت ولى امرى فزوجنى إياه . .
ضحك بصوت خافت . لم أعرف لحظتها ماذا تعنى ضحكته :

- لا أفعل حتى تشهدين أنك قد رضيت بمن زوجتك .

حسست أنه يود أن يسترد اعتباره أمام القبيلة . أن أبين لهم إلى أى مدى هو واصل
على . كم كنت أكره هذه الوصاية . .

- إننى راضية مادام هذا أمام الناس . .

أكد أنه موافق . إن الصلوات متينة بين بنى دارم وبنى مجاشع وكلاهما من أشرف تميم
جاء قومى وتوثق أمامهم أننى رضيت بمن يزوجنى إياه . قال أعدى زينة العرس وسوف
أذهب للمسجد لإعلان الزواج . كدت أطيرفرحاً . لعلها المرة الوحيدة التى أحسست فيها
بإنسانيته . ذهب القوم للمسجد . أوقدت الجوارى الشموع المعطرة وأخرجت كل أنثوان
الجميلة وإمتلأ المسجد بالناس . صعد الفردق للمنبر . حمد الله وأثنى عليه . . قال . .

- قد علمتم أن «النوار» قد ولتني أمرها ، وأشهدكم أننى قد زوجتها نفسى على مائة
ناقة حمراء سوداء الحدقة .

وافق بنو مجاشع فى بلاهة . وحلق بنو دارم فى ذهول . وجاء العبيد بالخبر . إلتف قومه
حولى يهنئونى باختيار شاعرهم العظيم . أطفأت شموعى . مزقت أنثوانى . وبكت
الجوارى حولى .

جمعت مالى وثيابى . أعدت العبيد لى الجياد . أقبل الظلام فتركت نفسى فى صحرائه
السوداء ونجومه الشرهة كعيون الفردق . أصبحت غريبة . ناشزة . والليل ستار هش .
قالت جارية . .

- يا مولاي . خلف هذه التلال مضارب بنى عدى . بينك وبينهم صلة قرابة . .
إنجهت إليهم . تسللت للمضارب . إرتميت تحت أقدام شيخهم . قصصت عليهم
كيف خدعت . أجارني . ظللت ثلاثة أيام . وكل صبح يحمل رعب الفرزدق . ثم دخل
شيخ القبيلة حزينا ، قال :

- الفرزدق يهجونا أقذع هجاء . وسوف ينتشر ذلك في أحياء العرب . ولسنا أكفاه
للسانه .

فزعت . على أن أرحل من جديد . شهر الفرزدق سلاحاً ماضياً . وأصبحت
الصحراء أكثر قسوة . وصلات الرحم بلا قيمة . لو أنه جاء سيف الحاربه ورددوه عنى .
لكنه شهر لساناً ما أشد رهبتة . لجأت إلى بنى عاصم المنقرى . إستضافوني . . وعندما ردد
الرواة البيت الأول طلبوا منى الرحيل في الحال . ولم يوافق أحد من بنى معيط على
إستقبالى . وزعم بنو كلب أن خلافتهم القبلية تمنعهم من استضافة الأعراب ، وادعى بنو
مزينة أنهم غير موجودين لأنهم ينوون الرحيل لأرض جديدة . . كان طعامي الرمل وخبزي
الصبار . والفيافي الموحشة تمتد في قلبي . ومياه الأبار تجرى في عروقي بدلاً من الدم . أود
أن أكف عن اللهاث . انعم بليلة واحدة خالية من الكوابيس . أن يتوقف لسانه قليلاً . .
لكنه كان يتعقبني . يقول الشعر في كل من يأويني أو يقدم لي شربة ماء أو كسرة خبز . أو
حتى يلقي على السلام . . ثم وصلت إلى مكة . إلى خولة بنت منظور بن زيان . زوجة عبد
الله بن الزبير . أمير المؤمنين على الحجاز والعراق . وحسبت واهمة أن لسان الفرزدق لن
يقدر عليه . ثم شممت رائحته في مكة بعد أيام قلائل . أدركت أنه جاء . نزل بأبناء عبد
الله بن الزبير بمدحهم ويسألهم أن يتشفعوا له عند الأمير . تحقق غرضه فاستجابوا له في
البداية . لكن توسلت لزوجته واستعطفت خولة الأمير فعاد ثانية إلى صفنا . وهجا الفرزدق
الجميع كما هي العادة . .

ثم توصلنا إلى اتفاق . اقسمت أنفي لن أتزوج بعده . لن أعرف أى رجل . سأترك له
ما يريد من جوارى . أترك له مالى يأخذ منه ما يشاء . لقاء مطلب واحد . . الطلاق . .
سال لعابه للصفقة . . وافق . قلت . . ليتم هذا أمام الحسن البصرى . .

* حدثني الحسن البصرى عنه بعد طول تردد . .

جمعني وإياه عصر واحد . ومدينة واحدة . قالوا علينا : خير الناس . . وشر
لناس . . لم أكن خير الناس . . لكن من يعلم ماذا تحبب الثياب . . جاء إلى . قال : إنى

هجوت ابليس فاسمع . . قلت لا حاجة لي بما تقول . قال . فلتسمع أو لأخرجن فأقول
للناس أن الحسن ينهى عن هجاء ابليس . . قلت . . إسكت . فأنت تتكلم بلسانه . . ثم
جاء إلى مع ابنة عمه النوار . . كان قد تزوجها رغماً عنها . . قال أمامي :

- اشهد أنها طالق
قلت لها قد شهدنا ..
قال . ولكن مرة واحدة فقط .

صرحت السوار . لم يكن هذا اتفاقهما سوياً .. وأحسست أنني محرج . كنت أود لو
أملك القدرة على إن أهدر دمه . وأن أريح المسلمين من لسانه .. لقد عرفت أنه أعادها إلى
عصمته .. وأخذ كل أموالها .. وأخذ ينجونها مع الجوارى السيئات السمعة .. وكان كل
حبر من أخاره يثير في نفسى الرعب والحيرة .. وكنت أهتف دائماً في صلواتي : اللهم
أبقذني من زمن يقاسمني فيه الفرزدق .

* ثم حدثني الفرزدق عن نفسه ..
السائر في هذا الرمن كالسائر على حد السيف ، زمي الذي أكرهه وأتفضسه وأطالع
وجهي في مرآته كل صباح . كيف أحتمله دون أن أكون وغداً لهذه الدرجة ؟ ..
جاء أبي إلى ابن أبي طالب .. قال :

— هذا إبني من شعراء تميم فإسمع منه ..
قال علي : علمه القرآن خير له ..

أثرت في هذه الكلمات . قيدت نفسي في أوتاد الخيمة . أقسمت ألا أحل قيدي حتى
أحفظ القرآن كله . وعندما كنت الشعر قالوا .. «لولا الفرزدق لضاع ثلث اللغة» ..
لكنه كان مصنياً كالناحت في الصحر . وربما كان نرع ضرس أيسر على من أن أقول بيتاً من
الشعر . لكنه جعلني ندأ للملوك وصديقا للأوباش ..

وأنا صغير كنت أرعى الغنم . جاء الذئب وأكل إحدى غنماتي .. عاتبتني أمي فلم
أبه بالعتاب . كان الذئب حازماً وكنت راعياً فاشلاً . قال لي الذئب حين قابلته بعد سنين
طويلة ودعوته للطعام . كان عجوزاً وحكيماً . قال إن همي لم تكن لتتف عند الرعي .
سألته في أمي .. أكان لأبد من الرحيل عن البادية : تركت ذئباً واحداً حكيماً وجئت وسط
قطيع حاتم فلماذا لا أكون ذئباً مثلهم . أعوى كما يعوون وأعود إلى حجر في المساء ملوث
الأظافر بالدم .. إنه يسيل بلا ثمن فما ضر أن الغ فيه قليلاً ..

أنا أجبين الناس . اخاف الموت والسجن والجوع . رأيت الحجاج فلم أخف منه .
رأيت فيه نفسى حين أمسك السيف واستمرراً لذة القتل . نفسى الشرسة التي أخافها وإن
كنت في حاجة ماسة إليها . ومع الحسن البصرى رأيت نفسى التي فشلت في أن أكونها .
كنت أعرف أنني الجزء من نفسه الذي استطاع أن يروضه . ماذا أفعل وقد بدأت قبيلتي
تاريخها بالاعتداء على الحرم وسلبت كل ما فيه . وبدأت حياتي بخديعة «النوار» وهجاء

جرير . لم أفلت جارية من أمحر لى . حتى امرأة استضافتني ذات ليلة باردة وقدمت لى طعاماً . فما أن دفتت وشبعت حتى راودتها عن نفسها . أننى لسبت شرساً . أنا لا أجلس على عرش ولا أقود جيشاً . كل ما أفعله هو أن اتبع نزوات الصعيرة بعد أن ماتت كل الأشياء النبيلة فى كربلاء

. كنت ما أزال مقيداً فى أوتاد خيمتى حين جاء نسوة قومي وهن يصرخن :
- قبرت من شاعر قوم . . هتك جرير عورات نساتك وأنت ساكت . .

كنت معزولاً لا أعرف ماذا يحدث ؟ . . قالوا أن جريراً قد تهاجى مع شاعر من قومي يدعى «البعيث» وقد تفوق عليه وهجاً القبيلة وأفحش فى وصف نساتها . أنا أعرف أنهم أشد فحشاً مما وصف جرير . لكن العصبية أشعلت الحرب الكلامية بيننا أربعين سنة كاملة أربعون عاماً من الخصام والمناقضات والهجاء وتبادل كل ما فى قاموس اللغة من شتائم والأيدى تزكى النار . والناس يتناقلون الأشعار . يرفعون يده بالغبلة ويدي حيناً آخر . كان نسبي شريفاً وحاضري وضيعاً . وكان هو شريف الحاضر مجهول النسب . . ولأننا نقتات الماضى البعيد فقد علوت عليه .

تلوموننى لأننى اغتصبت زيجتى من النوار . . وماذا فى ذلك . . هل كنت أترك الأعراب يأكلون ماها الذى هو مالى وأقف لأتفرح عليهم . . لقد ضيع جدى كل شىء . . كان يفتدى البنات المؤودات فى الجاهلية . . الأحق كان كلما رأى رجلاً يريد أن يثد ابنته يشتريها منه ثم يهبها له . . وبمثل هذه الصفقات غير المفهومة ضاعت ثروى وأصبحت شاعراً صعلوكاً . لم أكن لأكرر الغلطة وأهب النوار لشخص غريب . . وعندما أصبحت فى يدى اخذت أخونها مع أى جارية تصلها يدى . حدث اننى تعلقت بهوى احدى الجوارى . . وأخذت أرسلها . . واعتقدت أنها مالت إلى وأرادت أن تجربنى فى الفراش . وأنا فى الفراش لا أبارى . . هذه هى كل ثروى . . واعدتنى على أن أذهب إليها فى المساء . . ولما أقبل الليل تسللت إلى حجرتها . . ثم إلى الفراش . . وكانت فى انتظارى . . كنت بارعاً . . كانت هى أيضاً بارعة ولكننى فوجئت بها تصرخ فى وجهى . .

- يا عدو الله . . يا فاسق .
كانت هى . . النوار . . لقد خدعتنى الجارية . . تأمرت هى وزوجتى ضدى . . ولم أتمالك أن هتفت فى حيرة :

- أنت هى . . يا سبحان الله . . ما أطيبك حراماً . . وأرداك حلالاً . .

وأخذت أحاذر بعدها . . ولكن . . من الذى يأمن لهذا الزمان . . لم أكن آمن إلا لببت الشعر الذى يخرج من فمى . . أما بعد أن تتداوله افواه . . فلا أمان لشىء .

وعلى قبر «النوار» لم أقل بيتاً واحداً . الموت أجذب الشعر في داخلي . الحسن البصرى والجميع نظروا لي بحق . النصيب الأكبر في موتها يقع على . لكنها أيضاً قتلتني . ضمنت على بحنانها وكنت في حاجة ماسة إليه . دون نساء الأرض كلها ظلت نائية . لا تعنى سوى رغبات مطفاة وحسرة تتجدد كل ليلة . كل النساء بعدها كن سلوى وكنت أبحث عن حياة ما خلف جلودهن ، وناحت النوائح على قبورها بأبيات من شعر جرير وقتلني هذا من جديد . .

* حدثني ابنه «لبطة» عنه بلا مبالاة . .

— قالوا أبوك على وشك الموت . لم أصدق . لعلها حيلة يسعى بها للزواج من جديد ! مللت وجوده على قيد الحياة . كرهت سعيه إلى كل صباح ليهتمني بالعقوق . يسعل ويسير محني الظهر فإذا رأى طرف جارية كف عن السعال . هرم وشاخ ولم تنطفئ شهواته بداخله . عمر أكثر من مائة عام . شاهد سبع خلفاء أمويين وعدداً لا يحصى من الفتن والحروب . .

آخر من تزوج كانت «ظبية بنت حالم» كانت أصغر مني سناً . تركها في البيت سنة كاملة . وفي النهاية فرت من وجهه كما فعلت النوار من قبل . لكنه هذه المرة لم يجرؤ على تتبعها . . وسار يذب في شوارع البصرة يبحث عن زوجة أخرى . .

قالوا . . لا بد أن تراه . . فليس أسوأ من مجافاة المحتضرين . . ذهبت فإذا أبي حقا طريح الفراش . وإذا السنون المائة تمعايد غائرة ونفس متحشرج . قال الطبيب أنه يعانى من ذات الجنب وليس هناك أمل إلا في الكى وشرب النقط الأبيض . شعرت بالحزن من أجله . كان ضعيفاً كما لم أره من قبل . أحضرت الجوارى أكواب النقط قلت له اشرب يابى . نظر إلى كأنما يتساءل عن سرحناى . لمجرع أول كوب بسرعة ثم أخذ يسعل ويرتجف . .

- يا بنى عجلت لأبيك شراب أهل النار . .
لقى بالدواء وطلب خمرأ صافية وشواء طازجاً . . وظل يمدق في بعينه الجاثعنين .
هتف : وصيتى . . أخذ يعدد لي أنواع الجوارى والمتاع . لم تخنه ذاكرته في أى شيء . .
قال :

- سوف أعتق كل الجوارى والعبيد وأدفع لهم بعض المال . .
لقد تذكر أخيراً أنه انسان . . تجمعت حوله الاماء وقد شعرن بحزن طاغ . كن يعرفن أن موته يحملهن العتق والحرية لكن شرارة الحزن تولدت وطلعت . أعطيته رقاً من الجلد ليكتب عليه ما يريد . . هز رأسه وهو يقول :
- أرونى من يقوم إلى مقامى . .

إذا ما الأمر جل عن الخطاب .

قالت جارية بحزن : إلى الله يا سيدي ..

فوجدنا به يشور في عنف .. صمم أن يبيعه ويقبض الثمن لساعته . قلت يا أبت قل لا اله إلا الله . صرخ في أن أذهب لأنى بالنحاس . قلت إنها لم تخطيء . سوف تذهب يا أبت ولا يبقى لنا إلا الله .. ظل نائراً حتى جاء النحاس . وباع الجارية . وحين كان يسقط الدراهم الفضية في حجره قلت : خذ دراهمك .. لم يرد على .. ولم تطرف عيناه بنظرة الجوع المعتادة حين يرى مالا .. أو جارية ..

* حدثني جرير عنه بحزن حقيقي ..

جاء الركب من البصرة فسألت عن آخر الأنباء . قالوا مات الفرزدق . قلت :

- ليت الفرزدق عاش قليلاً ..

لم أتمالك نفسي فدمعت عيني . قال الدين حولي :

- يا سبهان الله .. أتبكي على الفرزدق ..

قلت : والله ما أبكي إلا على نفسي . إن بقائي بعده لقليل وما تقارب رجلا من مثلنا على خير أو شر فمات أحدهما إلا أو شك صاحبه أن يتبعه ..

كانت روحنا مرتبطين بشعرة رقيقة نتنازع حولها ولا نقطعها . قالوا إننا معا كنا أشعر أهل زماننا .. أتينا بما لم يأت به الأوائل . كنا جوادين في حلبة رهان كلانا خاسر . نلهث ونعرق فتخرج أشعارنا زبدًا أجوف . تجرى في أوطار لعبة لم نفهمها أبداً . هجاني بأبي فهجوته بأمه . هجاني بتاريخي ونسي وهجوته بحاضره وفعاله . واحتار الناس بيننا طويلاً وكل منا لا يكف عن فتح جراح الآخر الشخصية . كم تغدو الحياة كريمة وأنت تنام وفي فمك دم الأحرى . قالوا إنه كان لعنة قومه وكنت أنا شهاباً من نار . وقلت إننا في قيد واحد . وضع على رداء لعنته واحترقت أنا بداحله .. وما بقى منا سوى قطعة من الأحجار يسمونها شاهد قبر .. قالوا مات الفرزدق .. قلت .

- فلا ولدت بعد الفرزدق حامل ..

وأنخيله في قبره يشد لحيته ويصحك بصوته الأجلش قائلاً : ابن المراغة يرثيني .. !
فتضحك الملائكة .. وتضحك الزبانية .. !



عبد الله بن الزبير مقتل المستجير بالبيت

ظباء مكة صيدهن حرام .. فمن الذى أحل دمي .. ؟ ..
اليوم الرابع عشر من جمادى الأولى العام الثالث والسبعون من الهجرة . والهواء عبق
برماد الحريق والرمل مشبع من الدم . وعبد الله بن الزبير قد بلغ عامه الثانى والستين ،
سارت الجيوش إليه من الشام مرتين حاصرته فى مكة مرتين . نصبوا المجانيق وقذفوا
رؤوس الحجيج بالحجارة . قتلوا نداءات التلبية . وأشعلوا النار فى أستار الكعبة . ورددوا
كل الأبار المقدسة .. كان عبد الله فى الداخل . والحجاج فى الخارج يحكم حصاره
الطويل القاسى .. تقلصت دولة ابن الزبير .. أصبحت مجرد قطعة من الصحراء
حول الكعبة .. مليئة بالقتلى .. والخرائب ..

وقف أمامه ولداه «حمزة» و«حبيب» ، ووقف ابنه الثالث «الزبير» خلفه .. كانا يطلبان
الاذن منه .. أى اذن ؟ .. هل بقيت له سلطة .. حتى السلطة الأبوية ؟ .. حمزة هو
الذى يتكلم .. أقرب أولاده إلى قلبه .. منذ أن ولاه على الكوفة رغم أنف الجميع
وكان يود أن يجعله قائداً للجيوش ووليا للعهد . حمزة .. هو الذى يتكلم .

- يا أبى .. يطلب منك الاذن بالخروج إلى الحجاج .

غاصت الكلمات مثل بصل مسموم ، رام «الزبير» وحين إلتفت إليه رأى أصابعه وهى
على مقبض السيف أشار له أن يهدأ . وظل وجهه جامداً قال حمزة .

- سوف يعطينا الأمان إذا خرجنا إليه . لا يوجد هنا إلا الهلاك . (تردد قليلاً ثم
همس) إذا أدنت لنا ..

ما جدوى الرفض .. ؟ .. سوف يتسللان كما تسلل عشرة آلاف من إحصاره

قبلها . . مثلما خلع المختار بيعته وأعلن الولاية لنفسه . مثلما غدر الأمويون . . وقتلوا مصعباً أخاه . . كل شيء ينهار والفران هي أول من يسرع بالهرب . . وظل وجه الابن الثاني «حبيب» صامتاً . . وأشار عبد الله بيده . إشارة لا تعنى الموافقة أو الرفض . . لكن الولدين انصرفا مبتعدين . . سيذهبان حيث يقفان بعيداً يطلان على تفاصيل المذبحة الأخيرة . . والصمت ثقيل كالموت . والتفت عبد الله إلى الولد الثالث وهو يتساءل . .

- وأنت . . ؟ . .

هتف «الزبير» في قوة . .

- كلا يا أبي . . سوف أبقى معك .

وفكر عبد الله . . أيها الأحق . . سوف تموت معي . . في البدء . . كانت البيعة وكانت الخلافة . . وجاء معاوية كالقدر فأخذ البيعة بحد السيف . . وورث الخلافة لأبنائه . وترك عبد الله في ذل الانتظار . . في البدء كان معاوية . . وكان عبد الله . بيكيان معاً نفس القتيل . بيكيان «عثمان» ويتوعدن قتلته . ويعلمان ذات الحلم . لكن معاوية صعد إلى ما يريد . . وتردد عبد الله قليلاً فضاعت كل الفرص . وظلا يتساجلان وسط جموع المسلمين الصامته المتفرقة في وهم الامام المنتظر . أيها احق . . قتلى الكوفة . . أم قتلى الحجاز . . ؟ . . قال معاوية . . أنا أول الملوك . . ورد عليه عبد الله . . امك هند آكلة الأكباد . . وأمي أسماء ذات النطاقين . . أبوك سفيان بن حرب . . وأبي الزبير بن العوام . . ومعاذ الله أن يكون أبواك خيراً من أبوي . . أما الدنيا فلك . . وأما الآخرة فلي إن شاء الله . .

ولكن عين عبد الله كانت على الدنيا . على عرش القرشيين الذي ضاع . منذ أن قتل أبواه في حربه ضد علي . وخرج الخوارج وتشردت الأحزاب . وتاهت الحقيقة . وبدأت كل الحروب دون سبب واضح . . لذا لم يكن هناك مبرر لانتهائها . وعبد الله ينتظر الفرصة حتى يسقط معاوية ويتبدد شمل بني أمية . لكن المشكلة أن معاوية على العرش . والحسين بن علي في القلوب وابن الزبير يلعب لعبته الخاصة في حذر بالغ . . يعد يومه الآتي من كل لحظات الانتظار . ومن كل اخطاء بني أمية عندما حاول معاوية أن ينقل منبر النبي من مسجد المدينة إلى دمشق وهو يصرخ في الانصار . . لا أترك المنبر بينكم وأنتم قتلة عثمان . وحرك المنبر فإتكسفت الشمس وشوهدت النجوم في الظهيرة . وأدرك ابن الزبير أن هذه علامة الساء . . بشارتها له . .

كان هو أول مولود في المدينة بعد الهجرة . زعم اليهود أنهم قد سحروا المسلمين فلا يولد لهم . . ومرت أيام الجذب بطيئة . ولم تكن بطن أسباء بالارتفاع الكافي . لكنه جاء . صرخ أولى صرخاته وسط تكبيرات المسلمين وحملته أمه إلى الرسول ووضعت في حجره .

وابتسم الرسول وهو يمسخ على رأسه . . ووضع في فمه ثمرة كانت هي أول شيء دخل جوفه . . وأوصى أسهاء قاتلاً . .

- أَرْضِعِيهِ وَلَوْ بِمَاءِ عَيْنَيْكَ . .

وأرضعته . بدأ خطواته الأولى مع نداء الفتح . وأشدت ساعده في شمال أفريقية . وحوصر في بيت عثمان أربعين يوماً . وبدأ الخلم يترسب في داخله . مجرد وصية غامضة أوصاه بها عثمان قبل أن يموت . . زرعت في داخله كل هذه الطموحات . . وقادته إلى تلك النهاية . .

سار عبد الله يتفقد مملكته . إنكمشت الصحراء حوله كالطوق . وامتلاً حرم الكعبة بالحمام والجثث الغريبة . الحجاج الذين جاءوا يسعون من أقصى الأرض ففاجأهم الحصار . واحتقرت الكعبة فوق رؤسهم ، كانت مظاهر المجاعة في كل مكان . لا يوجد حيوان داخل مكة إلا ذبيح وأكل . . حتى جواد ابن الزبير نفسه قدمه لانصاره فذبحوه وأكلوه ثم تسللوا في المساء إلى الحجاج . .

تقابل مع ابن قيس الرقيات . شاعر قريش الذي وهب شعره من أجل بيعته . مدحه كما لم يمدحه أحد . . وهجا الأمويين كما لم يهجم أحد . . كان مشعثاً . . ذاهلاً . . يجوس خلال الحرائق والجثث . كأنما يبحث عن الشيء الذي آمن به ، وقف كلاهما أمام الآخر . الخليفة والشاعر الذي آمن به . . كلاهما يحس بنذير النهاية ويشعر بمراتها . قال عبد الله :

- لم يعد الشاعر يخشى من منظر الموت . .
قال ابن قيس الرقيات :

- بعد موت مصعب . . فكل الموت سواء . .

حتى ابن قيس يفتح الجروح القديمة النازقة . . ترك أشعار الغزل والصبابات وكل الرقيات التي شبيب بهن وتبع الحركة الزبيرية . وعندما تولى مصعب ولاية العراق نائباً عن أخيه ذهب معه ابن قيس . شاهد حروبه مع الأمويين ومع الأزارقة . ومع التوابين . حتى تولى الخلافة صديقه القديم عبد الملك ابن مروان . كانا صنيون . ولذا كان صراعهما مريراً . ويموت مصعب اتسع الثقب في جسد الدول . ضاعت العراق . وضاعت مصر . وحمصا وحلب . والاردن . وتدفقت الجيوش عبر الصحراء : هدفها رأس ابن الزبير نفسه .

عاد يقول في حزن . .

- انظر . . ماذا فعل بنا الحصار . . حاصرنا الأمويون قبل ذلك . . بنفس الجيوش . وفي نفس المكان وانتصرنا عليهم . ماذا تغير هذه المرة . . ؟ . .

تطلع إليه قيس في دهشة ممزجة بالسخرية ثم قال :
- ألم تدر بعد .. في المرة الأولى لم تكن قد أصبحت خليفة .. كنت فكرة ..
رمزاً .. والسلطة لا تستطيع حصار الفكرة أو الرمز . لكن السلطة تعرف جيداً كيف تقهر
سلطة مثلها ..

كانت نبرات صوته باردة تجذب كل أبيات الشعر الحماسية التي قالها . بدا معا عندما
جمع معاوية أولاد الصحابة ووضع السيوف على رقابهم ليأخذ بيعة يزيد ابنه . يزيد السكير
سوف يصعد على العرش . ويحكم جموع المسلمين .. ها هو عبد الله عليه أن يعطى البيعة
قسراً كما أعطها من قبل لمعاوية .. ومات معاوية .. وشدد حاكم المدينة حسب أوامر
الخليفة الجديد على عبد الله أن يبيع أو يوضع في السجن . وهو يماطل ويسوف .. وسار
إليه الحرس لكنه استطاع أن يهرب من المدينة إلى مكة .. يحتفى في حرماً ويلوذ ببيتها .
يعلن رفضه لخلافة السكير .. يعلنها عالية ونهائية .. وأقام في البيت ليلاً ونهاراً يصل ..
ويجز الصحراء المستسلمة .. ومات الحسين في كربلاء .. نزع خليفة القلوب وبقي خليفة
السيوف . وأخذ عبد الله يجمع حوله كل بقايا الراضين والغاضبين والذين يؤمنون بالعدل
المطلق .. وغضب يزيد .. وجه إليه جيشاً كبيراً يقوده الحصين بن نمير .. حسبوه صيداً
سهلاً . لكن المستجير بالبيت لم يعد وحده .. جاءت إليه النجدات من كل مكان .. دون
أن يطلب شيئاً .. جاء أهل المدينة وعلى رأسهم قدامى الصحابة وأولادهم .. وجاء عامر
الحنفي من اليمامة يقود ثواره ضد الحكم الأموي . وجاء الخوارج الأزارقة وجاء المختار
الثقفي . حتى النجاشي أرسل بعضاً من الأحباش . كانوا يدافعون عن الكعبة وعن حرمة
المستجير بها . لكنهم الآن يرحلون في عكس الاتجاه .. واحداً .. وراء الآخر ..

سار عبد الله إلى بيت أمه .. أساء بنت أبي بكر . كانت جالسة في إنتظار زيارته
اليومية . بلغت المائة من عمرها ولم تقع لها سن ولم تبيض من رأسها شعرها واحدة . وكانت
تحقق فيه بنظراتها الصلبة .. لا يعرف فيها الشفقة من اللوم . أحس عبد الله كأنما ارتد
طفلاً صغيراً يعاني من الوحشة .. قال :

.. يا أمي .. خذني الناس حتى ولدي وأهلي . لم يبق من عمري إلا ساعة والحجاج في
الخارج يعطيني أمن الدنيا والعيش . ما هو رأيك ؟
قالت أمه في سخرية مرة :

- أنت أعلم بنفسك . إن كنت على حق أو على باطل .. فبم قتل هؤلاء إذا كنت
تبتغي الدنيا . فيها قتلهم وأنت تمكن رقبتك لغلمان بني أمية .. إن اردت الدنيا بفبس
الناس أنت . أهلكت نفسك وأهلكت من حولك .. وإن كنت على حق .. فما الخير في
حياتك وإصرارك على العيش .. ؟ ..

أحنى عبد الله رأسه كانت هذه لحظة ضعف طفولية لا يجرؤ على اظهارها إلا امام
أمه .. قال :

- ما ركنت إلى الدنيا ولا أملت الحياة فيها . فإنظري يا أمي إلى مقتول من يومي
هذا فلا يزيد هذا من حزنك . أني لم أجر في حكم ، ولم أغدر في أمان . ولم أتعمد
الظلم . وكنت صواماً .. قواماً .. أحكم بالعدل .. لا أقول تزكيه لنفسي ولكني أقوله
تعزية لك .. ليسلو قلبك عنى ..

قالت أسماء :

- يا بني .. تُقتل حين تُقتل على حق

ساكنة تتلقى النهاية عرفت نهاية اللعبة بعد أن شاهدت بدايتها . وتساقط أولادها
كأوراق شجرة ذاوية .. صورة مصفرة لكل ما حدث حولها دم بلا ثمن ، وقضية
ضائعة ؛ كل طرف فيها يعتقد أنه المحق ..

خرج عبد الله إلى جولته الأخيرة .. تطلع إلى كل من بقوا معه . ما أقلهم . أهى
الشجاعة أم نوع من حماقة الانتحار . بعد إنتهاء الحصار الأول . بايعه الخوارج على أن يذم
عثمان ويثار من قتله على .. ورفض عبد الله . وتقدم إليه قائد الجيش الأموي يبايعه
ويطلب منه أن يصطحبه إلى دمشق . ورفض عبد الله .. وعرض عليه المختار الثقفي أن
يشاركه في الأمر بعد أن يقتل الأزارقة .. والتوايين . ورفض عبد الله . كان ينتزع
خلافته من بين أنياب الجميع . هو وحده القادر على أن يملا الأرض عدلاً بعد أن امتلأت
جوراً . واستدار الزمن في دورته المفجعة . حين أعلن خلافته قلبها الجميع وإنتشر عماله في
كل أرجاء العالم الاسلامى إلا بقعة ضئيلة في الشام . واختار الأمويون اختيارهم اليائس
الأخير . اختاروا شيخهم الفاني مروان بن الحكم .. وكان أول شيء فكر فيه أن يرحل إلى
الحجاز ويبايع عبد الله ويخلع نفسه . لكنهم منعه . وأصبح في الأرض خليفتان وحربان ،
ودماء كثيرة . ومات مروان ليأتى ابنه عبد الملك . وفجأة إنقلبت الأمور . سارت جيوش
عبد الملك تحت قيادة الحجاج بن يوسف الثقفي تحتاح كل شيء كالطاعون يقتل دون
رحمة . ويثيب دون حساب . في الوقت الذي تخاذلت فيه جيوش عبد الله ومات
مصعب وظهر المختار الثقفي بوجهه الحقيقي .. فخلع بيعه عبد الله وأخذ يدعو لنفسه
وأصبح في الأرض ثلاثة خلفاء .. وانقلب الزمن المزدوج الوجه المليء بالطموحات
القاتلة ..

آه .. ما أطول ذلك اليوم الرابع عشر من جمادى الأولى . العام الثالث والسبعون من
الهجرة .. وعبد الله وسط مكة .. أسد عجوز محطم الأنياب . والحجاج يعد العدة
للاجهاز عليه .. لا يريد أن ينفرد أحد بقتله .. مثلما جمع حوله كل العرب يجب أن يقتله
كل العرب .. وضع أهل حمص على الباب المواجه للكعبة . وأهل دمشق على باب شيبه .

وأهل الاردن على باب الصفا . وأهل فلسطين على باب جمع . وأهل قنسرين على باب تميم . ووقف الحجاج على باب المروة . . . وعبد الله في الوسط . . . يصرخ في أصحابه . . .

- صونوا سيوفكم تصونوا وجوهكم . لا تسألوا عنى . فمن كان سائلا فإني في الرعييل الأول . . .

لكن أنصاره تراجعوا . تركوه لأحجار المنجانيق ولجند الشام والذباب . هبط على رأسه حجر ضخيم وتدفتت السيوف داخل جسده . كل الذين بايعوه ، وخذعوه . . . ومن بعيد كانت الكعبة تطل عليه . . . عالية . . . أعاد بناءها بعد الحصار الأول . . . كانت تقل بمقدار سبعة أذرع عما بناها ابراهيم الخليل وظلت هكذا حتى أعاد عبد الله بناءها وأضاف إليها الأذرع الناقصة . . . هوى على رمل الأرض الحرام . . . وحوله وجوه غريبة . . . ملطخة بالدم والسواد . . . قال أبيات شعره الأخيرة . . .

يارب أن جنود الشام قد كثرورا
وهتكوا من حجاب البيت استاراً

وغرق في ظلام الموت الكثيف . وهلل الجند لعل تمهليلهم يصل إلى الخليفة البعيد في الشام . ووقف الحجاج على رأسه . أشار أن تصلب جثته في ساحة الكعبة . صنم جديد . . . ميت . . . مستنزف الدماء . . . يرقد محنى الرأس . مقوس الجسد . غائر العينين . . . كان الحمام الذى يعيش في حى المسجد الحرام قد طار أو قتل في أيام الحصار . وأمتلات السماء بطيور سوداء جائعة تصرخ في نهم حتى أن صرخاتها غطت على صوت الأذان . . .

وخرجت أسماء تحمل على كتفيها أحزان سنواتها المائة . وقفت أمام جسد ابنها المصلوب والحجاج يرقبها في تشف . . . لم تسأله شيئاً . . . لكنه هو الذى صرخ كأنما يدفع نظراتها .

- لن يدفن حتى تأكله طيور الصحراء . . .
وقالت أسماء :

- سمعت رسول الله يقول : يخرج من ثقيف كذاب . . . سفاح . . . الكذاب تهو المختار . . . وأما السفاح . . . فهو أنت . . .

وظل الجسد المصلوب معلقاً يرقب بعيونه الغائرة المعاول وهى تهوى على الكعبة تنفض البناء الذى بناه . . . البيت الذى إستجار به . . . لعلها تمحو دمه . . . وأثره . . . وخلافته . . .



أشعب

العيش على فئات الآخرين

* حدثتني عنه مدينته .. قالت .

كلما ذكرته - بجسده الضخم وهيئته الدميمة - إقشعرت أرض الحواري . واصطلكت أبواب المنازل وغاضت الينابيع . كان لحوحاً كذبابة .. شرهاً كضبع يجوس خلال المقابر .. طماع مثل .. مثل .. وهل هناك أطمع من أشعب ؟ .. قال دينار ضائع .. وجدني أشعب في إحدى الطرقات . وبدلاً من يسأل عن صاحبي . إشتري بي قصعة من الفخار ووقف على باب المسجد وهو يهتف .. من يتعرف على هذه القصعة .. ؟ .. وقال باب بيته .. كان في أخشاهي فتحة . حين ينام أشعب كان يخرج يده منها لعل إنساناً يمر ويطرح في يده شيئاً .. وقالت امرأة تمهدل البوص .. وقف أشعب أمام دكاني وأنا أجدل طبقاً فقال . لتكبريه .. فقلت . ولم أتريد أن تشتريه ؟ .. قال . لا ولكن عسى أن يشتريه شخص فيهدى إلى فيه .. فيكون كبيراً خيراً من أن يكون صغيراً ..

لم يكن يكف عن السير والتسكع .. الدروي مرسومة في باطن قدميه . وأنفه الكلبية تتبع آثار الطعام والدنانير . كلما رأى تهامس إثنين اعتقد أنها يوصيان له بشيء . لا يترك نافذة إلا ونظر من خصاصها . لا يجذب أباً إلا ودس عينيه في ثقبه . كلماته مبللة باللعب . ولعابه ملون بالشراة .. وشراسته بثر بلا قاع . قال صبيان المدينة : كنا نسير وراء أشعب . وضاق بنا فزعم أن عمرو بن عثمان يقسم أموالاً بين الناس . وحين صدقناه وانصرفنا نبحث عن هذه الأموال . فوجئنا به خلفنا يسعى إلى عمرو بن عثمان وقد صدق

كذبه : وقالت جارية : كان أشعب يجيء للحديث معي . فقالت لي جاراق : لو سألته شيئاً فإنه مؤسر . فلما زارني كعادته قلت له : يقلن لي جاراق ما يصلك أشعب بشيء .. فخرج نافراً من المنزل ولم أره لمدة شهرين حتى جاء ذات يوم وجلس أمام الباب فأخرجت

إليه قدحا من الماء وأنا أقول . . إشرب هذا من الفزع . . فقال . . إشربيه أنت من الطمع .

كان يريد العالم كله بلا ثمن . يريد شيئا محسوسا بين أصابعه . لا مانع من أن يمر عليه بلسانه بين الحين والآخر . فاسداً . نيباً . جيفة . لا يهم مادام بين أصابعه . كل لحظة هي لحظة الأخيرة . . من يستطيع أن يطفىء آلة الشراة المتوقدة في داخله .

* حدثتني عنه أمه . . قالت . .

أشعب ابني وليس ابن أحد غيري ، لا أعرف من هو أبوه بالضبط . . إنه يحسب نفسه أشعب بن جبير . وأنا متأكدة أن جبيراً لم يعرف أبداً أن له إبناً على قيد الحياة . المسألة أن الليالي متشابهة والرجال في الظلام متشابهون . ولكن الأطفال يلحون في السؤال بلا مناسبة . فليكن إبناً لهذا العالم المليء بالجوعى والمتخمين . . ليختر أى لقب يشاء . . ولكن عليه ألا يبيت الليلة دون عشاء .

بعد ولادته جف اللبن في صدرى ولم أجد له غذاء . وظللت أطوف على سيدات المدينة . لم أكن أملك مالا أخصمه لمرضعة . فجعلت أستوهب له كل وجبة من وجباته . . ما كان أجدر بي أن أتركه للموت جوعاً كما مات غيره حتى لا يكبر ويلقى على هذه الأسئلة السخيفة . الطفل الأحمق تشبث بالحياة . كلها وافقت امرأة على إرضاعه أنشب فمه بهم غير عادى . كان يتلمظ في حضنى . ويبدو مصغياً شديد الاصغاء وأنا أتوسل لأى امرأة أن تجود عليه برضعة . . لا يبكى . يظل هادئاً حتى يشب إليها . . الوغد الصغير . لقد تعلم أن يرضع من كل الصدور . ويأكل على كل الموائد . وينافق كل السادة . . ويحفظ كل فتات الشعر ويلح في السؤال . ويبالغ في التذلل . ويبكى خشية الرفض . ويكون ممتنا دوماً . شاكراً أبداً . مطيعاً للأصاعر . مليئاً لأشارات الأصابع . يحكى النكات إذا حضر المدام ويجود القرآن إذا سحر الليل

حين علمت أنه تعلق بأستار الكعبة ودعا الله قائلاً . .

- اللهم اذهب عنى الحرص والسؤال والطلب . .

ثم مر بالقرشيين فلم يعطه أحدهم شيئاً وجاء إلى خائباً خالى اليدين . صحت فيه .

- لا والله . . لا تدخل من الباب حتى ترجع فتستقبل ربك . .

ولم أدخله حتى عاد إلى أستار الكعبة وتعلق بها وهو يهتف .

- يا رب أقلنى . .

فلم يمر بمجلس من المجالس إلا وهبه أحدهم شيئاً . .

ثم أتى هذا الأحمق ليسألنى من هو أبى . . كأنه يعتقد أن لهذا السؤال أهمية . قلت له

على الفور .. إنه جبير .. وكان مصعب بن الزبير قد ذبحه . وسار أشعب يبكي أباه .
وقلت في نفسي .. ولعله زيد . أو تبع .. أو عمرو .. أو أى كائن من كان .. الأرض
واسعة والسما شاهقة .. ولماذا تطالبني وحدي بالأجابة على كل الأسئلة ..

* حدثني أشعب عن نفسه .. قال ..

عليكم اللعنة جميعاً ..

تحدثون عن أخبار جشمي . ونوادير طمعي . وأنتم أكثر منها مني . لا أنطلع إلا
للطعام . وأنتم لا تكفون عن نهش جسدي . تحدثون عن كيف مررت بقوم يأكلون . فلما
سلمت ردوا سلامي بجفاء . سألتهم ماذا تأكلون .. قالوا سمأ . فجلست بينهم وأنا
أهتف . الحياة بعدكم حرام . تحدثون عن أني أكلت فالوذجة . وجدياً مشوياً . ورغم
المغص الشديد لم أتوقف حتى لا تحسب سابقة على أني أبقيت شيئاً . تحدثون أنه لا تزف
عروسة في المدينة إلا وتوقع أن تهدي إلى . وحين طلبت مني امرأة هويتها خاتمي لتذكرني
به فقلت لها : أذكرى أني ما منحتك إياه فهو أحب إلى ..

إنني الجزء الأسود الذي تجاهدون في إخفائه . أعلن نزوات الصغيرة .. واطالب بحق
معدني . ولا أكنتم رغبة مها سفلت . أنتم أشد جبناً ونحجلاً .. تجاهدون كل عمركم لخلق
رغبة . تقطعون جسدي سيوراً لنبالكم العمياء .. وسهامكم الصدئة ..

عليكم اللعنة جميعاً ..

كنت صغيراً عندما اقتحم الحرس دارنا . وحضر الوالي والقاصي والشيوخ .
وصعاليك المدينة . أخرجوا أمي محلولة الشعر . ممزقة الثياب . والنساء الفاضلات
يصرخن ..

- أرحمها ..

لم يكن ينقصن سوءاً عنها حتى القاصي برقت عيناه في نهم وهو ينظر إلى جسدها
العاري الممزق الثياب وأنا أعض أيدي الحرس التي تقيدني . وأحاول التملص . وحين
تقابل وجهانا . لم تكن تبكي . كانت مدهوشة لأن زبائنها القدامى تحولوا إلى ذئاب . صاح
فيها الوالي ..

- ضببت متلبسة . وشهد عليك شهود عدول .. وتبرأ منك أهلك وعشيرتك ..
فلم تطلب الرحمة . ولطالما سألت الكثير وعلمتني حرفة السؤال وذلل الألف فلم تطلب
بضعاً من الحياة . ونظر الوالي إلى القاصي . ونظر القاصي إلى أمي . ونظرت أمي إلى .
وخصتني بنظرها الأخيرة وقال القاصي ..

- تخلق .. ويظاف بها .. ثم تجلد .

وكان الموسيقى مثلوما ، يقلع ولا يخلق جدائلها الطويلة ، ليلي الصغير حين أخبىء وجهي وأحلم . أرضع طعامي من صدور النساء ثم تعطيني شعرها لأتسلقه ونادراً ما كنت أظفر بنجمة صغيرة . أجتزت رأسها وأصبحت بيضاء صلعاء . غايبة القبح يا أمي . وبدت الملامح غليظة مثل نعل قديم . ووضعوها على حمار ووجهها لناحية الأخرى . كان الحمار هادئاً تماماً . . مثل حكيم يدون أقواله . ووقف الحراس ضاحكين . تذكرت أحدهم وهو يضع قطعة فضية في يدي ذات ليلة . . مضى الموكب . والجلاد يمسك السوط ويهوى عليهما . أمي والحمار . . وأنا طفل الزحام اليتيم . أتبعك ، اشاركك عارنا المشترك . . أنت أبي الذي لم يرنى وذكر ياق المفضوحة . والسوط يهوى على ظهري . . شربت مهانتها قطرة فقطرة . خطوط على شوك عارها خطوة بخطوة . وحين كان السوط يهوى ثم يصعد نائراً قطرات الدم لم أدر . . دمها . . أم دمي وحيدتين ، جلست إليها وفي يدي قارورة الزيت أدهن ظهرها الممزق . لم تكلمني . كان وجهها أبيض مائلاً للزرقة . كانت ميتة ولن تعيدها زيوت الدنيا إلى الحياة . وفي صباح يوم لا أذكره وجدتها متيسسة . متكومة الأعضاء . جلدها أزرق . . والدم المتجلط على ظهرها تحول إلى اللون الأسود . .

لم يبكيها أحد . تولت تربيته وكفالتى عائشة بنت عثمان بن عفان . وإبتعدت عن الطريق . وعن مذلة السؤال . دخلت إلى عالم واسع . . عالم بيت الحكم في ظل أمير المؤمنين عثمان . . حتى أنفى ذات لحظة . . فكرت أنه من الخير أنها قد ماتت . . لقد أتاحت لي بموتها هذه الفرصة الوحيدة لكي يكون لي هذا البيت . . وهذا الأب . .

لكني إستيقظت صباحاً . لأجد المئات من الناس يحاصرون بيت الخلافة ، كنت صبياً لا أعرف ماذا تعنى السياسة . لكني رأيت السهام تهبط علينا كالطر . وامتنع دخول الماء والطعام إلى البيت . والخليفة جالس في الفناء يقرأ في مصحفه الذي قدر له أن يقتل فوقه ، وسط عشرات المسلحين والسيوف والرماح . .

خمسون يوماً وقبضة الحصار تزداد حولنا . كل يوم قتيل . وكل لحظة دم ضائع . وعندما اعتلوا سور البيت . أشعلوا النار في الأبواب . وذبحوا الخليفة . وجدنتي وحيداً يتيماً مرة أخرى . لقد إغتالوا كل الذين أحببتهم . فلماذا لا أطلبهم بفتات حياتي . لم لا ألحف في السؤال وإنترع من على وجوههم أفنعة الكرم الزائفة . . أكشف عما في داخلهم من شح ويخل وإنانية . .

حين وضع أحدهم . فالودجه ماسخة أمامي وطلب مني رأيي . . قلت . .
- لعلها عملت قبل أن يوحى الله للنحل أن يصنع عسلاً . .
لم يكن أحد يجود بما عنده إلا خوفاً من الفضيحة . . وعلى في كل مرة أن أجرب معهم حيلة جديدة . .

كنت أرى جدياً صغيراً . وجعلت زوجتي ترضعه من لبها . تذكرت كيف كانت أمي تحملني إلى زوجات الآخرين . وذهبت إلى اسماعيل بن جعفر وأنا أقود الجدي ..

- بالله إنه لا يني . قد رضع بلبن زوجتي وقد حوتك به ولم أر أحداً يليق به سواك
ونظر اسماعيل إلى الجدي . أدرك أنه إزاء حيلة جديدة من حيل . . أولعله خشى أن
تكون فتنة من الفتن . فأمر به فذبح وسمط وأقبلت عليه وهو يأكله أطلب منه المكافأة . .
ففوجئت به يقول ..

- ما عندي والله شيء . . مر بنا فيما بعد ..

وظللت ألح عليه في السؤال حتى أصابني اليأس . فقامت وذهبت إلى أبيه جعفر بن
محمد . . وأخذت أبكي في حرقة وأنا أهتف ..

- وثب إليك اسماعيل على إبنى فذبحه . وأنا أنظر إليه ..
وفزع جعفر وهمهم مرتبكاً ..

- ويلك .. وفيهم .. وتريد ماذا .. ؟

وأدخلني منزله . وأخرج إلى مائتي دينار وهو يتوسل إلى أن أهدأ ويعدن بالزيد .
وأفلت أنا والنقود . وذهب جعفر إلى ابنه فعرف منه القصة الحقيقية . كان كلما قابلني يقول
.. لي

- رعبتني رعبك الله ..
فأقول له ..

- روعة ابنك والله إياي في الجدي أكبر من روعتك أنت في المائتي دينار .
ذات مرة وجدت من هو أبخل مني وأشح . ومن هو أقوى من أن أقاومه . حدث
ذلك حين تولى على المدينة رجل من بني عامر . . وكان من أبخل الناس وأنكدهم . وأغراه
الله بي يطلبني في ليله ونهاره . فإذا هربت منه هجم على منزلي بالشرطة . ويطلبني أن أحدثه
وأضحكه ثم لا أسكت ولا أنام ولا يطعمني ولا يعطيني شيئاً . فلقيت منه جهداً عظيماً وبلاءً
شديداً . . وحضر الحج . فقال لي يا أشعب كن معي . فقلت . بأمي أنت وأبي . أنا عليل
وليست لي نية في الحج . قال . لكن لم تخرج معي لأودعتك في الحبس حتى أعود . فخرجت
معه مكرهاً . فلما نزلنا المنزل أظهر أنه صائم ونام حتى تشاغلته ثم أكل ما في سفرته وأمر
غلامه أن يطعمني رغيفين بملح . وظللت أنتظر المغرب وأتوقع افطاره حتى قال لي
غلامه . . قد أكل الأمير منذ زمن . . فقلت مدهوشاً . . أو لم يكن صائماً . . قال ..
لا . . وقد أعد لك ما تأكله فكل . وأخرج الرغيفين والملح فأكلتهما وبت ميتاً من الجوع .
وأصبحنا فسرنا حتى وصلنا إلى أطراف مكة . فقال لغلامه . . إبتع لنا لحماً بدرهم .

فإبتاعه . فقال . كبيب لي قطعاً . ففعل . فأكله وبصّب القدر فلما اغبرت . قال . إغرف لي منها قطعاً . ففعل . فأكلها . ثم قال . . اطرح فيها دوقة وأطعمني . . ففعل . فأكلها ثم قال . إلق توابلها وأطعمني منها . ففعل . فأكلها . وأنا جالس انظر إليه لا يدعوني فلما استوفى اللحم كله قال . يا غلام اطعم أشعب . . ورمى إلى برغيفين . فجئت إلى القدر وإذ ليس فيه إلا مرق وعظام . فأكلت الرعيفين غيظاً . وأخرج جراباً فيه فاكهة يابسة فأخذ منها حفنة فأكلها وبقي في كفه بضعة نوى . ولم يكن له فيه حيلة فرمى به وقال . كل يا أشعب . . فذهبت أكل واحدة منها فإذا بضرسى قد إنكسرت منه قطعة فسقط بين يدي . ولم أملك بعد ذلك إلا أن أعود ياكباً . . وأقبل اناس بنى مصعب على وأنا في هذه الحالة فصحت بهم الغوث . الغوث . أدركوني يا آل مصعب . . فركضوا إلى وأنا أواصل الهتاف . خذوني خذوني معكم تخلصون من الموت . . فحملوني معهم وأنا أرفرف كالطير الذبيح وحلفت بالطلاق أنى لا أدخل المدينة مادام له بها سلطان . . قلم أدخلها حتى عزل . .

أعرف أننى مهما قلت لن ترهمنى لقد أصبحت أنا المكان الوحيد الذى تلقون فيه نغابات وغبائكم . . ونزواتكم . . عليكم اللعنة جميعاً . .

* وأخيراً حدثنى عنه ابنه . . قال . .

قام أبى السنين طويلاً . وغالط حساب عمره . وجاءت الشيخوخة كالثلج فوق قمة قيسون . . مسخت حكاياته . وفقدت نوادره مذاقها . وارتعد صوته . . وأصبح شيخاً دميماً ثرثاراً . يسعى فى أرجاء المدينة ويذهب إلى حيث لا يريد أحد .

كنت جالسا فى فناء بيتنا مع أمى . . حين رأيتَه يدخل مندفعاً ويهتف بى . . .
- بلغنى إنك تقول النادرة . وتروى الأشعار . . وإن لك حظوة وقد سال الناس إليك . . أوامات إليه موافقاً . . فهتف . .

— هلم اذن حتى أخابرك لئرى من منا احق بالعبية . .

نهضت . كل منا فى مواجهة الآخر . هذا الوعد المعهور لم يكن يريد الاعتراف أن زمنه قد ولى . إندفع يتغنى ببيت ركيك من الشعر وخرج صوته صمغاً متعزراً . . وغنيت أنا بكل ما فى صوتى من نضارة حتى نخاذل أمامى . . ثم اندفع بقول الوادر . . نوادر قديمة فاترة لم تعد تثير ضحك الأطفال . . ولم أسكت . أحرقت كل نوادره . وردت عليها فى نوادرى اللاذعة . وتوقف قليلاً ثم اندفع فى الخطب . يردد الكلمات المسجوعة والمعانى البائرة بصوت رتيب متحشرح . وأخذت ناصية الخطاب منه . . فلاعبت بكل ما فى الكلمات من جناس . وما فى المعانى من تورية . . وفى النهاية إحرطت فى بكاء عنيف . . حتى أن اشمئزازى منه تبدد فى لحظة . فقلت فى أسف .

- لعلى أسأت إليك يا اى
لكنه مهمهم من حلال دموعه .

- أنا بمنزله شجره الموز . إذا نشأ ابنها قطعتها . وأنت نشأت وحظيت . وأنا
أموت .. إنما أبكى على نفسى ..

كان ضعيفاً . مترهلاً . يعبر المدينة طوال اليوم ويعود فارغ اليد ونحو صغار كان
جرايه لا يخلو من طعام أو حلوى . صحيح أننا لم نكن ندرى أى طعام نأكل بالوسط .
فقد كانت كل الأنواع تختلط معاً فى عجينة واحدة . . . وحين يضعها أمامنا يسرع كل منا يملء
معدته . .

كان يبكى نفسه . ويمضى لحظاته الأخيرة ذاهلاً . رثا . كربه الرائحة لكن كل هذه
الأشياء تبدلت فجأة وهوراقد على فراش الموت . وهو يد يده ويمسك بيد أختى ويقول .

- يا بنيه . . إذا مت فلا تندبيني والناس يسمعونك فتقولين وأبتاه اندبك للمصوم
والصلاة . . وأبتاه اندبك للفقه والقراءة فيكذبك الناس ويلعنونى . .

ولم أتمالك نفسى من الضحك المرير . وتسلفت عجوز من المدينة تدعى «صرمية» كانت
صبراء العين . حاسدة لا تنظر إلى شيء وتستحسنه إلا وأهلكته . التفت أن ورآها
فصرخ وهو يغطى وجهه بكمه

- يا صريميه . . بالله إن كنت قد استحسنيت شيئاً بما أنا فيه فصلى على النبى صلى الله
عليه وسلم ولا تهلكينى .
فغضت المرأة وهتفت . .

- سخفت عيبك فى أى شيء أنت مما ستحس . أنت فى الرمق الأخير .
قال اى

- انى احلم ولكنى فاب اثلا تكون قد إسحست حفة الموت على ربه ولة السرع
فشتد على ما أنا فيه
وأخذت العجوز بسبه وهى توجه إلى الباب وبينها كان كل من يحيط بمراشيه
بصحكرون كان اى فد مات



بشار بن برد لا عزاء للأعمى . . لا عزاء للجميع !

دخل أعرابي على جماعة وبشار جالس وسطهم وعليه طيلسان الشعراء . . تساءل الأعرابي من الرجل ؟ .. قالوا : رجل شاعر . قال : أمولى أم أعرابي ؟ قالوا : بل مولى . قال الأعرابي في استنكار بالغ : وما للمولى وللشعر . . ؟ ..

أجل . كان مولى . وكان أعمى . وكان زنديقاً . وكان شاعراً . . وكان اسمه بشار بن برد . .

وعندما جلدوه حتى الموت . وحملت الأمواج جثته كالشاهد الأخرس . عندما سخروا من عماء . من دمامة وجهه وضيعة نسبه . أخذوا لسانه وأعطوه بدلاً منه دنائير مزيفة . مزجوا عذب مائة بالمر . واستقراره بالنفى . عندما حاصروا خطواته المظلمة . كسروا كل ما كان يتوكأ عليه من عصي . أكان مولى هجيناً أم كان انساناً .

أمه جارية عربية . وأبوه عبد فارسي . تزوجا ذات ليلة وعلقت في طفلها الأول . وجاء الطفل أعمى مشوه الساقين . أسمته «بشيراً» وإنطوت تحلم مثل كل الأرقاء بطفل رائع جميل . كأطفال السادة . يحمل كل مباحج الحرية . ثم جاء الطفل الثاني . له ذراع أطول من الأخرى . أسمته «بشر» وأخذت تهلئ من حمى النفاس . ثم أفادت من المرض لتواصل حملها بالطفل الجميل . ثم جاء الثالث . ضحياً . مشوه الوجه جاحظ العينين . تام العمى . أسمته «بشرا» وعندما أقبلت سيدتها لتنهئها ولتبشرها بالعنق شفقة بها وبالمواليد الثلاثة المشوهة . وجدتها ميتة . ووجدت الطفل الأعمى يبكي . يطلب بإصرار حقه في الطعام وفي الحياة .

قال أبو الفرج الأصفهاني . .

- كان بشار ضحياً . عظيم الخلق والوجه . مجدورا . طويلا . جاحظ المقلتين .

يغشاهما لحم أحمر . فكان أفتيح الناس عمى . وأفظعهم منظرا . وكان إذا أراد أن ينشد صفق بيديه وبصق على يمينه وشماله ، ثم ينشد فيأتى بالعجب . .

البصرة . مدينته وعدابه . محفورة في داخله مثل جرح لا يندمل . في كل مساء تتنفس الحواري بالعتن . وتمتلئ القصور برائحة الشواء ، ويموت المبشرون على الأرصفة . تستعر شرارة الشعر في داخله . تحدث جلبه كالأف الجياد النافرة . يسترجع تفاصيل حياته اليومية بالصوت والرائحة . تتشكل بالألوان المظلمة . وتتحول الأحلام إلى أشباح قائمة فيشعر بالكراهية نحو الجميع . . يهتف .

- الحمد لله الذى ذهب ببصرى . .
وحين يسألونه : ولم يا أبا معاذ . . ؟ . .
يجيب : لثلا أرى من أبغض . .

قال الشعر في سن العاشرة . تعبيرا مريرا عن كل ما يحس به . لقد علموه كيف يجيد الكراهية . كل شيء بغيفض . من أول شعاع الشمس الذى يحسه ولا يراه واريح النسوة حين يهدر في أنفه . وبكاء الاطفال الجوعى . وتفأخر الرجال الاجوف . كان احتقارهم له ينفذ عبر الظلام الذى يحيطه . وكان يعرف من ديبب الأقدام أى اناس قادمون وأى اهانة سيتلقاها . . كيف يمكن أن يستقيم العالم وفيه كل هذا العدد الهائل من المبصرين ؟ إنبرى يقول الشعر . لعله يسمل كل العيون التى تكشف عوراته في كل لحظة .

فزع قومه . انتابهم الرعب من هذا الغلام الذى لم يبلغ الحلم ويملك هذا اللسان البالغ القسوة . . كان يراهم كما يرونه . يبصر عوراتهم وسوءاتهم التى جهدوا في اخفائها . ذهبوا إلى أبيه . تأففوا وهم يخاطبون ذلك العبد الفارسى الذى يشتغل «طيانا» يعجن التراب والتبن بالماء ويصبها في قوالب طينية ثم يبنى بها بيوت الفقراء الواطئة . هتفوا مهددين :

- الأعمى قد جاوز حده . إن لم تردعه قتلناه .
بهت الأب . لم يتصور أن يفعل ابنه هكذا بالسادة الذى تعود على طاعهم . أسرع إلى البيت . انهال بالضرب على بشار وهو يصرخ فيه . .

- يا أعمى القلب . كيف تهجو السادة . يا أعمى اللسان .

لم يأبه الغلام بالضربات . كان سعيداً لأنه خدش جلودهم السمكية . كلت يد الأب وهو يتسهم . شرح له الأمر ببساطة متناهية : يا أبت . إن هذا الذى يشكونه منى إليك هو قول الشعر . وأنى إن داومت عليه أغنيك . وسائر أهل . فإن شكوتى إليك قل لهم . . الله يقول «ليس على الأعمى حرج» . وانصرف إليه الأب غير مصدق . من أين يمتلك ابنه كل هذه الفصاحة . تركه ومضى يعجن الطين ويضرب الطوب ، وأتى السادة ، فلم يلتفت

إليهم ، للمرة الأولى في حياته عاملهم بترفع بالغ . وهتف بالآية القرآنية «ليس على الأعمى حرج» . . نظر السادة إلى بعضهم ثم انصرفوا وهم يهمهمون . .

- فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار . .

لقد قوى فقد بصره من مرارته . ودفعته المرارة إلى حافة التمرد . وكان الهجاء وسيلته لفرض قوته العاجزة . . وحين سُئِلَ لماذا يكثر من الهجاء قال :

- إني وجدت الهجاء المؤلم أشد فائدة من المديح الرائع ، وإني في الهجاء أخاف فأعطي .

تبرم بالناس جميعاً . وأولهم أخواه . كانا قصابين بالبصرة . لم يتركا في حاله . ظلاً يستعيران الأثواب التي تهدي إليه فيوسخاها . أقسم ألا يعيرهما أى شيء فكانا يأخذانها دون إذن منه . وهكذا عندما كان يلبس أى ثياب يجدها متسخة . ملطخة بدم الذبائح ولا يجدها بدأ من الخروج للناس . وحين يسألونه عن هذه الرائحة يجيب : هذه ثمرة الرحم . . ثم يهتف في حنق بالغ :

- اللهم إني قد تبرمت بنفسى . وبالناس جميعاً . اللهم فارحمي منهم .

ولكن لم يكن مقدراً له أن يريح أو يستريح إلا بعد سبعين عاماً . .

قال الأصمعي :

- بشار سلك طريقاً لم يسلك . أحسن فيه وتفرد به ، في وقت لم يتجاوز فيه الشعراء مذاهب الأوائل .

سبعون عاماً كاملة . لم يترك همسة تسلفت إليه . أو لحظة عاشها . أو حلماً طاف بذهنه . إلا وترجمه إلى صورة شعرية . وكتب من القصائد عدداً لم يبلغه أى شاعر آخر . .

- لى اثنتا عشرة ألف قصيدة . لعنها الله . ولعن قائلها إن لم يكن في كل واحدة منها بيت عين . .

لم يبق من كل هذه القصائد إلا أقل من ألف بيت فقط . تحمل في كل شذراتها المبتورة عذابات الشاعر الأعمى . ما بين إحتقار الموالى في أواخر أيام الأمويين ، حين كان يبدل ماء وجهه وطاقته ليختلق لنفسه نسباً مع بنى عقيل . ثم هوى نجم الأمويين وصعد الموالى إلى دست السلطة . وتعقب العباسيون وأعوانهم من الفرس الحكام القدامى . . لكن «بشار» لم ينتبه مبكراً لهذا التغيير . كان يعيش نبض مدينة البصرة الخصاص . مدينة الفكر والفتن والأهواء السياسية ، يسمى في دروبها الزنادقة والمعتزلة والخوارج . تحمل عقدة ذنب العلويين . عندما خذلوا «على بن أبى طالب» وباعوا أولاده . وتشبع بشار بهذه الروح المذبذبة . وعندما جاء إبراهيم بن عبد الله بن الحسن يقود آخر ثورات العلويين ؛ يحاول أن

يناطح العباسين وهم في أوج قوتهم . وقفت البصرة كلها خلفه . لعله ينتصر . لعله يخفف قليلاً من عقدة الذنب . وكتب بشار القصائد مدحه . يجرضه . يضع بين يديه حلم العدل الشامل . لا مولى . لا عبد . . لكن الثورة فشلت . وصلب إبراهيم . وتحولت القصائد إلى أدلة اتهام . .

لم يكن هناك بد من السير مع مد الرياح . الوفاء للموتى بلاهة . وما دام إبراهيم بن الحسن قد قطعت أوصاله فلتقطع أوصال القصائد التي كتبت من أجله . وبدلاً من أن يبحث العلويين على الثأر حرض العباسيين على الانتقام . أدرك أن المعزالي - خجله القديم - أصبحوا قوة الدولة الجديدة . إنقلبت كل موازينه . أظهر اشتماراً بالغاً من نسبة العري . وأعلن انتسابه كاملاً وواضحاً للفرس . وضع لنفسه سلسلة من الانساب الزائفة تضم ستة وعشرين جداً اسماً هم أعجمية . .

قال الجاحظ :

- وكان بشار يدين بالرجعة . ويكفر جميع الأمة . ويصوب رأى إبليس في تقديم النار على الطين . .

كان بالبصرة حمسة من أصحاب الكلام . منهم بشار . وواصل بن عطاء وآخرون . كانوا يداومون على الاجتماع والنقاش كل ليلة . يفندون حكمة السلف وفلسفات اليونان واجتهادات الفرق الإسلامية . عقول متقدة كانت تبحث بإصرار عن نوع من الخلاص الفكري . منهم من أثار الاعتزال مثل واصل بن عطاء . . ومنهم من رجع يائساً إلى مفاهيمه البدائية الأولى . ومنهم من آمن بالمذاهب المتطرفة . وبقي بشار . حائراً مختلطاً . يحيط به ظلام كثيف لا يجد ما يضع يده عليه ويوقن به . العالم ملء بأرواح الموت وأنفاسهم . الأجساد تتحول إلى تراب في المقابر . وتتشكل الأرواح في أجساد جديدة . لم يعد هناك سبيل آخر غير الاستمسك بكل ما تتيحه هذه الحياة القصيرة من متع .

كان لبشار نظره الخاصة للعشق . المرأة عنده لا تخرج عن دائرة الحواس . في الظلام لا قدرة يمتلكها على التخيل . إنها مجرد انثى . وانتشر هذا المفهوم بطول البصرة وعرضها . إنه يلح ويفرد أبيات شعره الطويلة في وصف المتع الحسية . إنه يعرض كل ما لديه من نوازع النقص .

حاول أن يصل إلى بلاط الخليفة في بغداد . أجهد نفسه في قصائد المديح . لكن أبا جعفر المنصور كان شحيحاً في معاملته للشعراء . وكان يكره العميان أيضاً . وظل بشار الأيام الطويلة أمام باب القصر دون إذن بالدخول . ولم تواته الفرصة إلا حين جاء المهدي للحكم . لكنه لم يصبح أبداً أحد الشعراء المفضلين . حقاً إن بلاغته لا ترقى إليها بلاغة . لكن من الذي يفسر نفسه على الاستماع لهذا الأعمى القبيح الذي لا يكف عن البصق . . ؟ .

انتشرت أشعاره الحسية . حفظها الشباب وتمثلتها الفتيات . أصبحت أخباره مثلاً يحتذى . ضج المعتزلة . الأصدقاء القدامى . إشتعل الأزواج من الغيرة . . وفارت دماء الآباء . وسار الشيطان طليقاً في شوارع البصرة . وخرج واصل بن عطاء من عزله وقف في المسجد يمرض الجميع :

- أما لهذا الأعمى الملحد من يقتله . أما والله لولا أن القتل ليس من سيجتي لدست إليه من يقر بطنه .

وتناهت الأخبار . كثرت المبازل . أوغل فيها حين عرف أن المعتزلة قد أهدروا دمه . حين أصدروا الفتاوى في زندقته والحادة ، أصدر هو فتوى في تكفيرهم ، بل وتكفير الأمة كلها .

وتجمع الغوغاء فرجوا منزله بالأحجار . جذبوا لحيته ومزقوا ثوبه وهو يسعى في الطريق . تعرض للقتل ولم تنج إلا المصادفة . واستطاع واصل بن عطاء أن يستصدر أمراً بنفيه خارج البصرة .

تشابه البلاد في عين الأعمى . لكن للغربة مرارة حارة . كانت قدماه قد ألفتا حصي البصرة . ومنعطفاتها . . كل حى له رائحة . وكل سوق له ضجة . لكنه الآن إذ يدب بعصاه في أرض البلاد الغريبة يشعر بمدى كثافة الظلام . . كتب القصائد . توسل للخليفة . لكن الخليفة لم يكن ليغامر بنفوذ المعتزلة وفيهم صفة المفكرين . . من أجل شاعر واحد . ضمير . ونصف مولى . لكن واصل مات . وألحف بشار في الرجاء حتى سمح بعودته . . شريطة ألا يقول بيتاً واحداً في الغزل .

عاد . وعادت معه مرارة النفي . تكاثرت أعداؤه . أصبحوا مدينة بأسرها . مدينة لم يرها أبداً لكنه أحس بكل جروحها في أعماقه . أخذ يهجوم بحرقه . فجر كل طاقته في الإيذاء . يمرض الموالى على ساداتهم . والجواري على سيداتهن . أصبحت أبيات الشعر سهاماً مسمومة ترمى . أخذ المعتزلة يرمونه بالزندقة والألحاد . وأخذ هو يرميهم بالكذب والنفاق بعد أن باعوا العالم بلائمن .

تكاثرت الشكاوى أمام الخليفة من أشراف البصرة وساداتها . لقد حول الشاعر الضمير المدينة إلى جحيم . إستدعى وزيره يعقوب بن داود . أرسله بالهدايا والهبات إلى البصرة . . وأن يستقصى ما كان من خبر بشار .

إنهالت هدايا الخليفة على كل شعراء البصرة ولم يظفر بشار بشيء . كان هذا إعلاناً بسيطاً لغضب الخليفة . لعله يبادر بالاعتذار . بالتوسل . لكن رد فعله كان مخالفاً . خرج

من بيته . سار في الشوارع حتى حلقة يونس النحوى . أكبر مجتمعات المدينة الفكرية . .
سأل في تحد :

— هل هنا من يخاف . . ؟

أجابوه بالنفى . إندفع في الهجاء المقلدع . يهجو الخليفة المهدي . عرش مختصب .
ونسب عباط بالفضائح . وصفات حيوانية .

وفي بغداد دخل يعقوب بن داود على الخليفة . إرتمى تحت قدميه وهو يتف في فرع .
— يا أمير المؤمنين . . إن هذا الأعمى قد هجاك .

بوغت الخليفة . . سأل بأى شيء . . قال يعقوب مهولاً :

— بما لا ينطق لسان . ولا يتوهمه فكرى . والله لو خيرتني بين إنشادى إياه وضرب
عنقى لأخترت ضرب عنقى .

واستثاره الخليفة بما فيه الكفاية . أمره . استحلفه . وأخيراً وافق بن يعقوب على أن
يكتب الأبيات على رقعة . وقراها الخليفة . بكل ما فيها من سخونة وغضب . تطاير الشرر
من عينيه . لم يصدق أن يجرؤ واحد من رعاياه . . مجرد مولى . أعمى . أن يصفه بتلك
الأوصاف . وصرخ في الجند أن يستعدوا . . وليزحف الجميع إلى البصرة . .

أصبح بشار فآرا وحيدا في مصيدة ضيقة . قطع جسوره مع الجميع ولم يعد أحد بقادر
على أن يمد له يد المعونة . وضع الجنود أيديهم عليه . ساقوه مكبلاً لمجلس الخليفة وشهدوا
ضده :

— هذا الملحد يا مولاي . كان يؤذن للصلاة في غير موعدها وهو سكران . .
وشهق بشار في دهشة . لقد ارتكب الكثير من الذنوب . لكن من أين أتته هذه
التهمة ! ساقه الخليفة لتعديده على حرمة الدين . لم يذكر السبب المباشر لغضبه صرخ :

— سوف نحاكم هذا الزنديق .

وقف بشار وحيداً . وأنشبت المدينة أظفارها في جسده . تكاثرت التهم . خرج
الشهود من كل فجاج البصرة . أصوات لا يعرف معظمها . كلهم رأوا خطاياهم وشهدوا
ذنوبه . ولم ير لهم ذنباً ولا خطيئة . والله العظيم أقول الحق ولا شيء غير الحق . شهد
الأول أنه سمع بشاراً يقول عن شعره أنه يزرى بأذان الصلاة . وقال آخر سمع بشار حمير
البصرة وهي تصنع ضجة يوم السوق فزعم أن القيامة قد قامت . وشهد جمع كبير من الدين
كانوا يذهبون لسماع شعره أنهم اجروا اختباراً عليه . كانوا إذا حضرت الصلاة يقومون
ويبقى بشار جالساً . فوضعوا حول ثوبه تراباً ليسروا إن كان ينهض أم لا . . ثم عادوا

فوجدوا التراب كما هو . وتوالت الشهادات ضده . . حتى جاءت شهادة سعيد بن القعقاع .

كان رفيق بشار في نزواته فسقه . وقال له ذات يوم : لقد نسبنا الناس إلى الزندقة . فهل لنا في الذهب للحج حتى تنفى عنا ذلك . ووافقه بشار . اشتريا بغيراً ومحملاً ومتاعاً وتزودا بالطعام وبدأت رحلتها . ظلاً يهدان في السير حتى وصلا الكوفة وانفتحت أمامهما الصحراء وكان باقياً بينهما وبين الحجاز حوالي ثلاثمائة فرسخ . وزفر بشار وهو يقول :

- ويحك يا سعد . كيف نقطع هذه المسافة . دعنا نقيم أياما في حانات الكوفة ! نسكر ونمرح ونغازل النساء حتى إذا عاد الركب انضممنا لهم عند القادسية . .

ووافقه سعد على الفور . أخذوا على بعضهما الموائيق والأيامات المغلظة ألا يفشى أحدهما سر الآخر . وقبعا في إحدى الحانات ، حتى حان موعد عودة الحجيج فأسرعا إلى أقرب حلاق ، ثم انضما للركب عند القادسية . وصلا للبصرة . لبس بشار طيلسانه وجلس في وقار يستقبل وفود المهثين . ويحكى عن لحظات الخشوع .

كانت كل هذه الشهادات وبالأخص آخرها كافية لأقامة الحد عليه . ودفع المهدي بالشاعر إلى حمدون صاحب الزنادقة . . وأمره :

- إضربه ضرب التلف . .

أخذوه . . قيده على سطح سفينة تسير بموازة الشاطئ . حتى في موته كان مقدراً للجميع أن يحظوا برؤيته . عروا ظهره . أخرجوا السياط المنقوعة في الخل . وهوى السوط الأول على ظهره فأستيقظت البصرة كلها . هرعوا للشاطئ . وسارت السفينة ببطء . . هوى السوط الثاني . فزعت طيور النهر . وتجمد السمك من الرعب . تمزق لحمه من أعلى لكتف إلى أسفل الخصر . جحظت العينان . أوشكتنا أن تقفزا من وجهه . هتف :

- ويلك . . أوجعتني . .

قال حمدون وهو يرقق بالسوط : يا زنديق . . أتضرب ولا تقول باسم الله . .

تأوه في مرارة وهو يتلقى الثالث . . والرابع . .

رأى الجميع طرف السوط وهو ينثر دمه في الهواء . النساء اللاتي أوقف شعره من أجلهن . والفتيان الذين تمثلوا أخباره . والموالي الذين حرضهم على الحلم بالحرية . والمعتزلة الذين جلدتهم هجاء . . والسياط تمهوى . والخل ينفذ خلال الجروح فيكويها من الداخل . وحمدون لا يهدأ . ستون . واحدة وستون . اثنتان وستون . إحتقن الوجه الضريع . ثم تحول إلى الأصفرار . . ثم الزرقة . . سال اللعاب مختلطاً بالدم . . أخذ يهلى . ينادى أمه التي لم يرها . وأبوه العبد . وربقة الأسر التي كبلت روحه . وحمدون

كلت يده . ثمان وستون . تسع وستون . وهتف أهل البصرة في صوت واحد . .
سبعون . . وجاء الصوت من أعلى الصاري :

- مات الشاعر الزنديق . . مات بشار بن برد .

وانتشر الخبير المفرح في أرجاء المدينة . هنا الأشراف بعضهم البعض . وانكسر الموالي
في صمت . إرتفعت أصوات الغناء في القصور . وأخرجت الصدقات التي طال تأجيلها
وانهالت الهدايا على حمدون . لم يبق بيت من الأشراف إلا وأرسل له كسوة وعطاء . ولم تبق
إمرأة لم يثرها طرف السوط الدامي إلا وأرسلت له جاريتها . والقيت الجثة في مكان ضحل
على جانب النهر . لكن الموج حملها . سار بها إلى الشاطئ . عكس اتجاه السفينة التي جلد
فوقها . وتعطف البعض على الجثة الممزقة فإنتشلوها . لفوها في ثوب قديم وساروا إلى مقابر
الصدقة . لم يشيعه أحد إلا جارية سوداء أعجمية تصيح خلفه بلهجة غير مفهومه . .

- واسيداه . . واسيداه . .

لكن مظاهر الفرح في البصرة كانت أكبر من أن يكدر صفوها نواح تلك الجارية
السوداء التي لا تفصح .



عليّة بنت المهدي الحب بعيداً عن ضوء الشمس

* هل كانت عليه بنت المهدي تحب الغلام المدعو «طل» حقاً - أم كانت تلك مجرد نزوة حمقاء ... ؟ ..

الحب نبات برى في حاجة دائمة لوجل الطريق وشمس الساحات الواسعة . وكانت هي بنت الخليفة الماضي . وأخت الخليفة الحالي . وعمّة الخليفة الآتي . عروق متشابكة لا يجرى فيها إلا دم أزرق نبيل . بينما يتأجج دمها بالعشق . كأنها غزالة مدبوحة كانت عليه بنت المهدي . في الليل عيون الحرس . وفي الصبح آذان الخصيان . والواشون لا يكفون عن السعي بالنميمة لهارون الرشيد . .

- يا مولانا . . أختك عليّة تحب خادمك وحامل كأسك «طلا» .

يهدر هارون الرشيد غاضباً . ترتجف السحابات وتمطر في اقصى الأرض . فيأتى الخليفة خراجها . كانت الخيل تدهس الورد في شوارع بغداد . والسماك يطفو ميتاً في الرصافة . ولم يكن الرشيد يعرف شكل هذا الغلام المدعو «طل» ، فالعبيد جميعاً متشابهون في الملامح ويعملون نفس الأسماء . ويعمرون عدداً متساوياً من السنين . وسوف يكون من المستغرب أن تعشق عليّة اخته عشب الأرض وفي مقدورها أن تدهسه بقدميها ! لكن السنة الوشاة لم تكف . . ومن هو هذا الطل بالضبط ؟

ثم راه ذات منتصف ليلة . كان عائداً وبصحبته مسرور السيف . رأى القصر يمحج بالضوء الغريب . همس لمسرور في خوف . .

- هل شعروا بغيابنا . . ؟ ..

ضحك مسرور وهو نصف غائب . .

- إنها اختك «علية» تغنى يا مولاى ..

إنساب صوتها كحلحلم مصفى . ورأى الرشيد فى سماء الحديقة أقماراً ملونة لم يرها من قبل . والحراس يبتسمون خلال نومهم . وزهور الحديقة مشرّبة . متفتحة الأوراق تنتظر الشروق . اجتاز الأروقة حتى وطبل إلى جناحها . والصوت يزداد لوعة وارتفاعاً ..

.. ولا خلا منك قلبى ولا جسدى ..
كلى . بكلك مشغول ومرتمن ..

ارتعد هارون الرشيد ، كان الهواء يحمل عشقها للمدينة النائمة . سوف تستيقظ وتفتح نوافذها . وغدا يرددون الخبر فى الأسواق والحانات . أزاح الستائر وإقتمح المخدع ورأى عليه . أخته جالسة على الأرض والعود فى يدها . بينما يجلس ذلك المدعو «طل» على أريكة مرتفعة ، يرتدى ثياب السادة ويشرب من كؤوس السادة ، وفوق رأسه عمامة حريرية ضخمة . شهق فى غضب . سقط العود من يدها . خر الغلام ساجداً . تدهجرت العمامة الحريرية فاكتشف الرشيد أنها إحدى عماماته . مهمت عليه .. يا سيدى . يا مولاى .. كانت شاحبة مأخوذة كأنها تحتضر . أخذ الرشيد يهدر كالبركان .. هتف مشيراً للغلام الساجد ..

- يا مسرور اقتل هذا الغلام ..

. هتف مسرور : أمر مولاى . وضع يده عند خاصرته ثم هتف مرعوباً ..

- السيف يا مولاى . لقد نسيتته .

إرتبك الخليفة . نظر للمرأة الباكية . والغلام الساجد والشموع المطفأة وقال فى يأس ..

- ضعه فى السجن اذن . وغدا لنا حساب آخر ..

* ولكن . لماذا احبت عليه بنت المهدي الغلام المدعو «طل» . وهل أحبها هو ؟ .. كان السجن مظلماً مليئاً بالبواغيت والقتلة والشعابين والقادة أصحاب النباشين ومقطري الخمور والفئران والبصاصين والسحالي وكتاب المخطوطات . وكان جسد «طل» مدهوناً بالزعفران . وعندما رقد على الحصيرة المجدولة شعر بها تدخل فى لحمه . أحاطته أنفاس السجناء بسحابة لزجة . فشعر بكراهية عميقة لعلية بنت المهدي أكثر من كراهيته للصائد الذى أسره والنحاس الذى باعه . وكان الحارس قد لكزه بعنف وهدده إذا أحدث شغباً . وقدم له طعاماً عفناً فظلم جائعاً . ولاحظ الرشيد للمرة الأولى أن العبيد مختلفى الوجوه يقدمون نفس الكأس حقاً . لكن هناك إبتسامة غريبة على وجوههم لا يقدر أحد على امتلاكها . إنهم كثيرون . تزدهم بهم الزوايا والممرات والأروقة . إن لهم لغتهم الخاصة .

رغم أنهم فرس وترك وديلم وشركس إلا أنهم يتحدثون لغة واحدة . كيف يمكن النوم ومثل هذه المخلوقات تتسكع على أبواب المخادع . .

وكانت القصة تزداد في قلب «عليه» . كلما فشلت في رشوة حارس . وكلما أرسلت طعاماً أكلمه الآخرون . وشاهدت طائراً يعبر النهر ويغيب وسط المقابر في الضمة الأخرى . توجهت إليها . رأيت زهرة الصبار الوحيدة ترتعد . هتفت . .

- يا أمى . . أنا أحب .

حملت الريح الباردة الصوت إلى «مكنونة» المروانية وهي مسجاة داخل المقبرة تلوك قطعة من الصبار . مزقت الكفن ونهضت . وجلست على حافة الشاهد . قالت عليه

- يا أمى . الرشيد يكرهني وبقية آل العباس يكرهونني حتى أخى إبراهيم حرموى من رؤيته . و«طل» في السجن ماذا أفعل ؟ .
القيت مكنونة قطعة الصبار وهتفت . .

- كلهم هكذا . لا يفكرون أبعد من أنوفهم . كنت جارية المهدي . ملح طعامه وقارورة عطره - كما يقول - كنت أغني له طوال الليل حتى يستريح صدره من الحشرجة وأجلس عند قدميه أغسلها بماء الورد عندما إقتحمت زوجته الباب كأنها عمرة جائعة تقبض على شعري وتجرجني على الأرض . يومها كنت حاملاً فيك . . ولم أدر كيف نجوت من شرها . . ؟

أكدت عليه ببلامة : لكن الرشيد أخى ويحبنى ؟

- والفرس أعوانه . والبرامكة وزرأؤه . والترك مواليه . لكن من يأمن له . كلهم ذئاب ينامون مفتوحى العيون . .

تناولت قطعة الصبار . وقبل أن تهبط لقبورها لمست جبين عليه فأحست كأنما سهم من الثلج يخترق رأسها .

فتح «طل» عينيه في فزع . رأى وجوه السجناء الشرهة . شم أنفاسهم اللرجة وكانت أظافرهم أشبه بالمخالب الجارحة . ضحك الحارس وهو يشاهد المنظر من كوة الباب . ما أطول ليالى السجن وما أقل التسلية بها . وكان رسل شارلمان يحركون أقدامهم وأرجلهم كما تقضى أصول اللياقة في بلاط أوربا وحاشية الخليفة غارقة في الضحك وكان كاسحو الأوساخ يعدون عدتهم لإضراب عام . وياتت المدينة ليلتها الثانية والقارورات تملأ الطرق . وسعى الشعراء إلى اديرة الرهبان للحصول على اصناف الخمرة الجيدة . وإنتصرت جيوش الخليفة في إحدى المدن البعيدة في السهوب . وانتقلت الأبناء عبر اروقة القصر : «عليه» عاشقة . عودها مقطوع الأوتار . والنجوم غرقى في النهر . إجتاز مسرور

بهو العرش حيث كان الرشيد يعبث في لحيته وهو يتأمل حركات رسل شارلمان المضحكة .
همس في أذنه .

- يا مولاي اختكم «عليه» مريضة وعلى وشك الموت .

* لماذا غضب الرشيد هكذا . . رغم أن هذا يحدث في أحسن العائلات . . ؟ . .
كانت عليه تهذى . توقف الرشيد أمام فراشها . شاهد وجهها المحتقن . ونظرة
الأسف في عيون الأطباء . شق ثوبه . ونثر عليها اللؤلؤ . وظلّت تهذى . والأطباء
يحاولون فتح فمها قسراً ليدخلوا فيه شراب الأعشاب . شعر بالحنق لأنها احبت خادماً .
كانت غزالية مجنونة . يسرى في عروقها دم مضطرب . لم تبالي بقصائد التشبيب ولا
بإنتصارات القادة . ولا بثروة التجار . لا تكف عن الغناء والهذيان . . كان الموت رقية
مطوية تحت وسادتها . ذات مرة . إختل الرشيد بجارية رومية جديدة . وشعرت زوجته أم
جعفر بنيران الغيرة الحارقة . ذهبت إلى عليه وقصت عليها الأمر . ضحكّت . قالت
تطمئنها . .

- لا يهولنك هذا . فوالله لأردنه إليك . وقد عزمنا أن أقرض شعرا وأصوغ فيه لحنا
وأطرحه على جوارى . فلا تبقى عندك جارية إلا بعثتها إلى .
وعندما جاء العصر لم يشعر الرشيد إلا و«عليه» قد خرجت من حجرتها . وكذا أم
جعفر ومعها زهاء ألفى جارية . كلهن في زى مختلف . وزينة . مختلفة . يغنين لحناً واحداً
صنعتة عليه . .

منفصل عنى وما قلبى عنه بمنفصل . .
يا قاطعى اليوم لمن نويت بعد أن تصل .
نهض الرشيد طرباً . أجلسها واحدة عن يمينه وأخرى عن يساره . وهتف

- اطلبى منى ما تشائين . .
اغرورقت عينا عليه بالدموع وهتفت .

- هب لي «طلا» يا مولاي . .
زبحر الرشيد غاضباً . .

- يا مسرور أقطع رقية عليه . .
مد مسرور يده بعنف ليمسك السيف . لكنه ركع باكياً أمام الرشيد . .

- ساعنى يا مولاي . السيف قد رهناه بالأمس .

* هل غفر الرشيد حقاً لعلية وطل والبرامكة وأدار لهم خده الأيسر . . ؟ . .

بعد عشر أيام وعشرة ليالى أخرجه . ضحكوا في وجهه . قالوا إنها غلطة الرشيد غضب لأنه فوجيء بالأمر . أشار ظل للمسجونين . كان يريد أن يصرخ فيهم :

- لقد اغتصبوني .

استيقظت جروح الأظافر الصغيرة . سلمه الحارس للخصيان وسلمه الخصيان للجوارى . قلن ..

- ما أشد كراهية راثحك . علينا أن نعدك لتكون جديرا بحب علية ..

خضع الرشيد . دبت الحياة في جسد علية . تولى أحد الصناع ترميم عودها الأثير . تجول الرشيد ورأى الأوساخ في كل مكان فأمر بإعدام كل كاسحى الأوساخ . وعاد رسل شارلمان يحكون عن عظمة بغداد وسطوتها ولكن ما أغرب راثحتها . بنى جعفر البرمكى قصره العاشر . وقالت العيون إنه بناه لإستقبال العباسية . وتمت الرشيد . اللعنة على العباسية وعلى علية . لكنه إبتسم حين زارها .. قال .. لقد بررت بوعدي . إبتسمت كأنها طفلة تلعب معه في الحديقة ، رأى في جبينها ندبة غريبة لم يكن قد رآها من قبل كانت تخفيها تحت عصابة من لؤلؤ . سأها عنها قالت ..

- لمستنى أُمى «مكنونة» ذات مساء . خرجت من قبرها ولستنى .

لم يكن مستعداً للعود للهديان مرة أخرى ففكر في نفسه : فلاقتل البرامكة وأهدم قصورهم لعل هذا يخفف من توترى . غسلت الجوارى «طلا» بالعطر للمرة الخامسة . لكن راثحة السجن الثقيلة ظلت تشع من كل خلاياه . نهضت علية . تزينت . وخرج الرشيد في رحلة الصيد . وإستلقى ظل على الفراش الحريرى .. قالت علية ..

- لقد أحببتك دائماً يا ظل . حين غبت عنى ذات مرة . خرجت من نافذة حجرى وسرت على حافة الافريز حتى نافذتك . يومها غنيت . من اجلك أمشى من موت إلى موت .. ؟

وكان ظل يفكر في الحبل . حبل طويل يربط ساقه مع بقية العبيد . من أقصى السهوب الباردة . حتى أسواق بغداد . كان مؤلماً . ثم تكون تحت جرح . تحول إلى قرحة ، تداخلت اليافه مع أنسجة القدم . وظل الجرح يدمى صديداً وأطراف الحبل في داخله . أوقفه النخاس ودهن جسمه بالزيت . أصبح غلاماً . أوهموه أن هذا امتياز له لأنه لم يصبح خصياً . مثلها أوهمته علية أن جها امتياز له .

.. قالت له :

- هل أغنى لك . هل تتمنى شيئاً ..

كانت قريبة وبعيدة . بيضاء . شاحبة . تشبه الصائد وتشبه النخاس . وتظن . هل

تجنى ؟ هل .. هل .. نهض نصف نهضة . تأملها قليلا فرأى فيها بغداد . رفع يده وأهوى عليها بصفعة قوية ..

* كيف تذكر مسرور أخيراً أن يحمل سيفه — وما تأثير ذلك على امور الدولة .. ؟ ..

المأسة . إنهم يطلبون منه السيف في غير الوقت المناسب .
كان ظل ينام على الحرير ويلبس الحرير . وينسج الموت مثل عنكبوت دؤوب خيوطه الحريرية حوله . كل لمسة منها طوق جديد من أطواق العبودية . لقد أذلوه ، استنزفوه ، لم يبق إلا أن يعلن موته رسمياً .

أمسكت عليه العود وغنت فخرجت من النهر عشرات الضفادع . وجاء للخليفة واثق ثان . وثالث . ورأى الخليفة العلامات الحمراء وقد أصبحت زرقاء . وازداد جسدها نحولا . أصبح الخبز بحجم القصر واتسع فأصبح بحجم الخلافة . وأدرك مسرور أن الوتت قد حان فلم يعد يخلع سيفه أبداً . وكان الرشيد نائماً فرأى الخصييان والعبيد يتناولون عليه . وخرجت السحالي من بيت المال الفارغ . كون العبيد من أصابعهم حلقة واحدة أخذت تضغط على عنقه . حاول أن يصرخ ، فوجىء بشخص آخر هو الذى يصرخ . كان يحلم . وكان الصراخ حقيقة فتح باب حجرته ، كان مسرور نائماً والسيف بين ذراعيه . والصراخات تنتهى من جناح عليه . إستيقظ الحرس والعبيد . إقتحموا المخدع . وأزاحوا الستائر . كانت عليه ملقاه على الأرض و «ظل» يمسك السوط . يهوى عليها ويضحك بتشف . لم تكن تقاوم الضرب كثيراً . رأهم ظل فازدادت درجة سروره . كأنما يقف على حافة الجنون .

كان الرشيد هادئاً . أشار لهم فاقتادوه . ألقى السوط . سار طيعاً وهو يضحك . امتلأت الأروقة بالغللمان . كانت عيونهم تلمع بشدة . ساروا للحديقة . أسرع آخرون فأحضروا المشاعل . تحاملت «عليه» ونهضت . نظرت من النافذة ، وكانت ترى شبحه والأضواء المتراقصة . والصدى يبدد ضحكاته الغريبة . والغللمان يتكلمون . لم تكن هى المرة الأولى التى يشاهدون فيها إعدام احدهم . لكن الضحك يرسل داخلهم رعدة باردة . كأنما يشاركونه نصيبه فى الموت . ربطوا يده خلف ظهره . حاول مسرور أن يجلسه محنياً ليسهل مهمته . رفض وظل واقفاً . تجول الضحك إلى ما يشبه العواء . أحس الغلمان والخصييان والجوارى بوجوه النحاسين تطل من بين الأشجار . تقتحم قشرة الليل . كان الضحك يختلط بصليل الجرس وصيحات المنادى . . رسا المزاد على الموت من يدفع أكثر .. يدفع أكثر .. أكثر .. الحبل يصنع الجرح . والجرح يعقب بالعفن . وظل يواصل العواء . لم يجد مسرور بدأ من أن يمسك السيف ويطيح برأسه وهو واقف . ويبدو أن الضربة كانت قوية بعض الشيء لأن الحراس ظلوا طوال ثلاث ليال يبحثون عن الرأس فى كل أرجاء القصر والحديقة ، فلم يجدوها .

عبادة الطنبورية الغناء من أجل الفقراء

يوم سوق بغداد الكبير ضل طفل عن أبويه . سار حتى وصل إلى مكان منعزل على نهر دجلة . كان سعيداً بهذه الحرية المؤقتة . رغم أن النهر كان غائضاً والوحل يغمر الشيطان ، كانت هناك نشوة خاصة للمراكب الراسية العارية من الأشعة ولعقود السمك وهي تنفرط وكانت طيور الماء تخلق ببطء ما بين قصور الرصافة وأوكار الصيادين الفقيرة .

لكنه توقف أمام شيء غريب . . جسد شبه عار منبسط وسط الوحل . . إقترب وهو لا يدري حقيقة ما يراه . عرف أنه جسد آدمي . عرف أنها امرأة ، شعرها الطويل الفاحم كان منسدلاً مختلطاً بالوحل . واليد قابضة على آلة خشبية مقطوعة الأوتار . لمس الجسد فوجده بارداً . لمس وترا كان مازال مشدود فأصدر رنة غريبة ، ترددت ثم دابت ، ولم يتحمل وطأة الصمت ، بكى بصوت عال .

أقبل بعض الناس . صيادون . بحارة . عابرو طريق . . أخذوا الطفل بعيدا وقلبوا الجثة وأزاحوا الوحل عن الوجه الأزرق ومهامس الجميع .

- عبادة الطنبورية . . أجل عبادة .
جاء أحد حراس الخليفة بزيه الأسود . فرق الجميع وأمر فأحضر غطاء والقر عليها . . وأنصرف الناس وحفظ الموضوع . .

كانت هذه جثة عبادة الطنبورية . . والآلة الخشبية المهشمة التي مازالت قابضة عليها هي الطنبور التي كانت توقع عليه انغامها . .

هدأت الحرب الأهلية في بغداد بعض الشيء إنهمزم الأمين واستوى المأمون ذو الأصول الفارسية فوق دست الخلافة ، وتواصلت حلقة أخرى من حلقات الدولة العباسية ظل

الأغنياء في القصور والفقراء على ارضفة الكرخ وسط أكواخ الصيادين والأوكار المشبوهة . كان المغنون يجردون كل العصور ويدينون بالطاعة لكل الخلفاء . والأدباء يؤلفون الكتب أو يترجمونها عن اليونانية والسريانية فيعطون مقابل وزنها ذهباً . والشيعية يطرزون الرايات ويجلون أطراف الأسننة . والعلويون ينتظرون عبثاً ذلك الأمام الذي سوف يعيد الحق لنصابه . والشعراء يقولون أشعاراً جيدة في الخمر وردثة في العشق . والرهبان يقطرون الخمر في الاديرة ويهربونها للخارج . والبحارة يعودون متعبين من الأسفار الحاسرة يحكون عن السندباد وعن جزر الزبرجد الغارقة . . وكانت عبيدة الطنبورية تغنى . .

« كل شيء سوى الخيانة . .
.. فى الحب يتحمل »

عبيدة . . نمط غريب من الشخصيات التي ترجم لها أبو الفرج الاصفهاني . تقف وحدها شاذة وسط مركب الشعراء الفحول والفرسان والأمراء . بعيدة خارج دائرة الأنساب الشريفة . وعن هالات المجد . لكنها أكثرها قرباً للحياة . .

في «الآغان» تتفجر النساء بنوع غريب من النشوة . والرغبات الحارة . يرتفعن فوق حاجز الاخلاقيات المتعارف عليها ليضعن أخلاقياتهن الخاصة . وأنماط حياتهن الخاصة . وأبو الفرج يدهشنا بهذا الهدوء والموضوعية التي يتسم بها وهو يورد هذه الأخبار . يقف بأسياً لا يتورط في أى حكم اخلاقي أو أى مصادرة . متساعماً لا يعرف التزمت . . ورغم تدخله المستمر في تراجمه عن الشعراء وانتقاده أشعارهم بقسوة .

ما سر موقفه هذا من النساء ؟ . .

أبو الفرج يصف عبيدة بأنها رائحة الجمال . حسنة الصوت . لم يعرف في الدنيا اعظم منها في الطنبور ويضيف إلى صفاتها الجسمانية .

- كانت تحب الرجال . كهولا كانوا أطفالا .

مثل أرض لا ترتوى . ارتفعت وهوت وتحول الشهاب إلى قطعة من حجر وهي ما تزال عطشى . تشترك في هذه الصفة مع بقية شخصيات «الآغان» النسائية .

لكن عبيدة اختلفت عن الباقيات في أنها كانت مطربة الفقراء . لم تدخل قصورا إلا فيها ندر . ولم تعرف ترف الدمقس . وماتت دون دية ودون أن يعرف قاتلها . كان أبوها أحد الموالى الفقراء . اسمه «صباح» وكان مولاة أحد تجار بغداد الأثرياء ويدعى أبو السمراء وكانت هي صبية جميلة حسنة الصوت لا تحمل من صفات أبيها إلا الفقر . . كان أحد المغنيين يتردد على أبي السمراء يناديه ويطره . ويأخذ عطايه . كان «الزبيدي» وهو اسم هذا المغنى أحسن من يضرب الطنبور في بغداد .

هذه هي العناصر الأساسية التي شكلت بدايات عبيدة .
أحد الأيام ذهب الزبيدي ليغني لأبي السمرء ويأخذ عطيته . لكن أبا السمرء كان قد
خرج مع أحد القوافل إلى بلاد فارس . وبدلاً من أن يعود الزبيدي أدراجه أخذه «صباح»
والد عبيده إلى البيت يقضي الليل عنده . لم يكن البيت الفقير مستعداً دائماً لاستقبال
الضيوف . لكن الضيعة وأمها جهزا المكان واحضرا القليل من الطعام وبدأت ليلتهم . .
الأب والضيف في القاعة . والأم وعبيدة خلف الستار ، وسرعان ما غلب النعاس الأم
وظلت عبيده جالسة تستمع .

كانت أصابعه إذ توقع على الطنبور تبعث داخلها رعدة غريبة . وعمه يعيد اللحن .
يرق ويعلو . ما بين الأمة والزفرة وحكايات الوجد القديم . تتولد داخلها رغبة جياشة .
منذ أن ولدته وهي حبيسة البيت . حبيسة المعاش الضيق . لكن الغناء جعله أكثر
اتساعاً . جعله يمتد من حد البحر إلى حافة الصحراء . والطنبور عاد يوجع قلبها . والرغبة
تحولت إلى إشتهاء . .

رفعت الستار . تقدمت . جلست أمامها . ورأى الزبيدي هذا الوجه الحسن فزاد في
الغناء . وزادت نجوم السماء تألقاً . بعد برهة كان الأب نائماً والزبيدي وعبيدة يغنيان
سويّاً . . وكلها انتهى اللحن اعاداه . .

ورأى لمجنون بليلي موكل

ولست عزوفا عن هواها ولا جلدا
إد ذكرت ليل بكيت صبابة
لتذكارها حتى يبيل البكا الحدا .

وأجهدتها النشوة . . ولست أوتار الطنبور فارتجت قلبها . . قالت :
- علمني الغناء . . علمني الضرب فوق الطنبور .

وعندما أفاق الأب لم يكن أمامه إلا أن يوافق . أدرك بغريرته أن عبيدة لو أجادت العناء
فسوف يكون هذا انقاذاً من ورطة الفقر الدائم . وطالت رحلة أبو السمرء في بلاد فارس
وطاب المقام للزبيدي يعلمها فنون كل عظماء الغناء الذين سبقوه . . معبد . . وسريع ،
وطويس . بدأ صوتها ينصبح مثل نار هادئة . لكن الاضطراب نواصل . . . وقبل أن يعود أبو
السمرء من بلاد فارس كانت قد احداث الطنبور تمام الاجادة .

مات الأب ورق الحال وذهب الزبيدي في صحبة أحد الأمراء وترك لها طنبوره حتى
تذكره . وهل كانت تملك أن تسي ؟ . . ولم تكن الذكرى طعاماً ولا سلوى . فخرجت

تغنى وتفنن بالسير . وكان في خروجها إعادة جديدة لاكتشاف العالم . في حوارى بغداد الضيقة . بين الموالى الفقراء والحرفيين وصيادى الأسماك . . كانت تأخذ أغانيهم وتعيدها على أوتار الطنبور . . وبدأت رحلتها مع أغنيات الشقاء اليومي . إذا سارت سار الجميع خلفها . إذا جلست التفوا عليها . . كانت الفتاه الصغيرة التى أغواها مطرب قد نضجت وخبرت تشابك العالم الخارجى . وكانت أمها مديرة أعمالها تدبر لها أمر الغناء في أول الليل .

لان الزمان قد يلين قليلا ، فقد فعشقت عبيدة عشقها فتى غنى يدعى «عل بن الفرج الرجمي» . . وسيم ، يملك ضياعاً واسعة بأطراف بغداد ، وقوافل تصل العام ما بين اليمن والمربد كانت هذه فرحتها الأولى والأخيرة أيضاً . اصطفاها لنفسه . لا تغنى إلا له . ولكنها أراد أن تلد له ولداً . . وعندما فشلت في ذلك هجرها دون أى أسف .

تركتها أمها وتزوجت بغلام . . وأدركت هى أنها وحيدة ، وأنه لا استقرار بعد اليوم . هذه البيوت والشوارع والنهر الممتد ضربة من وتر . . وبغداد الفقراء بلا نهاية .

أحياناً كانت القصور تطلبها . نوع من تغيير الجو . ولا مانع من التغاضى عن الخجل . . كانت النساء يخبثن تفرزاً بينما يبدى الرجال نوعاً من السماح البلهاء . بل ينفلت منهم العيار فيطربون من هذه الأغاني السوقية ، حتى أبو الحسن اسحاق بن ابراهيم مغنى الخليفة وأحد عظماء المطربين في عصره علم أنها سوف تغنى عند أحد اصدقائه فتخفى وجلس وراء ساتر كثيف وهى تغنى وتعيد . حتى زعق طرباً وتوقفت عبيدة عن الغناء وهتفت به :

- أخرج يا أبا الحسن . فانا أعرف سرك .

فهتف وهو يسارع بالهرب .

- فضحتنى فضحك الله .

لكنه عاود التخفى والاستماع مرة أخرى . .

أناسها الحقيقين كانوا في الأزقة . معهم لم تكن تشعر بالخجل . ومعها لم يكونوا يشعرون بالخجل . يتحدثون عن شظف العيش . والمكوس . والحرب الأهلية التى تركت أرملا في كل بيت . وكانت أوتار الطنبور تحمل العزاء للجميع . تجلس في الحانات الرخيصة فيحدثها البحارة عن عشق السفر . والأغانى التى تسمع من وسط الصخور ولا يعرف مصدرها ، فتسحرهم وتحطم سفنهم .

عشقها الأخير كان «أبو كرب بن أبى الخطاب» . قبيحا . مشرط الوجه . أسود اللون . غليظاً وقحا .

لكنه لم يكن سلس القيادة . كان ينقلب عليها ويظل يصفعها ويضربها حتى تقبل أطراف أصابع قدميه .

وظلت هي تعمل طوال اليوم . . ثموب كل المدينة حاملة طنبورها وترجع له بالحصيلة . . فيأخذها منها دون كلمة . . ويتركها منزوية في أحد أركان البيت حين يعود . كانت تغنى وآثار يده ما تزال على وجهها . تبكى حرقة الوجد والأحبة وهو يشرب ويقامر بنقودها . . حتى جاء يوم فتركها ومضى . . ولم يبق لها أحد . اللهم إلا غلام كان يشتغل طبالاً معها .

وكان مأواها بين المطاريد على حافة النهر وعند الجسور ؛ تغنيهم وتتمى شهرهم . وقد استولى بعض الأوباش على بيتها ومنعوها من العودة إليه . فلم يعد هناك بديل عن الشارع . . حتى أخذها أبو السمراء مولى أبيها القديم إلى قصره وكانت تهرف من الحمى . وظلت ساكنة . لكن النداء الذى كان ينبعث من المراكب المسافرة تنهى إليها فقفزت من النافذة ، ونحطت السور ، ووجدت الأذرع الحشنة فى انتظارها .

كان النهر يحمل لها الخلاص . . وكانت وحوله هى قبرها الأخير . . وكانت كل عطاياه . . طنبوراً وطفلاً ميتاً وعشاقاً بلا حد .



فريدة الموت فوق سرير الخلافة

قالت فريدة : «يا خل» .. أحل الترك دماءنا وأعملوا السيوف في رقابنا .. قالت فريدة : يا «خل» كيف نغنى للحب ونحن نعيش زمن الخوف .. ومضت .. كانت جثة خل «ملقاة» وسط الدار .. جسدها الأبيض الجميل ملطخ بالدم وأثار سيوف جنود الترك غائرة .. كانتا معاً .. غنيتا معاً وكان الجنود سكارى ، وبغداد نائمة ، والنهر متواطىء .. «خل» هي التي قالت لها : تعال نرحل إلى بغداد . لا جدوى من الغناء في المدن الفقيرة والقصور في إنتظارنا .. والدم على سرير الخلافة يا خل ، وفي خاتم السلطان ، وبغداد بلد غريبة يسكنها غرباء .. وها هي السيوف أنهت الرحلة في مطلعها .. إذا اختلف تركيان كان الصحبة بغدادى .. فامتحني المغفرة يا خل .. لم أبكيك كما يجب .. لم اقم لك عزاء ولا سلوى .

كانت فريدة تهرب من بغداد إلى بغداد .. أصبحت أسيرة الدروب الضيقة والبيوت الطينية . وتحول حلم القصور الباذخة إلى خطوات لاهثة للهرب .. وكانت خل تنام على قطرتين من البنفسج وتمسك العود وتغنى .

إلى أيها الراكب النيام ويحكّم هبوا ..
اسائلكمم .. هل يقتل الرجل الحب ١٩

بل نمتله سيوف الديلم والغربة في مدينة واسعة .. كان الجلوس يكون
يستعيدون الصوت وأنس الليالي ودفء الصحراوات البعيدة .. جئنا غ
باعونا في سوق واحد ، واشترانا نفس النحاس ، واحببنا سوياً رجلاً ،
من المهجر والمرارة . أنت تحملين أنك لؤلؤة داخل محارة ضائعة .

النعمان ارتقب الطل .. وكان المطر كالحلم المصفى .. وكان الدم يختلط بحمرة
الحديد .. وفوق القبر يرفع عسكر الدليمة البيارق .

ظلت فريدة تجرى . تلهث وتجرى . حتى وصلت إلى شاطئ النهر .. على طول تناثر
خيام اللاجئين ؛ ضحاًياً كل حركات التمرد على الدولة العباسية .. السرطان يتمطى في
شراهية ؛ يأكل القرى ، ويسلب أراضي صغار الفلاحين ، ينتزع جلودهم فلا يملكون
سوى الرحيل ؛ يسرون مع النهر الذي يبروه في الزمن القديم ، يقودهم النهر إلى بغداد ،
وتعطيمهم بغداد كوخاً من الصفيح والحيش ، وتعطيهم بغداد عملاً يومياً شاقاً لا يكاد يفى
إلا بالقوت الضروري . هذه آخر أيام العباسيين بعد أن شهدت أيامهم أزهى تواريخ
العرب ، والدولة تختصر ، تختصر ببطء قاتل حتى أن العفونة دبّت في أطرافها ، وبدأت
ريح السموم تدق أبواب القصور ..

جلست فريدة بينهم ؛ لم يسألها أحد من أين جاءت .. ولا إلى أين تسير .. يكفيها
أنها تجمعهم وإياها قوانين اللفظ الجماعي . هداؤاً من روعها وأعدوا لها فراشاً من القش في
جانب أحد الأكواخ .. ونامت بعمق حتى أنها لم تحلم بجنة «نخل» ، وظلت هكذا ثلاثة أيام
متواصلة . تركت عيدان القش آثاراً مبعثراً بجنبتها . كل صباح يجلس الجميع على جانب
الطريق في صف طويل بائس ؛ معنى الرؤوس . هذا وقت مرور السادة وأصحاب
الأعمال . يمرون في نفس المكان كل يوم ليأخذوا ما يحتاجونه من عمال بناء أو حمالين أو
حجامين أو منظفي فضلات البشرية ، وكل أصناف المهن الحقيرة التي تحفل بها مدينة
واسعة ..

كانت تجلس في جانب الكوخ عندما إرتمى عليها ظل حجب الشمس عنها .. رفعت
رأسها وجدت أحد السادة يتطلع إليها من فوق صهوة جواده ؛ من النظرة الأولى للماسة
التي تتوسط عمامته أدركت مدى ارتفاع مركزه الاجتماعي .. سألتها بغلظة .

- ما اسمك ؟ ..

قالت : فريدة ..

قال بنفس الغلظة : أى مهنة تهيدين ؟ ..

قالت : لا أجد سوى الغناء .. قال : إتبعيني .

لم تكن تملك أن تعصى . سارت خلف الجواد . عبر صفوف الاجراء وعبر الأكواخ .
قالت لها «نخل» : لن نبيع أنفسنا إلا بأعلى الأسعار وما هي تمضي الآن دون ثمن . وعندما
وصلت أخذها خصيان القصر ووضعوها في غرفة منعزلة . كان القصر فخماً بالغ الاتساع .
ومياه الحمام معطرة . بحر من البنفسج لم تحلم به نخل . وقالت لها إحدى الجوارى :

- أنت في قصر الأمير عمر بن بانه ..

ولم يكن الاسم يعنى شيئاً غير ماوى طيب عليها أن تجرص عليه .. وعندما اعطوا لها العود ذات ليلة أدركت أنها فرصتها حتى تبعد شبح الأكواخ نهائياً . أخذت تغنى بكل ما تعلمته من حلق .

خليلي لا والله ما أملك الذى ..

قضى الله فى ليل ولا ما قضى ليا .

قضاها لغيرى وابتلاى بحبها .

فهلا بشىء غير ليل ابتلائيا ..

لم يتوقع عمر بن بانه ما سمعه .. هاج طرباً فشق ثوبه ، وألقى بنفسه فى بركة الماء التى تتوسط القصر . أخرجه العبيد واحضروا له ثياباً أخرى .. وابدعت فريدة وهى تعيد الصوت فألقى بنفسه فى بركة .. وظل هكذا ؛ يلقى بنفسه والعبيد يفرجونوه حتى أصابه التهاب رثوى ..

ومن اللحظة أصبحت فريدة محظيته المفضلة . ومن خلاله دخلت فريدة حياة بغداد الارستقراطية . رأت الأمراء يتوافدون . وكيف يهيمنون بغنائها حباً وصبابة .. سمعت قصص الجوارى اللاتي يحكمن من فوق سرير الخلافة . وابتعدت جثة خل وأكواخ اللاجئين ، وتمجد الحلم الذى عبرت الصحراء من أجله .. ومرغ عمر بن بانه وجهه تحت أقدام المرأة التى التقطها ذات يوم عند شاطئ النهر بلا مقابل ..

فى يوم لا تنساه . إشتعلت الحياة داخل القصر . إنهمك المئات من العبيد فى العمل غسلوا كل الأركان والساحات والغرف بماء الورد ، إزدحم المطبخ بالطباخين وكل أنواع المأكولات .. غير الخدم الستائر والحشايا ووضعوا الزيت المعطر فى القناديل .. ولما سألت عن السبب قال عمر بن بانه أن عليها ألا تغادر غرفتها الليلة والا يسمع أحد صوتاً .. وبعد أن انصرف همس أحد الخصبان فى أذنها .

- الخليفة «الوائق» سوف يشرف قصر الأمير الليلة بالزيارة ..

وفهمت السروراء اوامر المنع الصارمة .. وأشعل هذا نيران الطموح التى سمعت من أجلها . تسللت فى الليل ، ومن خلف الستار رأت الخليفة الوائق . رجل بالغ النحول والعصبية يجلس بجانب ابن بانه ويستمتع بأشمتزاز واضح إلى أغاني الجوارى المبتدئات . وانتهزيت إحدى لحظات الصمت فإرتفع صوتها رائقاً شجياً يطغى فوق الجميع ويجب ما عداه . وانتبه الخليفة . وضع الكأس وانتبه . وامتقع عمر بن بانه وذهب لونه .. كانت فريدة أذكى مما تصور وأكثر طموحاً .. واستعاد «الوائق» الصوت مرة .. مرة .. وثالثة .. والثفت يسأل فأجابه إبن بانه وقد أدرك أن الطير قد أفلت من يده ..

في اليوم التالي قادوها هدية للوائق . قال لها عمر . . لقد خدعتني يا فريدة وكنت أنوي الزواج بك . وأظهرت دهشتها . كان سرير الخلافة يناديا . . يا خل . . دانت القصور فهل يبدو الزمان ؟ . . والترك يجرسون الأبواب ويقيمون العرش على أسنة الرماح وتشيب الواثق بها ونسى صفوف الجوارى اللاتي يمتلء بهن قصره . . كان يقول . أنت ملكتي وحاكمتي . . فخرى . . لكنها تعلمت درساً آخر . . إنها تحكم من لا يحكم . . ووجوه التجليل والفرس تطل فوق الأسوار

لكنها أحبت الواثق . . أحبت حتى إحساسات القهر الخفية التي كان يعانيتها تحت أبهة الخلافة . . أحبت نفوره من الترك وكرهت حاجته إليهم . . لكن سرير الخلافة كان فراشها . . والمزيد من الطموح لا يعنى سبب الجنون . ورأت ابن بانه في مجلس الخليفة ناحلاً . . مصوصاً . . فتذكرت أول ما غنت من أبيات وأول ما علمتها خل . .

- ألا أيها الراكب النوم ويحكمُ هوا . .
اسائلكم . . هل يقتل الرجل الحب . . ١٩

وعندما حملتها إحدى السفن الضخمة هي والخليفة في إحدى نزهاتها فوق دجلة والعبيد يقومون بالتجديف والجوارى يثرن الزهر حول السفينة . . رأت على الضفة خيام الفقراء المتلاصقة وأكواخهم الصفيحية . . رأت النيران التي يشعلونها لطهو طعامهم الفقراء . . سألت البحارة أن يسرعوا . . لكن صف الأكوخ ظل يلاحق النهر . . هتف :

- لهم يتكاثرون ؟ .

قال الخليفة وهو سكران : من ؟ . . أشارت إلى الظلال التي تتحرك على الشاطئ . . وتتجمع لترى السفينة . . قال الخليفة : هؤلاء ناسي وشعبي . خير أمة . وأحست بفراش القش وهو يفز جنبها . . تماماً . . مثلها عملوا السيوف في عنق خل . . ركعت أمامه . . قالت :

- يا مولاي . . هؤلاء الفقراء حول النهر ، والديلم في القصور . يجب أن نجد حلاً . . ؟ .

هتف في فزع :

- الفقراء . . الديلم . . ماذا أفعل ؟ . .

ومات الواثق بطريقة غامضة . . مثل بقية الميتات التي ماتها آخر الخلفاء من بني العباس إنفض الحداد في سرعة مريية ، وإرتجلت مراسيم البيعة ، ونصب المتوكل خليفة ، واستوت جثته الضخمة على سريراً لخلافة ، واقتحم الترك القصر والمدينة وفرضوا شروطهم النهائية . يصبح الخليفة إسماً . تحدد إقامته ويحدد راتبه . وهبطت الرايات السوداء إلى

الأبد . وارتفعت الرايات الفارسية كان الثوار يثورون والقرامطة يطالبون بحق أفضل في الحاكم والديالمه يقتطعون من جسد الدولة . وصفق المتوكل بيده وهو يصيح : إحضرو الجوارى والمغنيات . . هذه أيام الأئس .

قالت فريدة : لن أغنى . . أمر الخليفة العبيد أن يقفوا على رأسها ويصربونها حتى تغنى كان الضرب قاسياً فغنت عن الموت . . موت خل . . وموت الواثق . . إهتزت جثة المتوكل الضخمة وأمرهم أن يضعوها في السجن ، فعششت العناكب في شعرها السرح الجميل . رأت في السجن رفاق الأكواخ وأحست بفراش القش يفرها ويتسكك بمس العلامات .

وأحضرها الخليفة لتغنى . . لتشاركه الفراش . وقف الحراس يهثون الحو كان الفراش هو ميدان الخليفة الأخير . . وكان جسد فريدة هو آخر الانتصارات . لكن أقدام الحرس تجوس فوق صدرها . في أى لحظة سوف يدخلون شاهرى السيوف . كم طعة تقود للموت وكم طعنة بعدها لا تحس بالألم . . ؟ وهتف الخليفة . . غنى عن الحب والوحد يا فريدة . وأمر العبيد أن يواصلوا الضرب على رأسها . وكانت صفوف الفقراء واللاجئين تنام فوق بلاطات القصور وفي أحواض النافورات الجارية ، فيهرع الحصيان بالعصى ويشهر الجنود السيوف ويمضى النهر كالشاهد الأخرس . صرخت في جسد الخليفة الملقى على السرير . .

- سوف يقتلونك . . سوف يقتلوننا جميعا . .
ضحك الخليفة في بلاهة . .

- الترك اصدقائى . . والفقراء اعدائى . . من الذى يعطينى راتبى إذا عاديت الديلمة .

وسمعت الأذان المنبثة في كل مكان في القصر ما تقوله فريدة . . وتلمظت السيوف ، تحول القصر إلى شرك . . وسرير الخلافة إلى مقبره . . قال الخليفة : غنى . . لكن أوتار العود كانت تلتف حول عنقها . . في أى القبور المجهولة دفنت خل . . وفي أى القبور سوف ندفن فريدة . . يا أيها الزمن تمهل قليلاً . . .

قالت فريدة : يا خل . . احل الترك دمانا واعملوا السيوف في رقابنا . .
قالت فريدة : يا خل . . كيف نغنى للحب ونحس نعيش في زمن الخوف !!



ثم غنت عريب « ألصق خلخالى بقرطى »

* حدثتني بغداد عنها . .

عندما غنت غسلت النجوم نفسها في النهر ، وتركته مفضضاً ناعماً كأحلام الأطفال . .
تفتح الزنبق في قصر الشتاء وتفتح السوسن في قصر الصيف . وسارت «عريب» وحيدة .
الحزن دائماً مفرد الخطى ، فأى مدينة تسع الحياة التى تضطرم داخلها ؟ وأنا مدينة الزمن
القديم . شوارعى تقود إلى دجلة . . ودجلة يصب في الخليج . . والخليج أين يصب ؟ . .
السمك يرتعد من المطاردة . والقصور تقتنص شمس الفقراء . والبيوت والحارات
والأسواق والخانات تمور بالحياة . تقول بيوت النصارى في الأطراف : كبرت الطفلة الآن
ومضت أيام الخوف . وقالت المقابر على الجانب الشرقى من النهر : لم نعد نصلح مأوى
للمطاردين . المخبرون لم يدعوا مكاناً آمناً . وقالت أسواق النخاسة : كسدت تجارة بيع
الجوارى بعد أن اشترى المأمون «عريباً» . وقالت ساحة الخيل . كانت تهوى ركوب الخيل
دون سرج . قال صانعو الاوتار : ومن الذى صنع أوتار صوتها ؟ . . وقال مقطرو النبيذ :
أصابت بضاعتنا بالكساد لأن صوتها يسكر دون حمرة . وقالت امرأة نصرانية : أنا الوحيدة
التي أعرف سرها . ولدت «عريب» ابنة غير شرعية لجعفر ابن يحيى البرمكي من جارية له .
وعندما أدار الزمان ظهره وانقلب الرشيد على البرامكة قتلاً وتشريداً ، دفعت الأم بـ
«عريب» إلى حقي أخفيها وسط منازل النصارى ، ولما هددنى جيرانى بالابلاغ عنى ذهبت بها
للمقابر . ثم بعته للنخاس «سنبس» بعشرين ديناراً . قال سنبس للنخاس جازماً . هذا
الكلام كاذب وليست لى أى علاقة بالسياسة . وقالت بيوت الفقراء : ما أسرع ما ينفد زيت
المصابيح ولا يبقى سوى السناج . وقالت جوارىها : كنا ننتظر يوم حمامها ، عندما تفك
جدائل شعرها الطويل وتغسلها ؛ لم تكن تفعل ذلك إلا من الجمعة للجمعة ، وطوال أيام
الاسبوع تغلفه بستين مثقالاً من المسك والعنبر فإذا غسلته اعادته وكنا نقسم غسالة رأسها
بالقوارير وما تسرحه منه بالميزان . وقال ابو الفرج . دعوى أعرف موقف الخلفاء منها لأحد

موقفى . . وأدلت إحدى الجوارى بشهادتها : كانت «عريب» تقول ما فائدة أيام نخلو من الهجر والوصال . قالت الأرصفة : كان الشحاذون يتوسلون بإسمها . وقالت طيور الماء : كنا نرى جسدها وهى تستحم فتتلقفنا شبك الصيد . . وولى نهار . وجاء ليل وارعد النهر . وسكن الناس . وضربت «عريب» على أوتار عودها وغنت . . بغداد . . يا بغداد . . يا مدينة الصباية والدم المباح .

* وحدثني عنها سرير الخلالة . .

كنت مجرد هدية من ملك الروم . لا أعرف من صنعنى ولا من امتلكنى . . لكنى عرفت جيداً «عريب» وعطرها إذ تلمسنى . توالى على خلفاء كثيرين ، شاهدت ليالى متعمهم ، وتشربت دماء من ذبح منهم فوقى ، وأصابتنى كآبة دائمة . لكن «عريب» كانت تعطينى الكثير من دفئها . . كنت الحلم الدائم لكل المتسلقين والمغامرين من ترك وديلم وسلاجقة وتثار . . وعندما سكنت فى زاوية الذكريات الحزينة كانت معى ذكرى «عريب» . .

عريب . . عريب . . على أى سرير ترقدين ؟

قتل الرشيد أهلها ، وإستولى الأمين عليها من صاحبها المأمون ، وملكت عليه قلبه ، وعشقت المعتر وإستمتعت بلياليها معه . وكرهها المعتصم وبادلته الكراهية . . واشمازت من الوائق . . واكتشف المتوكل أنها قد أصبحت عجوزاً . .

سبعة خلفاء توالوا . ودائماً يتتابى الأحساس بأنها لا تشعر بالأمان . يضيئها وسط أعظية الحرير شعور حاد بالغبرة . وعندما يهجع كل الناس عند منتصف الليل تظل هى مسهورة . ووسائدى تشرب دمعها الليلي وكآبتها الصباحية . وكنت أشعر بالحنق عليها . . هذه المرأة الغريبة ، إذا لم تكن تحس بالسعادة وهى تملك كل هذا الجاه فمتى تسعد ؟ . . ثم أشفق عليها ، أى هم تحمله لا يجعلها تحس بالسعادة وثروات الدنيا تحت قدميها ؟

قالت للأمين بسخرية : تذكر إننى لست أحتك . وقالت للمأمون : لقد ملكتنى بعض الوقت لكنك لم تملك قلبى لحظة واحدة . وقالت للمعتر : إننى احبك فقط لأنك تذكرنى بأحد عشاقى القدامى . وقالت للمعتصم : لماذا نعذب نفسينا . وقالت للوائق : لا أدرى من أين تنبعث هذه الرائحة الكريهة ؟ وقالت للمتوكل : ترو قليلاً يا مولاي فالتهايات المفاصل تؤلمنى . .

عريب . . عريب . . على أى سرير ترقدين ؟ . .

* وحدثني عنها سيدها المراكبى . .

وسدت رأسى الأشيب غلى صدرها وحلمت أننى أبحر مع ربح مواتية . واستيقظت . قالوا هربت «عريب» . ففكرت متأسياً : من يمسك السحاب ؟ . أنا سيدها والمجنون

بها . لم يعد الموت في المعشوق مألوفاً في هذا الزمن . لكنني وقفت أمام الخليفة المأمون . قال لي : قد اشتريت جاريتك «عريب» بخمسة آلاف دينار وسأوليك عملاً تكسب فيه أضعافاً . . ورسي إلى بخاتمين من الياقوت الأحمر . فقلت : يا سيدي إنما ينتفع الأحياء بمثل هذا . أما أنا فميت لا محالة . لأن هذه الجارية كانت حياتي . وخرجت من حوزتي فاختلط عقل وميت في اليوم الأربعين .

قادها «سنبس» النحاس وهي طفلة . قالت «يا سيدي» للمرة الأولى فرأيت وميض عينيها . كنت الموكل بمراكب الرشيد . تحت إمرق عشرات القوارب والسفن والدهيبات والملاحين والجنود . كان الجميع يعرفونني سيداً وجيهاً . لكنها مذ قالت يا سيدي أصححت عبداً لها . وعندما ظهر ابن حامد في حياتنا هجرتني دون أسف . وانتظرتها ملا ضغينة . وعادت مشعثة الشعر . ممزقة الثياب . لكن كل خلجة من خلجاتها تنبض بالسعادة وأدركت أن قدرى أن أدع القفص مفتوحاً حتى يشعر طائري السيد بالأمان . يهجرني ويعود . . لو أنني أحكمت قبضتي لطار دون عودة .

وظهر ابن حامد . ريح عاصف أطاح بمجلس طربي . وحطم كاساتي وأسأل خمرتي . وخطف «عريب» . كان يجلس متوفزاً يسلط عليها عينيه القاسيتين . . فتصمت وتشرد حتى أحس بالذنب . وعندما تلطم الريح نوافذني في الليل أعرف أنها قد مضت إليه ؛ كالحيوان البري يمن لقبضة الصياد . ومع ابن حامد لم تعد . . مضى الليل وغارت النجوم وظللت أوقد الشموع وأنتظرها مثل امرأة مهجورة . سقطت صريع الحمى وسط شماعة زوجتي وسخريه إبنى . وجاء الخلان تحمل كلماتهم نبرات العزاء ولم تعد . لم تعد . ذهبت أستجير بالخليفة الأمين : يا مولاي ابن حامد أخذ جاريتي . حياتي . أنا صاحب مراكبك . . ومراكب أبك من قبلك . واستجاب الأمين . ذهبت الشرطة وأحضرتها سوياً . . تطلع الأمين إليها متمعناً . . سألها : لماذا تركت سيدك ؟ . . أشارت لابن حامد . . قالت : هذا هو سيدي . . وجعلتني اتضائل وسط ابتسامات الحاشية الشامة والأمين يلتهمها بعينه ويقول : دعوها عندي اذن حتى يحل القضاء مشكلة ملكيتها وفتحنا نحن الثلاثة - عريب وابن حامد وأنا - أفواهنا من الدهشة . لقد وضع الخليفة يده عليها وأصبحت مشكلتي مضاعفة . وأنصرفنا - أنا وابن حامد - كل منا بمقت الآخر ويسوق إليه العزاء . ظللت أتردد على القصر حتى أرى طريقاً أستعيد به جاريتي . لكنها الحرب اللعينة تدق أبواب القصور . وجنود الفرس يتخطون النهر . ينزلون رايات الأمين ويرفعون رايات المأمون . لكنها الحرب أحرقت سفني وضيعت جاريتي وحولتني إلى غراب عجوز انتظر سقوط الرمم . وما أن جاءت الأنباء أن الأمين قد قتل وأن بغداد أصبحت سبية لسيف المأمون ، حتى هجمت على القصر وأخذت «عريب» . . سلبت حقى وسرقت عشقى الوحيد . . وعدت إلى بيتي فرأيت زوجتي واجهة وابني قد خرس عن الشعر الرديء ، لكن قلبي كان ينتفض فرحاً . . ولم يطل مجلس طربي . . استوى المأمون على العرش . . وطار الطائر هذه المرة . . دون عودة .

• وحديثي عنها قاضي قضاة بغداد . .

اللهم إحفظ أمة الاسلام . القضية واضحة والأدلة بينة . والحكم معد سلفاً . قاضي مثلي . في زمن مضطرب مثل زمني . في مدينة غريبة كمديني . عليه أن يكون حريصاً . يمشي على الصراط ولا يقطعه . يحكم من خلال وجوه المتقاضين وثياهم ومراكزهم الاجتماعية لا من خلال الأدلة التي كثيراً ما تكون مضللة . إن الميزان يميل والقاضي مستوٍ على مقعده . . وأنا قاضي القضاة . ظل الخليفة . والقضية كما قلت واضحة .

المغنية «عريب» هربت من سيدها المراكبي . ليست هذه هي المرة الأولى التي تهرب فيها ، وليس هو العاشق الوحيد الذي تهرب إليه فاللهم . . احفظ أمة الاسلام . ويقولون أن في موقف سيدها بعض الرضى على هذا الوضع الذي لا يرضى أحداً . يقولون إنه مرض مرضاً شديداً . وعندما أفاق ظل يبحث عنها ثم استغاث بالمأمون . «ملحوظة» . استغاث قبل ذلك بالأمين . وكان المأمون يحمل له ذكرى طيبة من أيام مولانا الرشيد فأمر الشرطة بالقاء القبض على ابن حامد . وسأله عنها فأنكر معرفته بها . فقال له : كذبت . وأمر صاحب الشرطة أن يجرده ويضع التسياط عليه حتى يرداها . وما أن بدأت عملية الجلد حتى فوجيء الجميع «بعريب» . وهي قادمة على حمار مكار مكشوفة الوجه . عالية الصوت : أنا «عريب» . ان كنت مملوكة فليبعني وإن كنت حرة فلا سبيل له على . وهكذا رفع خبرها للمأمون فبعث إلى برسالة . يطلب منى إقامة العدل في أمرها . وكانت الرسالة عربية . والحاجب الذي حملها أغرب . هنا يأتي دور ذكائي ومعرفتي بتقلبات زمني . قبلت الرسالة فإبتسم الحاجب . قلت : القضية واضحة . قال : كلك نظر . قلت : هل رأى المأمون الجارية . قال : ومن أجل هذا عهد إليك بالقضية . إبتسمت . قلت . اطمئن .

وعندما مثلوا أمامي . تأملت الجارية فبهروا جهاها . وأخذت أسأل عن كل التفاصيل . وأحاصر المراكبي بأسئلتى الذكية حتى إرتبك وأخذ يتحدث عن سطوته أيام الرشيد . وعن «سنبس» النحاس . ويستشهد بأصدقائه . وأنا ابتسم في برود . ثم فاجأته بالسؤال : هل تملك البينة على ملكيتك لعريب ؟ . قال مدهوشاً : ماذا . . ؟ قلت : البينة . الدليل . ألا تملك دليلاً على ملكيتك للجارية ؟ قال : أنت تطالبني بما لم يطالب به أحد في رقيق ولا يوجد مثله في يد من ابتاع عبداً أوجارية : قلت : لأنه لا يوجد أحد ينازع من يملك رقيقاً مثلك . وأفحمه جوابي . فعاود الهديان : هذه ملكي سأشكو للمأمون . سأنتظلم . وصدر حكيمى قاطعاً : إنها ليست ملكه وهي حق لمن يشتريها . إبتسم ابن حامد . لكن إبتسامتي كانت أوسع واضفت للحكم حاشية أخرى تقول . . ولا تجوز ملكيتها للمتنازعين عليها !

واشترى الخليفة «عريباً» . ولم يرض قلبه الرحيم فأجلد العطاء للمراكبي . بعث إلى

بإزاء خسروان عجيب الشكل لازلت احتفظ به في صدر مجلس الحكم وكلما سألتني أحد عن قصته . . اكتفى بالابتسامة .

* وحدثني عنها عاشقها . .

وداعاً يا أميرى . أنا ذاهب للحرب . علت صيحات القتال ومضى زمن الحب . أعلم أن هذه غزوات الأخيرة . ترى هل ستذكرني «عريب» ؟ أم سوف تشغل بمجالس الأمراء والعشاق الجدد . قلت لها : دعينا نتزوج . دعيني أشتريك . همست وهي تقبلني : لا أريدك زوجاً طائعاً ولا سيداً شرها . أريدك فقط عاشقاً لى . كان لها منطقها الخاص وكنا نعيش على حافة الخطر . تضرب هي بالمقارع وأجلد أنا بالسياط . وكانت لا تكف عن القول : لولا مرارة المهجر ما عرفت حلاوة الوصل . قلت . دعينا نرحل لبلاد أخرى . قالت : أنت فقط تحلم بامتلاكى . وذهبت أنا إلى الغزو . وجبت هي في كنيف مظلم ، وكان الجنون يبلغ بنا مداه فنخرج سوياً للنهر تحت أعين طيور الماء والنخل واعوان المراكبى .

وعندما وضع المأمون يده عليها وضمها لحريمه ظلت طبيعتها الحرون كما هي . تغلت من برودة الأروقة . . وتحت وطأة الرعب كانت تأتى إلى . . لقد بدأت اقتنع بمنطقها . ذات ليلة ممطرة كانت تركب جوادها عائدة من عندي ، أحست بمن يركب جواده بجانبها . وعندما أضاء البرق وجهيها رأيت «حمدون» «أحد أعوان المأمون قال : يا عريب» من أين أقبلت في هذا الوقت من الليل ؟ . . قالت : من عند محمد بن حامد . قال : وما صنعت عنده . ؟ . ردت «عريب» بسخريتها التي أعرفها جيداً : يا أبله . «عريب» نجىء من عند ابن حامد في هذا الوقت . خارجة من قصر الخليفة وراجعة إليه . تقول لها أى شيء عملت عنده ؟ . يا أحمق تعاتبنا . وتحادثنا . . وإصطلحنا . . وشرينا . . وغنينا . . وإنصرفنا . وإنصرف حمدون خجلاً .

وفي الصباح قصت على هذا الحوار وهي تضحك . تمجدت رعباً أمام ضحكاتها . . أى جنون أن نضع أنفسنا تحت أنياب الذئب . كنت أعرف أن المأمون مدله بها . منذ أن أصدر القاضى حكمه الغريب . ومنذ أن كف عن كل جواربه وتفرغ لها . وكنت أعرف أن لسان حمدون يصب في أذن الخليفة . وأن السياط التي تحملتها قديماً من أجلها قد تحولت إلى سيوف قاطعة . لكن دفقة العاطفة التي تغمرني بها ، وشهوة الحياة التي لا تحد ، نأت تغرقني في بحر لا نهائى . يصبح الخليفة وهما . . والعالم وهما . .

وصل الأمر اننى اكتسبت جنونها . ذهبت لمجلس المأمون وجلست وسط ندمائه في مجلس الطرب . . كنت أحاول إستشفاف مدى التهديد في نبراته . جلست «عريب» وسط جواربها كالقمر المنغرد . نسيت مبادئ الحذر . ظللت أتطلع إليها . كم تبدو مثيرة وهي بعيدة وبيننا يجلس أسد كاسر على عرش من ذهب . غنت الجواربى وهي صامتة . وعندما

تقابل وجهانا رأيت تألق عينيها الذي أعشقه . لم أملك فأومات إليها بقبلة خاطفة .
أحسست بها تلتقاها . كأنما شفقتى على وجهها . . أخذت العود وغنت . . تخلط الوصل
بالمجر . . ولا يدخل في الصلح بيننا أحد . غنت بكل أعماقها وتحول المجلس إلى حلم
ملون كأننا وحيدان . لم أفق إلا والخليفة يصيح . .

- كفى يا «عريب» . . اصمتي . .
وخيم الصمت . . رأيت نظراته الغضبي تكاد تقتلعني كالعاصفة . .

- من فيكم أوما لعريب بقبلة . . ؟ . .
عرفت أنه رآن . . أو على الأقل فهم من طريقتهما في الغناء . . أصابني الوجع فظلت
قاعداً . . كرر . .

- من فيكم أوما لعريب بقبلة . . والله لئن لم يصدقني لأضربن عنقه . .
لم يكن ثمة مفر . كانت أنظاره تحاصرني من دون أهل المجلس . نهضت . قلت . .

- أنا يا أمير المؤمنين أومات إليها . . والعمو أقرب للتقوى . .
قال من بين أسنانه : قد عفوت . 1

لكنه أسرها وانفض المجلس . ولم أر «عريبا» من يومها . كأنه قتلتني حيا . وجاء إلى
الأمر بالخروج للغزو على حدود السند . إنتمم الخليفة بطريقته الخاصة وحملني ذنب الحرب
السعيدة القاسية . أنا ذاهب يا أميري . لا يجدي الحب والسيوف مسلطة على أعناقنا .
وسوف أموت . وتنسان «عريب» . . ولكن هل ستمتلكها حقاً . . ؟ . .

* أخيراً حدثتني «عريب» عن نفسها . .
لماذا يجلمون دائماً بامتلاكى ؟ ان احداً لا يجلم بامتلاك الشمس ولا النهر ولا
السحب إن ناراً تتوهج داخل كالمشمس . وعواطفى تضطرم كالموج ، وشطحات عشقى
كأنها أسفار السحب . فلماذا يجلم الجميع بامتلاكى ؟ . . سنبس والمراكبي والأمين . .
والمعتز والمعتصم والوائق والمتوكل والعشاق العابرون ، وحتى الشعراء الذين كنت أذوب
وأنا أغنى أشعارهم . .

ولأن الخليفة المأمون لا يستطيع حبس الشمس فقد حبسنى في كنيف مظلم . وأنا
أرتدى جبة من الصوف الخشن . ولا أذوق إلا الخبز والملح والماء . كل ذلك حتى أنسى ابن
حامد . . لم أكن أحبه لهذه الدرجة . لكن تصرف المأمون الأحمق جعلنى أتخيل اننى أموت
صباية فيه . . وعندما ألرج عنى وقفت أمامه وغنيت . . «حجبوه عن بصرى فمثل لى
شخصه فى القلب» . . وتركته يتميز غضباً . . حتى ابن حامد وضع أمامى قيد الزواج

.. وليته ما فعل .. وانحى المأمون وقل قلمي فقلت : مثل اليهودى يقبل كيس
 .. دعت في خمسة أكياس وفزت من النافذة ، ذهبت لابن حاتم فلم أحده .
 .. أصرت رجل قابلته . وسألني في الصباح عن أسمى فقلت شهر راد . ومات
 .. كنت الجارية الوحيدة التي بيعت في ميراثه وإشتراني المعتصم بمائة ألف درهم
 .. فأعطينه قلبي ليله واحدة وهجرته حتى لا أكون أسيرة فنته . إن الحب لا يمتلك
 .. أمة الحب لا تباع . وكنت أهتف باسم حامد . «أجعل سروايل مخنقتي وألصق خلخالى
 .. طين» ولقد نحتت في أن أجعله بعشقتي كما أريد . وفشلت مع آخرين . ومات على
 .. المسند . وأحبت عيسى بن الرشيد . كان مغنياً ماشياً يتلرب . وعندما كنت في أحد
 .. من الطرب سألت عن أى حليبه فضلته فقلت : عاشرت سبعة ما عشقت إلا المعتز فإنه
 .. عند عيسى بن الرشيد . سألت إن كانت لدى قدرة على العشق فقلت في أسمى .

- أما القدرة فحالمها لكن الشباب ولي .

النيران المستمرة في داخلنا تحرقنا أسرع . ولا يبقى سوى رماد الشيخوخة . لكننا
 توهج ويلسع وهجنا الآخرين . ويذكرنا الناس كما يذكرون الشهب . نضىء فجأة .
 ونحترق فجأة . ولا يعرف أحد أين مشوانا ؟ ..

لقد ظللت أعشق حتى النهاية . وعندما حاول المتوكل امتلاكى وقع في نفسى خطأ
 الآخرين . إنتمت منه عشقت خادمه صالح المنذرى . دخلت على إحدى جوارى
 المتوكل ، صعبت الخادمة وأنا أصحك كما صعب حمدون خادم المأمون من قبل . ونقلت
 الكلام للمتوكل فأبعد الخادم ، وحسب إنى استسلمت . وقفت بين يديه وعينت ..

أما الحبيب فقد مضى .. بالرغم منى لا الرضا . طرب . وأخذ يستعيد الصوت
 والجوارى يكتمن الضحك الشامت فيه ..

* حدثني حارس باب الخليفة

كنت واقفاً على باب الخليفة منتصباً . يدى على مقبض السيف كما يليق بحارس
 رفيع القدر ، ومجلس الخليفة منعقد . كانوا منتشين وكنت اليقظان الوحيد . جلوساً على
 الأرض كالحيوانات الرحوة . يتحدثون عن العناء .. واختلفوا حول أحد الأصوات : إلى
 من يتنسب الشعر .. هاتوا «عربياً» نساها . ٢١

إنى أكره هذه المرأة . مجيئها كميل بان بمد السهرة حتى الصباح . وأنا منتصب أعلى
 من آلام التلصص أكره طريقته المائعة في الغناء وأكرههم عندما يستعيدن اللحن
 عسرات المرات . أكاد أحتق .

عاد الخادم ليقول ان «عربياً» تعان من الحمى . هتف الخليفة لا همى ولا أعدار .
 وهلل الدمى مطالبين بمجيئها . وبعد برهة جاءت تستند إلى خادمين والحمى تكس وجهها

بالحمرة القانية . وصوت أنفاسها يتردد بصعوبة . كنت الوحيد في القاعة الذى أدرك حالتها . أما هم فقد انهلوا عليها بالأسئلة وهم يتصايحون . . سألها مولانا فأجابت بكل ما تعلم . أمور لا أدعى أننى أعلم فيها كثيراً . صاح الخليفة . .

- غنى الصوت أذن . .
قالت فى صوت متوسل : مولاي . . أننى تعب .
صرخ فى عصبية : غنى . . قالت مستسلمة : آتنى بالعود .
صرخ : غنيه دون عود . .

تركت الخادمين واعتمدت على الحائط . وللمرة الأولى لم استطع الوقوف منتصباً ؛ إرتخت عضلاتى وأحسست بالأسى تجاه هذه المرأة المحمومة . فكرت إنها لن تطيل الغناء وسرعان ما ينفض المجلس وأعود إلى بيتى . بدأت الغناء . والحمى تزداد والأنفاس تتناقل . كانوا يهللون ويصيحون . فكرت : سوف تسقط هذه المرأة حالاً . أكرهها . لكنها لم تسقط . واصلت الغناء . وعندما إستعادوا الصوت اعادته . وخفت حمرة الحمى . وإنساب الصوت كأنفاس الليل وكالنجوم البعيدة فى نوبات الحراسة . ينطلق ويكتسح آثار الحمى وآثار الجنون . يضح بحياة جديدة كأنها تولد فى هذه اللحظة . هذه المرأة العجوز كيف أصبح صوتها بهذا الشباب . . إنها تغنى لى أنا فقط . أنا الوحيد الذى يعى هذا . .

لمحت ظلاً أسود يسير على الحائط الذى تعتمد عليه بيدها . عقرب يسير نحو أصابعها . فكرت أن اترك مكانى وأجرى إليها . . لكن الخليفة قد يظن إننى أنوى إغتياله . لكن يجب أن أفعل شيئاً . و . . لدغها العقرب . . لم يبد عليها أنها احست بما إحساس . ظلت تغنى وتجلو نبراتها وأنا مذهول . لدغها للمرة الثانية ، لم تتحرك . . أخذت تعمد الصوت كأروع ما يكون . والصمت يعم المجلس . هل شاهدوا العقرب مثل . . أم أن تلك النبرات التى يبدو إنها ليست من عالمنا قد أسرتهم . وانصرف العقرب عائداً إلى أعلى الجدار كما جاء . وإنتهت الأغنية . . وكلهم صامتون ومولانا نائم . . ورفعت يدها إلى رأسها ببطء تمسح جبهتها من العرق . . ثم سقطت على الأرض دون أن يتحرك أحد .



فضل العبدية

الحب صفقة خاسرة

إذا أردت أن تبيع نفسك ، فليكن الثمن غاليا . كانت فضل تحلم ، قطرة من العطر باغتها الشمس . رفعت الستر ، فرأت الخليفة ، وأخواتها الخمسة ، وسعيد بن حميد ، والنخاس الذي إشتراها . . وعصافير بغداد ميتة على الأرصفة . وكان عليها أن تعقد الصفقة . . وأن تدفع الثمن أيضاً . . لحظتها قال لها الخليفة . .

- اليس لك مطلب آخر . . ؟ . .
أومات برأسها . . واصل السؤال .

- وبعد ذلك . . ؟ . .
ترددت قليلاً . غاصت الكلمات في حلقها كنصل سكين . . ثم قالت . .

- أسلم لك نفسى . . دور قيد . . أو شرط .

فضل العبدية مازالت تحلم . والحناجر تسابق حلمها . . عندما لم تكن «عبدية» ، وأخوتها الخمسة يعبرون بها الصحراء . . رحيل ، واختطاف ، وقمر جائع يأكل من الرمل ، ونفس ممزقة . تنام الليل في القيد ، وتصحو محاصرة بعيونهم العشرة ، وأظافهم المتسخة تنغرس في لحمها . . كل واحد منهم يشبه الآخر تمام الشبه . . وهى لا تشبه أحداً . . كانت أمها تموت في خيمة منزوية . . والنجوم تتساقط . . وسألتهما فضل . .

- يا أمى . . لماذا يكرهنى أخوتك لهذه الدرجة . . ؟ . .
- كنت جارية غريبة . اعتقنى أبوك لحظة ولادتك . . وهؤلاء إخوتك من زوجة أخرى لم تكف لحظة واحدة عن كراهيتى . .
مع كل ذكرى . وكل لحظة . واجهتها هذه الكراهية . كانوا أكبر منها . وأكثر

سلطنة وماتت أمها جوعاً فرفضوا أن يدفنوها بجوار روحها . ورات الأم الأخرى وسط
أولادها الخمسة تهيل الرمل على القبر . وحين رأها تكي صاحت في سخرية ..

- أتتردين ثوب الحداد وأنت بهذه الجدائل الطويلة .. ؟ ..
وهجم الخمسة مثل قطنع من الذئاب . ألقوها على الأرض وجدوا جدائلها
سخناجرهم أطلقوا صيحات الانتصار وهم يسلمهـها إلى أمهم التي تأملتـها قليلاً . ثم
ألقتـها إلى القبر .. وأهالت فوقها الرمال

كانت في العاشرة من عمرها . ملا صدر ولا جدائل قالوا لها . سوف ترحلين معنا
إلى الشمال وسمعت الأم وهي تؤكد عليهم أمرة . مخلصوا منها بأى ثمن . ووقف رجال
القبيلة .. شهوداً صامتين . يؤكدون بصمتهم المصير الذى ينتظرها . عدا شيخ واحد
أصم .. دق الأرض بعصاه وهتف بهم ..

- إلى أين تذهبون بالصبية اليتيمة . ؟ ..
وارتبك الخمسة . وأسرعت الأم تأخذ الشيخ بعيداً .. تضحى له عن زوج مزعوم في
قبيلة أخرى يطلبها للزواج .. وظل الرجل يلح في السؤال .. ورحل الأشقاء الخمسة
والشقيقة الوحيدة . جوعاً وعطشاً . والشمس غصة . وبحار الملح بلا نهاية . كانت
تبكى .. يا أحوق . يا أشقائى . ولم يجيبها سوى الصدى . أنزلوها في أول بئر قابلوها
وتركوها معلقة حتى كفت عن البكاء والتسأل . وأخرجوها ليواصلوا السير الحشن ..
وكانت بغداد عالماً حزيناً رغم ألوانه الزاهية . ساروا بها إلى «الكرخ» حيث يجلس حسنية
النحاسى .. عرضوها أمامه فسألهم بغتة ..

- من أين جئتم بها ؟ ..
وكالعادة إرتبكوا . نظروا إلى بعضهم كأنما يبحثون عن الأم لترد بدلاً منهم ... ثم
قال أكبرهم ..

- إنها جاريتنا .. مللناها وأردنا التخلص منها ..
ونظر حسنية إليها في تساؤل .. لكنها صمتت .. لماذا تنكر .. وتشكو .. ؟ ..
لماذا تعود معهم ؟ في الصحراء لا ينتظرها سوى الكراهية والملح والخاسر .. قال
حسنية :

- عشرة دنانير ..
مهموا في طمع :

- عبرنا كل هذه الصحراء من أجل عشرة دنانير ..
كانت فضل متأكدة أنه لو عرض عليهم أقل من هذا لقتلوا .. قال حسنية

- خمسة عشرة ديناراً . . لا يريدون ديناراً واحداً .
كل واحد منهم أخذ ثلاثة دنانير . . وعادوا ليكون إلى قبيلتهم «بنى القيس» وهم
يصيحبون . .

أختنا أكلتها الذئاب . . إختطفها . . ما . .
وفردوا أمامهم ثوبها الملوث بالدم . . يسمرى بالأطاهر . . وصدق الجميع
الشيخ الأصم . .

نظر «حسنوية» إليها . . إكتشف سمها الذى ينضج ولم يصقل بعد . . من هذه اللحظة
فقدت كل أنسابها . . أصبحت فصل العنودية . . لم تنس شيئاً من عذاباتها . . أيام الجوع وليالى
الخوف . . والطرود حتى موت أمها كمدماً كانت تهذى بكل هذا . . وتدفع الشعر من
ينابيع هذه الآلام . . كان حسنوية يشطفها مثل يهودى يعمل بالماس . . ومرت السنوات فلم
تمح جرحاً أو ندبة . . تعلمت أكثر مما قدر لها . . ورفضت نقاب الجوارى . . وجلست سافرة
وسط شعراء بغداد . . تسمع إليهم . . وترد عليهم . . تحفظ القصيدة من أول مرة . . ثم
ترجمل في التوقصيدة على نسطها . . وفرك حسنوية يديه . . وهو يرى قيمتها تزداد كل يوم . .

لكن الحب . . ذلك الطائر الأبيض المقصوص الجناحين نقر جدار قلبها . . ذات ليلة
أقبل سعيد بن حميد إلى مجلسها . . لمتت نظرها لأول وهلة حمرة الخجل التى علت وجهه
عندما طلبوا منه أن يقول شعراً . . ثم قال أشعاراً حزينة عن الوحلة في شوارع بغداد . . لا
تدرى لماذا لم تعارضه . . لعل الشعر مس الجرح الذى جاهدت في إخفائه . . وانتصفت
الليل ، وأصبح القمر عماقاً . . فسمعته يتمتم في صوت خافت . .

- هذا القمر . . يتركنا . . ويموت . .
التفتت إليه في فزع . . علت حمرة الخجل وجهه . . بدأت تراقبه بباهتمام . . لميت
السوداء الصغيرة . . وأنفه المفلطح بعض الشيء . . هذه الكلمات الحمقاء التى تهوه بها . .
ماذا تعنى ؟ . . أخذت تسخر منه فجأة تردد الأشعار الموحية . . وترصد له . . وإنطوى
على نفسه . . وصبح المجلس بالضحكات . . والحوارى يذوقن من خلف السر . . وحسب
حلم حمامته . . وسى بخله المليدى . . وإنعزلت كؤوس الشراب . . وبالعت هي . .
فسونها عليه . . وظل القمر عماقاً . .

لم يأت في الليلة الثانية . . ولا الثالثة . . وبحتت عنه . . وأدهشها أنها تسحت . . ومال نايجر
أغنام على حسنوية يعرض فيها مبلغاً كبيراً . . لكنها رفضت . . فرفض هو أيضاً . . وتقدم
أمير حيوش الخليفة . . كان قادماً من بلاد الهند والسند بعد أن قتل عدداً لا يحصى من الناس
والأعيال . . ورفضته أيضاً . . وتطلعت في مرارة للمجلس الخالى إلا من أنصاف الرجال . .
وفي الليلة الرابعة كانت تقول شعراً فرأته واقفاً . .

هل لي نصيب في فؤادك ثابت كما لك عندي في الفؤاد نصيب

حسنوية نائم على ظهره . وأمير الجيوش يلمع سيفه . وأقرب ابن حميد منها . كان
هناك قمر مشقوق . وسوسنة . وظبي وحيد . وفضل تسرى في داخلها رعدة غامضة ..
قالت ..

- أين أنت يا بن حميد .. لقد افتقدناك .. ؟
ثم صمتت . حاول أن يتسم ابتسامة خجلى .. ثم هتف ..

- ربما .. لأنني أحبك أكثر ..
لحظة وجيزة كخطف البرق . وأفاق السكارى . واعتدل حسنوية وقال :

- هي جاريتي .. حتى الحب .. له ثمنه المناسب ..
انعقد المزاد لجة على غير توقع . إلتفت إليه ابن حميد .. وسأله ..

- كم تريد فيها .. ؟ ..
هتف حسنوية :

- عشرة آلاف دينار ..

ومنت فضل لو أنه عرض ثمناً أقل . وقال ابن حميد : قد قبلت . وأضاف
حسنوية ..

- أمامك ثلاثة أيام .. وإلا سوف يتضاعف المبلغ .
وخيم الصمت . ونهضت فضل . أغلقت باب حجرتها . كانت مسرورة ..
إكتشفت في هذه اللحظة ماذا يعنى إسمها .. فضل العبدية .. لا نسب .. ولا رأى ..
ولا مصير .. وحين أقبل حسنوية صرخت فيه ..

- لماذا فعلت ذلك .. ؟ ..
قال في صفاقة ..

- ومن قال ان العشق بلا ثمن .. ؟

كانت النجوم لها لون الملح . ووقف ابن حميد أمامها فقيراً . ففر كل شعراء العالم
بسيطاً وصريحاً مثلهم . لكن حسنوية على حق .. الحب كالأحلام باهظ الثمن . كم مرة
تضاعفت هذه الخمسة عشر ديناراً الحقيرة منذ أن أصبحت فضل «عبدية» .

لم يحضر ابن حميد في الأيام التالية .. بغداد ثقب ابرة . كل دينار ينفد منها يحتاج إلى

معجزة . وإلى تلال من القصائد . مدح أمير الجيوش . وشهبندر التجار . والوزراء .
وتجار الحروب . ولصوص القوافل . إستوهب ثمن عشقه من كل المتخمين . وتحول الشعر
إلى أسماك بالية . ونامت فضل تحت شمس الصحراء . . ومد الأخوة أصابعهم ونزعوا
قلبها . القوه في قبر الدم . وهتف حسنوية . .

- وهل حسبت أنى أبيعك إلى شاعر مخلص . .
لكن هذا العاشق الشاعر المفلس جاء في اليوم الخامس . وضع أمامه عشرة أكياس من
الدنانير . . وترقب فضل كعصفورة .
وإشرأبت بغداد كلها . وصحك حسنوية في سخرية . .

- هذا هو اليوم الخامس . . وهذا فقط نصف المبلغ . أمامك ثلاثة أيام أخرى .
وعاد ابن حميد يلهث وحيداً . وعادت فضل إلى حجرتها فإكتشفت أن حسنوية قد
وصع حرساً على كل منافذ البيت . وكانت تحلم بابن حميد ، يرشق الزهر في مفرق
شعرها . . وعلى وجهها وصدرها . يغطى حسدها كله بورق الزهو . . حتى إذا نهضت
ناتر حونها كالفرشات الملونة . . ومدح ابن حميد الوزراء . والقادة . . والسماسة . ولم
يعطوه شيئاً . . ظلوا يلحون عليه أن يقص عليهم قصة غرامه الأبله . واستمع الخليفة
إليه صاحكاً . . طلب منه أن يسمع أشعاره أولاً فوضع ابن حميد قلبه بين يديه . تلوى مثل
شهاب يحترق . وفجر في الكلمات كل الأمنيات المرتعدة . . وأشار الخليفة لصاحب بيت
المال أن يهبه عشرة آلاف دينار أخرى . ومرة أخرى حمل ابن حميد المال . وأصطفت
الأكياس تحت أقدام حسوية فتتهتف . .

- ما أصعب إحساسك بالرسم . لقد تبددت المهلة الثانية كسحب الصيف . .
كان الحراس متيقظين . حين حاولت الهرب قبضوا عليها . وضحكت بغداد في
خشونة . . وبصحه أصدقاؤه . بهذا المال تستطيع شراء جيش من الجوارى الروميات
والحششيات . لكنه يريد فضلاً ولا شيء سواها . وكان أبلهياً لدرجة كافية فذهب إلى
الخليفة . . وقف بين يديه يحكى عن حبه الذي تقتله أطماع حسنوية . . فسأله . .

- أى شيء تشبه فصل . هاهـ التي أصنتك . .
قال ابن حميد

- تشبه حلماً عامصاً . وتشبه كل لحظات العذاب والشوق . وتشبه قطر الندى .
ووعده الخليفة وعداً غامصاً . وفوجيء حسنوية بموكب الخليفة يدق بابه . وشعر بالراحة
حين لم يجد ابن حميد في ركابه . وقال الخليفة في لهجة محددة . .

- أخرج لما فصل لنرى حاجة ابن حميد . .

وأسرع يصيح على وجهها اللمسات الأحيية هودت . هذا الخليفة المنجنون يريد .
يعطى هذه الدرر لشاعر مفلس . وعندما أنبلت على هوجي . الخليفة بذلك التآلي ال
يشع منها . وإزداد التآلق وهي تقول أشعارها الحريية . تسأت تحاول أن سمع
الخليفة . على برفع أصبعه الذي فيه شارة الحكم . أمر بأن يوقف هذا الهات لكنه قال

- أما سعيد بن حميد فسوف يكون عامل على حراسان . وأما فضل فستكون دينا
فصرى ..

وشهقت فضل . وقفز حسوية فرحاً . ومارب الأعمار الملونة لقد حققت الخد
عشر ديناراً أقصى استثمار لها ..

لا أحد يعرف أين ذهب ابن حميد . قالوا إلى حراسان . وقالوا . بل طمت
فوق دحلة . وقالوا إنه في زنزاة مفردة في سجن (السرا) . لكن الشيء المؤكد أن نص
سيقت إلى قصر الخلافة . ورات شقائق النعمان ملأ الخديفة دأها جروح نازفة . تطا
إليها الجوارى في حسد . كن جميعاً أجساداً جميلة وساحر هوية . وأنوثة لا تماوم
فضلاً كانت عقلاً فريداً . شاعرة حقيقية . وعاشقة بلا أمل . هتمواها ..

- أسمعيانا أشعارك يا فضل .

كانت تشعر بالغربة حارقة للحرير ملمس الشوك وللشراب طعم العلم
ظلت صامته أمام الخليفة قاده إلى غرفته فكابت المعرمة داسره رفضته ورو
عرش الخلافة ولو شاطت لصعدت وحكمت وأمرت بما تريد كانت قد حصدت
إستولى عليها نعمه فليحدث ما يحدث لابن حميد . اقبل الولاية أو يشتري .
الجوارى لكنها لن تسلم نفسها مهما هددها الخديفة أو شبع اللالي تحت
بها اردادت سرحة حسوية وولمه بها سوف تبقى نائمة . بلها تحصل على
الداخلي

ه يس الخديفة . بها فأعطاها للحراس .. وفيها الحراس للسنح . وسعها
البحسان في صبر مظلم . وتداخل الليل والنهار والرطوبة وقسوس القشران .
الساعيث والبهها على ظهرها وحدها . دائلها الطويلة المسره الثامة . ولم تكن تلك
أن تحلم . سمدج شמוש ملونه . وسع زهرات من شقائق النعمان . وسعها
والاد تتسب إليهم . ولم تحلم ابن حميد

ويطل الخاتم توقع أن تلين قليلا . وعندما حشى أن تموت داخل السجن أمر علمانه
بأن يحوها وأعادوها إلى القصر دون مطلب محدد . وأشركها في مجالس الشعراء والمع
... من مريح العالم يتسلل إليها . وهكذا . قدر لها أن تراهم مرة أخرى

الأخوة الخمسة . . لم تتغير ملاحظتهم رغم كل هذه السنين . كما تطاردها في الكواويس . كانوا أمام الخليفة . . وأجسادهم العملاقة بدا عليها هزال غريب إرتعدت . . تخيلت أصابعهم وهي تمتد إليها وتعيدها إلى صحراء الكراهية . لتببعها مرة أخرى . إلى نخاس آخر . . وكان أكرهم يتكلم .

- رحماك يا مولاي . خمس سنوات من الجذب والمجاعة . بلاد اليمامة قفر وكلنا في عوز وحاجة . .

هيتهم رثة مثل كلماتهم . حيوانات زاحمة تبحث عن شيء تعلقه . كانت بغداد ناءة . مليئة بأفواج القبائل الرثة الجائعة بعد أن لفظتهم الصحراء القاحلة . قال الخليفة

- إذا كان الغد . . تعالوا إلى مجلسي . .
قبلوا الأرض تحت أقدامهم وارتدوا . . وفضل لا تكف عن الإرتعاد . ثم نهضت سارت إلى جناح الخليفة . . لقد جاءت لحظتها أخيراً . . وحين توجه هو إلى جناحه وجلس . في أتم زينة . . وعطرها حار كنداء الرغبة . ورق صوتها للمرة الأولى . .

- أسعد الله يومك يا مولاي . . .
تطلع إليها في دهشة . . ثم تساءل

- ماذا حدث للطيبة المافرة ؟
ضحكت بصوت رائق وقالت .

- فلنقل أنها ملت المطاردة .
- قول غير مقنع .

ساد الصمت ، وكل منها يتحسس الطربون إلى الآخر . فتحت قنينة العطر . .
قطرة على وجهها وقطرة على لحيته ثم قالت

- وهل يقتنع مولاي إذا قلت إنني أريد أن أعقد صفقة بيننا
وصمت الخليفة تلوي جسدها داخل ثيابها الشفاهة . . إقتربت بوجهها . .
وهمست . .

- هؤلاء الخمسة من بلاد اليمامة . هم فطاع الطرق الذين إحتظفهم . .
حسنوية . . وأنا أظالمك بمغاسمهم
ضحك بصوت حاد . إبتعد برأسه لعله ساعد عن تأثير أنفاسها
- ذلك أمر مضي لا دليل عليه ولا . .

- الدليل هو أنا .. والبينة هي كلماتي .. والجرح لا يندمل مهما مضى عليه ..
- إنهم رجال من بنى القيس . أنسابهم معروفة .. وعامل على اليمامة يعرفهم ..
- قالت في صوت خافت مبحوح ..
- هذه صفقتي يا مولاي دعهم في «التنور» وانس أمرهم .. أكون لك .. دون قيد أو شرط ..
- همهم : دون قيد .. أو شرط .. ؟
- ثم هتف وهو ينهض مبتعداً ..
- كلا .. ليس دون بينة .. أو قاض .
- وتركت جناحه صامتة . لم يبق خلفها إلا العطر والرغبة المحمومة في نفس الخليفة ..
- وجاء المساء وقد غلفها الصمت البارد . ورمقها فأدرك أنها لن تأبه به مرة أخرى . وفي الصباح جاء إليها غلامه وهو يقول ..
- يطلب منك مولاي أن تحضري مجلسه ..
- توجهت إلى القاعة .. رأت الخمسة واقفين . كانت سافرة كعادتها .. وتأملوها لبرهة ثم أحنوا رؤوسهم .. هل تعرفوا عليها ؟ . سألم الخليفة في غلظة ..
- اذكروا أنسابكم ..
- أدهشهم السؤال المفاجيء . ثم ذكر كل واحد نسبه . هي الوحيدة التي نزعوا سبها . وحولوها إلى سلعة رخيصة .. وصرخ الخليفة ..
- أنساب كاذبة .. متتحلة .. وأنتم حفنة من قطاع الطرق ..
- برقت عينا فضل في إنتصار . دارت عيونهم في فزع . حطت عليها لبرهة وجيزة .. هتفوا ..
- ولكن يا مولاي .. قومنا والجفاف ..
- وصرخ الخليفة ..
- يا حراس . خذوهم إلى «التنور» لا أريد أن أسمع عنهم شيئاً بعد الآن ..
- وأحاط الحرس بهم . بأسماءهم ومخالبهم وكوايسهم .. نظروا مرة أخرى .. لعلمهم كانوا يتساءلون عن هذه النظرة المنتشية على وجهها .. إقتادوهم وهم يتأوهون كالحيوانات يحاولون الدفاع عن أنفسهم بكلمات متقطعة .. وأصبحت القاعة خالية فجأة .. كانت فضل مازالت تحلم . والخناجر تسبق حلمها : تمت الصفقة يا مولاي .. وعلى أن ادفع الثمن .. والصفقة على أى حال .. خاسرة .. خاسرة حتى الموت !

إسحاق الموصلي

من يبيعني روحا ليست بذات جروح ؟!

إنحنى الخادم أمامه ، ثم قال :

- سيدي .. جاء الرجلان ..

وهتف به إسحاق الموصلي أن يدخلها فوراً .. أطفأ المصابيح ، وأسدل الستائر لأن النجوم كانت متألقة أكثر مما ينبغي . وجلس يرتعد . يسمع خطواتها القادمة . حتى وقفا أمامه بلا حركة . ثم أخذ يسمع صوت أنفاسه الثقيلة . فتح الأبواب ونظر خلفها فتح النوافذ والمشربيات . لم يكن هناك سوى إسحاق الموصلي : الآخر الموجود في داخله ، والغريب عنه في نفس الوقت . والرجلان يقفان في توحد مع الصمت والظلمة . وفكر : يحسن بمن كان في مثل مركزي أن يتماسك قليلاً . لذلك صاح متظاهراً بالمرح واللامبالاة .

- هيه .. هل تريدان شرابا أيها السيدان ؟ .. ؟

ولم يردا عليه فأوشك أن يصرخ . جرى مثل طفل مذعور إلى صندوق النقود وأخرج كيسين كبيرين . ألقاهما تحت أقدامهما . وأخيراً تحرك أحدهما ، وأخذ الكيسين ودسهما تحت عباءته . وقال الآخر بصوت حاد كحافة السكين :

- من هو . ؟ .. ؟

همس به إسحاق .. بالأسم كأنما يحدث نفسه : زرياب ..

- ما هو عمله .. وأين نجده .. ؟

هتف في دهشة : ألا يعرفه أحد منكما .. إنه تلميذي ..

وظلا صامتين .. وأصبح عليه أن يواصل حديثه المضطرب وحده .

لم يكن مضطربا بالمعنى الدقيق للكلمة . كان فقط يحاول منع إسحاق الموصلي الغريب من أن يتحدث بكل هذا الحقد وهذه المرارة .. والرجلان متوحدان داخل الظلمة ، حتى

أذه حساسي لنحطه أمها غير موجودين ، وأنه يتحدث مع نفسه . فهتف فجأة :

- يا أصدقائي إنني لست خائفاً . . المشكلة إنني أكره عدم الوفاء . . لقد كان
الميلدي

أزاح الستائر فرأى بغداد مثل أرملة وحيدة . سار إلى غرفة جاريته «دمن» ؛ أحد
حواريه إلى قلبه . كانت ساهرة . تحس بما يؤرقه . ألقى بنفسه جانبها وهو يهتف :

- قلبي مثقل الليلة يا «دمن» . .

مسحت بيدها البيضاء على جبهته . وإبتسمت . رسمت على شفيتها قمراً صغيراً
وُفكر : ان «زرياب» سوف يتحلل جسده في التراب وهو وحده سوف يتحمل كل
العذاب . سألها :

- هل تمنيت قتل أحد . .

هتفت دون تفكير : نعم . النحاس الذي باعني بالطبع .

الآن يستل الرجلان خنجرهما . ولعل الصرخة تصل إلى هنا . . قال في سرعة :

- غنني شيئاً يريح قلبي يا دمن .

أمسكت العود . رددت الالحان التي علمها أياها . : إنها الحان ماسخة . وكلمات
ركيكة بلا معنى . ولكن صوتها يختلط بصوت غريب . . بزرياب وهو ينادى عليه في الليل
الساكن . فتسمع بغداد كلها النداء والصرخة . . فعاد يهتف بها :

- كفى . لم أكن أعرف أن الحان يمثل هذا السخف .

وتركت العود دون مناقشة . لم تبذل أى جهد من أجله . من أجل أن تنشله من
داخله . ورأى اسحاق الخناجر وهي تحترق حسد زرياب الأسود . فتخرج دماؤه سوداء
تختلط بليل بغداد الأسود . وتذوب الجثة . ويضيع الوزر ، و «دمن» ترقبه في هدوء قاتل

- لاعميني النرد . .

أحضرت النرد وأخذها يتبادلانه بينهما في صمت . ونهض وخلع عباءته . وفك حزامه
ولم تتبعه دمن . ظلت تحديق فيه . مدت يدها في حركة متوسلة وهمست :

- سيدى . . اننى أحب . .

الفتت مدحشاً . تأمل وجهها المستكين الراض . خيل إليه أنه لم يرها من قبل

همهم :

- ماذا ؟ من . . ؟ . .

همست بأخر اسم كان يتوقعه : زرياب ..
هل صرخ .. ؟ .. هل سمع أحد الصرخة ؟ هل استيقظت بغداد ؟ أين غاص
الخنجر .. ؟ ..

زرياب .. أيها الطائر الأسود الضال .. لماذا بنيت عشك على نافذتي ، والتقطت
حبك من دم شرايبي .. حين وقفت بوجهك الكثيب وثيابك الرثة ، وركعت ، ومرغت
رجهك في عرق أقدامي .. وتوسلت إلي ؟ .

- مولاي .. علمني ..
لحظتها . إكتشفتك أيها الوغد الموهوب . جوهرة لا تخفى قيمتها حتى على متديء
كان قدرني أن التقطك . وأعلمك . وأخافك ! ..

وسار اسحاق إلى مجلس الخليفة متأخراً . إكتشف أن الجميع قد سبقوه في الدخول .
لكنه تقدم صوب العرش دون أن يلتفت لأحد . كان مركزه يؤهله لهذا التقدم المباشر ..
قال الرشيد :

- جئت في وقتك يا أمير الغناء .. أحكم بيننا على هذه المهبة الجديدة .
ورفع اسحاق رأسه فرأى الأمراء ، والقادة ، ورجال الحاشية . والشعراء .
وزرياب .. يرقبه وعلى وجهه إبتسامة مليئة بالشفى . كيف وصل ؟ كيف وقف أمام
العرش ؟ . وسأله الرشيد :

- هل تعرفه .. ؟ ..
وتلجلج إسحاق وهو يحاول الأجابة . وتقدم زرياب .. ببرود قاطع :

- أنا تلميذه يا مولاي .. وأنغامي كلها .. فضل منه ...
من أجل ذلك كان لابد من قتله . لأنه أرغم اسحاق الذي في داخله أن يشي عليه أمام
الخليفة . إنه يظهر التواضع والسماحة الزائفة . وأمره الرشيد أن يناوله «العود» ، وأحرقه
اسحاق من جرابه وأصابه ترتعد . قدمه إلى زرياب لكنه لم يأبه به . ترك يده معلقة في
الهواء . واستدار قائلاً :

- يا مولاي .. لي عود نحتته بيدي وأرهفته باحكامي .. لا أرتضى غيره .
وسأله الخليفة متعجباً :

- ما منعك أن تستعمل عود أستاذك .. ؟ ..
- إن كان مولاي يرغب في غناء إستاذي غنيته بعوده .. وإن كان يرغب في غنائي
فلا بد لي من عودي ..

واسحاق واقف كالأبله . والطائر الأسود يفرس منقاره في لحمه . . وأحضر العود
فرأى الخليفة أنه لا يختلف . لكن اسحاق رآه . . وعرف سر اصبرار زرياب ، واختفائه كل
هذه المدة .

وضرب العود ضربة واحدة . . نغمة واحدة . ثم غنى . تنقل بين الأصوات كأنه
يسبح مع موج . يعلو وينخفض . يفتح كل جراحات القلب . وارتعدت أحجار القصر .
وسكنت بغداد . وكفت الأسواق عن البيع والشراء . وكفت السحب عن السفر . .
«زرياب» يغنى . . واسحاق يتضامل . . يتبدد . كيف صنع هذا العود ؟ . وأى شيطان
ركب له أوتاره . ؟ .

وعندما توقف ظل الخليفة صامتا ، والمجلس محتسب الانفاس . هتف الخليفة ينادى
اسحاق فأدرك أنه سوف يأمر بقتله . . لكنه قال :

- كان يجب أن أعاقبك لأنك لم تخبرني بأمر زرياب من قبل . اعتن به أكثر حتى أفرغ
له . . إن له معنى شائناً كبيراً . .

وانحنى إسحاق . وابتسم زرياب . إحتضن عوده ومضى . . كيف لا يقتله ؟ . .
دخل اسحاق ذات مرة إلى مجلس الخليفة . كان إبراهيم عنده وفي مجلسه عشرون
جارية . عشر عن يمينه وعشر عن يساره . وفور أن دخل سمع خطأ في اللحن . في عود
ما . . أو وتر ما . قال دون تردد . هناك خطأ يا مولاي . ونظر الخليفة إلى ابراهيم فقال :
لا يوجد خطأ . وأصر إسحاق . حدد الخطأ في الجهة اليسرى . وإستمع ابراهيم إلى عزف
الجوارى العشر ، وأكد أنه لا خطأ . وأمر اسحاق الجوارى العشر أن يمسن وتضرب
الثامنة . وأقر ابراهيم بالخطأ حين عزفت الثامنة وحدها . . وقال الخليفة وهو يرمق اسحاق
في اعجاب :

- يا ابراهيم . . لا تتجادل اسحاق بعد ذلك . . ان رجلا فهم الخطأ بين ثمانين
وتراً ، وعشرين حلقة لجدير ألا تتجادله . .
كان هذا قبل أن يظهر الطائر الأسود . . ويرفض عوده . . ويبدد أصواته .
قالت «دمن» وهي تسترد الرد :

- لو شئت قتلتني يا مولاي .
تأوه اسحاق وهو يرتدى عباءته ، ويربط حزامه : ما أكثر القتلى هذه الليلة . . خرج
من غرفتها . إنحنى الخادم أمامه . . قال له :

- أحضر جوادى وجهزه للركوب . .

وفكر : سوف أذهب للخليفة ، وأعترف بكل شيء . .

مات أبوه ابراهيم الموصلى ، وفى عظامه برودة السجن ، والخوف من الشرد فى الازقة . وحين أمسك إسحاق بعوده اهتموه بأنه يسرق ألحان أبيه . لم تسمع أذانهم الصبأ إلا نشازات الوتر . فياويح قلبى أين منهم تلك النار التى تحرقنى ولا تحبب ذلك الجوع الذى يعضنى ؟ . أغلقت أبواب وأسدت ستائرى . أمرت الخدم ألا يدخلوا على أى مخلوق . وما أن خلوت إلى نفسى حتى رأيت أمامى : ذلك الماخورى اللعين . شيخ يتوكأ على عصى مطعمة بالفضة . على رأسه قلنسوة ملونة وفى قدميه خفان لها نفس الألوان تتداخل ملامحه فى لحيته . وتتداخل لحيته فى ثيابه وعباءته . طوح الكأس بضربة من عصاه وأمرنى بالغناء . فأخذت أغنى . أخرج كل عصارة قلبى ، وكل أحزاني . ولم تفارق نظرة السخرية وجهه . هتف بى . . يالك من حيوان أعجم . . أهدا عناء ؟ . وأخذ العود وغنى هو . .

ولى كبد مقروحة من يبيعى .
بها كبد ليست بذات قروح . . ؟ . .

فوجئت أن الجدران والأبواب والسقوف وكل من فى البيت يتجاوب ويغنى معي . بل ان أعضائى وثيابى وأنفاسى تجاوبت معي . أننى أتلحل وأبكي وأزحف على أربع . وأقبل قدميه . وأعود . . أفتح النوافذ . وأحس بخشونة الحبال حول عنقى . وبأيد تجذبنى إلى قاع دجلة البارد . . وألقى الماخورى بالعود وأمرنى بالغناء فبكيت . قلت : ليتنى أستطيع يا سيدى . ضربنى بعصاه كان رأسى قد انفلق . أخذت أغنى . . وأغنى . حتى تفتتت النجوم وتلونت الأعمار . وهتف بى . غن يا اسحق غناء حقيقياً . . وضربنى ضربة أشد . فغنيت حتى تواصل الليل والنهار . تفتحت كل الزهور . . ونضجت كل فتيات الأرض واشتقن للحب والجماع وغنيت حتى فتحت الممالك دون سلاح . غنيت مرارق وحرمانى . فخرجت البرودة من عظام أبى . وانفك قيد الرق عن معصم أمى . غنيت «دمن» التى أشتريتها وعبدتها . وغنيت خوفاً القاتل من زرياب . وهتف الرجل : لقد غنيت أخيراً يا اسحق غناء حقيقياً . . ولن تغنى بعدها أبداً . وكاد يمضى . فهتفت أتوسل إليه أن يقول لى من هو ؟ . . فابتسم وهمس لى : ابشريا اسحاق . كان الشيطان نديب . هذه الليلة . . لقد أخذت روحك وأعطيتك المجد . . فكيف خسرت الصفقة أياها الماخورى ، وسرق الطائر الأسود مجدى ؟ . .

انحنى الخادم أمامه وقال :
- الجواد معد يا مولاي . .

وقبل أن يستعد للنهوض . رفعت الستارة الموجودة على الباب . ودخل زرياب . . ووقف أمامه لا غاضباً ولا مبتسماً . . قال فى هدوء كأنما يقرر أمراً واقعاً :

- نفذ نجوت من القتل .
وقال اسحاق بصراحة مطلقة : هذا أمر يوسف له .
- إن رجلك لم يندعاك . لكن الحظ حالقني هذه المرة . هذا الحظ الذي نادرا ما
بمألقي .
وإرغمي على احدى الوسائد وهو يتهدد ووقف إسحاق . وعندما ساد الصمت بدأ
برفه . هتف .
- هذا يزيد الأمر تعقيدا . لو تم القتل لم كل شيء بساطة متناهية .
وتأوه «زرياب» وهو يهمس . أني خائف ..
وصاح اسحاق كالمستغيث .
- أيها الوقح . كيف تأتي إلى وأنت تعرف إنني الذي حرضت على قتلك . ماذا تريد
أن تفعل بي ؟ ..
- لست أدري .. انني خائف فقط وخوفى مميت . كأنني أولد من جديد ولم يقطع
«خلاصى» بعد ا .
ولأنهد اسحاق جالسا . وأخفى زرياب وجهه بين يديه . خيل إلى اسحاق أن «دمن»
قد دخلت وجلست عند قدمي زرياب وغسلتها بماء الورد ثم حملت الأثناء ومضت
وخيل إليه أن زرياب يبكي . تجاوز غيظه ونهض يدهه ..
- أنا أكرهك . ولا حيلة لي في ذلك . لقد مكرت بي . وأردت أن تعلقوني . حتى
العود تركته في يدي مثل يومه ميتة لو أنك ولدي لكرهتك بنفس الدرجة . وليس أمامك
وأمامي الاحلان : أما أن تذهب عنى في الأرض الواسعة لا أسمع لك خبراً . وأما أن تقيم
في بغداد على كرهى ورغمى .. مستهدفاً لسهامى . فإن لا أبقي عليك ولا أدع لاغتيالك
سيلاً .
- وتساءل زرياب بهدوء : إلى أين تريدني أن أذهب .. ؟ ..
- بعيداً . لا إلى الشام . ولا إلى مصر . ولا إلى أى بلد يظللها ملك بنى العباس ..
أعبر البحر إلى الاندلس ..
ونفض زرياب .. همهم : سوف أرحل الليلة ..
كان ضعيفاً . مهزوماً . منكسراً دون أى مبرر .. وذهب ..
- هل أشعلت بغداد أضواءها .. أو أن هذا الصبح قد جاء أخيراً .. ؟ .. ليلاً أو نهاراً
لا يهم .. لقد أصبحت له وحده .. فهل أنت يا اسحاق .. اسحاق .. ؟ ..

ارغمت «دمن» وأخذت منها ما تريد . وغنيت للخليفة فوهب لك ضبيعة وجوادا وجارية . وحين سأل عن «زرياب» تحدثت عن غدر العبيد وكيف يفرون إلى خرائب بنى أمية . وأخذت تصعد ، وتواصل النباش في جحر الفأر المسمى ببغداد . ويشرب الجميع طرباً لالحانك «الناشزة» . . وأنت وحدك تعرف متى يغنى زرياب . . حين يتدأخل البرق والرعد وتفيض الأنهار في الربيع وتهاجر العصافير . لحظتها يغنى زرياب أنت وحدك تعرف . . لأن الخليفة لا يسمع . . والأمراء لا يسمعون . . .

قال اسحاق للخليفة المأمون :

- لا أريد أن أدخل مجلسك مع المغنين . أدخلني مع الشعراء .
ووافق الخليفة فارتفع إسحاق درجة . ثم عاد يلح أدخلني مع القضاة . فوافق الخليفة وارتفع إسحاق درجتين . وألح أكثر وأكثر : أدخلني مع الفقهاء . . ووافق الخليفة فارتفع إسحاق ثلاث درجات . وكان لا يزال جائعاً . فتوسل للخليفة أن يدعه يصل خلفه في المقصورة . . وزجر الخليفة من الغيظ . . وجعله يهبط كل الدرجات ويعاود الدخول مع المغنين .

وخرجت من عنده أهزكتفى . واختتمت ليلتي باغتصاب «دمن» . . وفي الصباح وجدتها معلقة في جبل . والحبل يتدلى من السقف . وجهها أزرق ، وجسدها بارد . .

يقولون يا اسحاق : لماذا أنت حزين هكذا . . . ٤ . . فأقول : لقد أضيت نفسي من فرط الاشتهاء . وحلت روحى عبه طموحى . وغيب «دمن» في بئر لا قرار له . .

تمنى الخليفة الواثق أن يوليني قضاء بغداد لما عرف من عفة لسانى وصدق نفسى . وبها هى محكمة الموتى معقودة فوق قبر «دمن» . ودافعت عن نفسى . ان زرياب كان ضعيفاً أكثر مما ينبغى منهزماً قبل أن تبدأ المعركة . . ومع ذلك حكموا بإدانتى . .

وإلى منتصف الليل طرق خادم الخليفة بابى ، هضبى :

- مولاي هارون الرشيد مؤرق . . ويريدك على الفور . .

أخذت عودى وسرت إلى القصر . وسمعته وهو يصيح مثل طفل مشاعب :

- أريد المغنى . . أريد الموصل . .

وارتميت على الأرض أمام سريره . . وهتف الخليفة فى توجع :

- غن يا اسحاق . . قل أغنيات الموتى التى تعرفها . .

أمسكت عودى لكن الريشة «انقصت» . كل ما معى من ريش قد «انقص» . وكل

ما فى بغداد من حمام قد ذبح . توسلت إليه :

- لا أستطيع العزف يا مولاي .. لا يوجد ريش .
وتناول الرشيد من منضدة بجانبه خنجراً مرصعاً بالماس .. صاح وهو يلقيه إلى ..
- اعزف بهذا ..

ومررت بالخنجر على الأوتار . فتمزقت كلها . ونظر إلى الخليفة ببلاهة غاضبة . قلت
لم تبق إلا شراييني أصنع منها أوتاراً . غرست الخنجر فسال دمي قانياً كرهبة لا تشبع .
وأخذت أغنى .. قطرة .. فقطرة ، والخليفة ينصت راضياً .. وعندما أوثك دمي على
النفاذ ، هتف :

- هذا حسن يا اسحاق .. ولكنني الليلة .. كنت أحلم بزرياب !



عبد الله بن المعتز خليفة ليوم واحد

« أشقى الناس .. جسم تعب ونفس خائفة .. » ..
كسأت ببغداد مثل سهم مسموم .. لا يدرى أحد من أطلقه ولا إلى أين
ينطلق .. ؟ .. وابن المعتز يردد هذه الكلمات .. وخلفه الأعوان .. خليط متناثر من
الشعراء والافاقين والترك والد يلم .. كلهم يدفعونه دفعا إلى قصر «المخرم» كأنهم يدفعونه
إلى نهايته ..

هذا هو العام السادس والتسعون بعد مائتين .. واليوم هو الخميس التاسع من ربيع
الأول .. والموتى أكثر من عدد الأيام .. والجميع متوجه إلى قصر «المخرم» بعد أن عجزوا
عن إختراق قصر «الحسن» حيث تحصن الخليفة «المقتدر» . وجاريتة ظلم . ووزيره ابن
الفرات .

إستوى ابن المعتز على العرش أخيرا .. لم يكن عرشا بالمعنى المفهوم .. كان مجرد
أريكة أحضروها من أحد أركان القصر المهجور .. وأنزلوا ما عليها من اترية .. وظل ما في
داخلها من حشرات صغيرة تزحف على جسد الخليفة وثيابه طوال مدة جلوسه لأخذ
البيعة ..

أسرع غلمان الترك وأحضروا قاضى بغداد «أبو الشوارب» .. قادوه للقصر دون أن
ييالوا بالرد على أسئلته .. وعندما وصل إلى القصر تقدم منه ابن خمدان والسيف متدل من
خاصرته .. وأمره قائلاً :

- إستعد لمراسم بيعة الخليفة الجديد .
تساءل الشيخ في بلاهة :

- وماذا حدث للخليفة المقتدر . . ؟ . .

وكان الجواب دفعة قوية في صدره . . ونظرة حادة من عيني ابن حمدان . . وكان الخليفة الجديد ابن المعتز جالساً على الأريكة مرتبكاً كطفل ، خائفاً كفأر مذعور وقع في مصيدة . . وأخذ القاضي يسأله عن نسبه حتى وصل إلى الجد الأكبر العباس بن عبد المطلب . . وإنتهى من مراسيمه الابتدائية ليعلن أن النسب صحيح . . والسند الشرعي متوفر . . وحين رأى السيوف متحفرة صاح . .

- إن خليفة الله في أرضه هو العباس عبد الله بن المعتز . . خليفة المسلمين وسليل العباسيين . . واسمه الخليفة الراضي بالله . .

وهكذا أصبح على وجه الأرض خليفتان . . فأيهما أحق بالبقاء وأيهما أحق بالموت . . ؟ . . ووقف وجهاء المدينة كل واحد ينقض بيعته القديمة ويؤكد بيعته الجديدة للراضي . . نهر دجلة لا يقف رغم ما في جوفه من جثث . . كذلك لا تقف الأرض بما عليها من مقابر . . فيا أيها النجم البعيد كن شاهداً على . . إن الأتراك الذين قتلوا أبي . . وقتلوا جدي . . يقفون الآن خلفي ليقتنصوا بيعتي بسيوفهم . .

تقدم ابن حمدان . . القائد الأفاق . . هذا السيف المعلق في خاصرته يبيعه لمن يدفع الثمن أكثر . . حارب مع العباسيين ضد القرامطة . . وحارب مع الطولونيين ضد العباسيين . . وها هو الآن ينكص عن بيعته للمقتدر ويتهتف لابن المعتز :

- من أجل المسلمين . . ومن أجل خليفة راشد . . عاقل . . أعطى بيعتي وأبرم عهدي . .

وأعطاه ابن المعتز الثمن فوراً . . عينه أميراً للجيش . . وتقدم ابن الجراح . . لعله كان الصادق الوحيد . . ولعل كل كلماته كانت هي الكلمات الصادقة الوحيدة . . وعندما بايع وإستدار لينصرف . . أعطاه الوزارة . . فبدت على وجهه علامات الدهشة الحقيقية . . ثم تقدم «عمروية» . . جاسوس الوزير . . وعين الترك في مجالس العلم والفقه في بغداد . . بايع بكل الاخلاص . . وظل واقفاً حتى انتزع ولاية الشرطة من فم ابن المعتز . . وتوالت بيعة الجسيح . . وتفرقت مناصب الدولة . . أثمان باهظة لبيعة بخسة وأريكة مليئة بالحشرات . .

وأحس ابن المعتز . . أنه وحيد . . يصرخ فلا يسمعه أحد . . مثلما قال الشعر قديماً وألف الكتب ، وكانت النتيجة السخرية من هذا الأمير الذي فشل في لعبة السياسة فلجأ إلى القلم وظل يطوف ببصره في الموجودين ثم نهض صائحاً :

- ابن جرير الطبري . . ؟ . .
ونظروا إلى بعضهم في دهشة . . وتقدم ابن حمدان وهو يقول :
- الطبري مجرد رجل من رجال العلم . . وليس لبيعته أهمية تذكر . .
لكن الخليفة ضرب الأرض بقدميه :
- بل لها أهمية . . هي أكثر أهمية من كل هذه البيعات مجتمعة . .
وانهد جالساً فأوشكت الأريكة على التداعى . . وصرخ في داخله . . إكتب بيعتي
يا طبري . . وهبني سطرأً من التاريخ . . منذ شهور أربعة عندما مات الخليفة المكتفى جاء
الترك بالمقتدر وهو غلام لم يبلغ الثالثة عشر . . غالطوا في حساب عمره ليثبتوا أنه قد بلغ
قبل البيعة . . يومها ذهب ابن المعتز إلى الطبري . . وسأله :
- هل كتبت هذه البيعة الجديدة ؟ .
لحظتها ابتسم الطبري وترك ريشته في الدواة وهو يقول :
- إنما اكتب عن أحوال الزمان يا أمير . . وخلفاء اليوم كالريش سرعان ما ينقصف .
فمضى ينقصف سنى يا طبري . . ؟ . .
- في السنة الرابعة من خلافة أبي «المعتز» إجتمع غلمانهم الترك وقتلوه . . وحين حملوا
رأسه إلى لم يكن يشبهها وهو على العرش . وإعتلى العرش عمى المعتمد فأصدر قراره
بنفيها - أنا وأمى وجدتي - عن بغداد . . وماتت أمى . . وماتت جدتي وهي تقول :
- لا تنسى أبداً انك خليفة . .
- حتى وأنا استجدي يا جدتي ۱۱۹ أمدح الخليفة فيأمر بالعطاء . . ولكن الوزير يمنعه . .
أمدح الوزير حتى تزهر روحى . لكن كاتب الديوان يوقفه . . فأمدح الكاتب . . وأمدح
الخدام . . وأمدح الشرطى التركى . . ويصلنى عطائى في النهاية مثل عصفور مقصوص
الجناحين . .
- ثم سميت إلى «سرمين راي» ثم إلى بغداد . . واجتمع عندى شركائى في البؤس . .
الشعراء . . والفقهاء . . وكنت بينهم يا طبري . . بعينيك البراقيتين . . واذنك اللتين
تسمع بهما دبيب العصر الخفى . .
- كنت أميراً . . صغيراً . . مغضوباً على . إذا شربت قطرة من خمر ثار الخليفة . . وإذا
زارنى فقيه علوى غضب الوزير . . وإذا لم أذكر القرامطة بسوء فى كل مناسبة تلمظ
الأتراك . . كنت أميراً . . ضئيلاً . . مات المعتمد فتولى المعتضد وأول ما فعله هو القبض

على ووضعى فى السجن . . ولم يتركنى إلا بعد أن بايعت . . ومات المعتضد وجاء المكتفى
فوضعت فى نفس السجن . . وبايعت نفس البيعة . ولم أكن أريد العرش . كنت فقط أريد
لحظة من الأمان . . وأريد «خزামী» . . جارية «الضبط» المغنى . نهض ابن المتز واقفاً .
فنهض الجميع سار وسط القاعة وفكر حائراً . .

- هذا الليل سرعان ما ينقضى . ماذا سنفعل فى الصباح وفى بغداد خليفتان . . ؟ .
تقدم ابن حمدان وامسك سيفه فى قوة .

- سوف نحاصر «الحسن» طوال الليل يا مولاي . . ونقتحمه فى الصباح ونأتيك
برأس المقتدر . . وظلوم وابن الفرات . .

وهتف الآخرون فى حماس . . وأشار لهم أن ينصرفوا ليكون موعدهم فى صلاة
الصبح . . وأخيراً . . أصبح وحيداً فتذكر «خزামী» . . هبطت على قلبه مثل قطرة
الندى . . لقد أصبح أخيراً خليفة . . أقوى رجل فى بغداد أو هكذا يجيل له . . فهل
يستطيع أن ينتزعها من سيدها «الضبط» المغنى ؟ هل يستطيع أن ينتزع قلبها ؟ . . أول مرة
رأها كانت تغنى من أشعاره . .

حدثينى يا هم سؤلى ونفسى . .
من دهان فى الحب أو من وشى بى ؟ .

منذ ذلك الحين وهو يطلبها وهى تنأى بعيدا . لا تعطيه صدا . ولا وصلاً . سار فى
جوانب القصر الخالية . . رأى أوراقه وكتبه . . هذا أهم كتاب ألفه «طبقات الشعراء» . .
سجل حافل لكل شعراء الدولة العباسية من أول ابن هرمه حتى الشيرازى . . لم يدع أحداً
منهم إلا ابن الرومى . . ذلك الشعوبى القدر الذى هجا أباه وشمت فى قتله . . سوف يبقى
هذا الكتاب بعد أن يزول العرش ولن يذكر أحد مدى المهانة التى عاناها وهو يؤلف كلماته
ويطلب عطاءه فلا يستجاب له . .

وهذا كتابه الثانى . . «الأوراق» . . تأملات فى أيام الحزن والمنفى . . وضع فيه كل
اشواقه وصباباته إلى خزামী . . كانت الكلمات تجسدها أمامه . . حين يختلط شوقه إليها
بومه فى لقاءها . . والكتاب الثالث . . «الجامع فى الغناء» فيه كل خبراته فى الموسيقى
والشعر والأصوات . . كأنه تحد خفى للضبط المغنى سيد «خزামী» . . وكتابه الرابع
«فصول التماثيل» عن الخمر فقط . . من يصدق هذا . . ؟ . . حين نهاه الخليفة عن
الشراب . . وإنسد الجواسيس فى الحانات والأديرة . . لم يهد سوى القلم كأساً . . وسوى
الورق نديماً . .

إبتسم فى حزن . . القلب مثقل . . والليل طويل . . تطلع للضفة الأخرى حيث
قصر «الحسن» . . مظلم أيضاً . . كلا القصرين والخليفتين ينتظران الصباح . وقرر أن

يترك القصر وأن يهبط للشارع .. إرتدى ثيابه وتسلسل كأنه لص .. وحين لمست قدماه
الوحل في طرقات بغداد تمنى لو أن له القدرة على الطيران إلى بيوت أصدقائه .. إلى الصولي
ليلاعه الشطرنج .. وقدامه بن جعفر ليقرأ معه الشعر .. والطبرى ليسأله عن أخبار
الزمان ..

وأدرك أنه لم يهبط إلا ليذهب إلى الطبرى .. كان يقف بالفعل مثل طفل مذنب أمام
بيته .. فتقدم وطرق الباب .. وسمع وقع خطواته .. ثم فتح الباب .. وبدا الطبرى
بلحيته البيضاء التي تصل إلى منتصفه .. وقف كلاهما مذهولاً أمام الآخر .. وارتج على
الطبرى فأشار إلى الداخل وهو يقول :

- تفضل .. يا ..

واحتار ماذا يدعوه . سيدى .. أم أميرى .. أم مولاي .. أم يفتح له احضانه
كالايام الخوالى .. وزاد هذا الموقف من ارتباكها معاً .. ودخل ابن المعتز صامتاً .. شاهد
الورق المتناثر والریش المقصوف الملقى على الأرض ، وجلس على أحد الحشايا .. وبلغ
ريقه في صعوبة ثم هتف بصوت خافت :

- لماذا لم تحضر بيعتى ؟ ..

وتخاذل الطبرى فجأة .. أدرك أن الصديق القديم قد أصبح خليفة له شرطه ..
وجواسيس .. وسجون .. وقاموس خاص لكلمات النفاق :

- يا مولاي .. لست قائداً .. ولا أميراً .. أنا مجرد وراق صغير ..

وأوشك ابن المعتز أن يصرخ فيه . أمسك حزمه من الورق ونثرها بعرض الغرفة
وهتف :

- أنت لم تكتب بيعتى في أوراقك .. لم تسجل تاريخ خلافتى . ؟!

ولم يستطيع الطبرى أن يكذب أو ينافق .. ظل واقفاً وابن المعتز يجلس في الركن وهو
يرتعد ..

- أنت أيضا .. تعرف أنى ريشة على وشك القصف ..

هتف الطبرى في حرارة :

- مولاي .. لم أقل هذا ..

ورنت كلمة مولاي غريبة في أذنه .. اقترب الطبرى ولس كفهُ بأصابعه الملوثة
بالمداد .. نظر كل منهما للآخر . توشجت بينهما فجأة كل الأواصر كالايام الماضية . وقال
الطبرى في صدق :

- أنت رجل حقيقى .. متقدم فى معنالك .. عال فى رتبتيك .. ولكن الزمن مدير .. والدنيا مولية .. وما أرى كل هذا إلا إلى أضمحلل ..
وممس ابن المعتز فى خوف وحيرة :

- هل هى نهايتى .. ؟ ..
وصممت الطبرى .. فهمس ابن المعتز :

- لذلك لم تكتب ..

فردد الطبرى صدى صوته :

- لذلك .. لم أكتب ..

وأوشك أن يخنق بالبكاء ، فنهض وازاح الأوراق عن طريقه وهو يهتف بلوعة :

- عليك اللمنة يا طبرى .. سوف تكتب تاريخ موى ..

وانصرف من البيت لا يدرى هل يعود إلى داره القديمة .. أو يعود إلى قصر المخرم .
ووصل إلى شاطئ النهر فصرخ بأعلى صوته :

- لم أكن أريد .. فردد الصدى :

- لم أكن أريد ..

رغم أنه عرشى .. إمتطاه ثلاثة خلفاء غيرى .. واقتنص كل واحد منهم قطعة من
عمرى .. حين قادتنى سيوف الترك فى المرة الثالثة لأقف أمام المقتدر .. الخليفة الغلام ..
وأسمع ضحكات ظلوم من وراء الستر .. وهكذا قلت بيعة خوفاً الثالثة .. لكن القاضى
المثنى نهض واقفاً وقال فى مواجهة كل الأصوات المؤيدة :

- هو صبى .. ولا تجوز المبايعه له ..

شعرت اننى ارتعد .. لقد قال القاضى الكلمات التى أخاف قولها .. رفعت عيني
فوجدت القاضى ينظر إلى .. يطالبنى بالكلام .. هذه هى كلمتى .. وهذا هو عرشى
ولكنى رأيت سيوف الترك فتخاذلت وتركتهم يقودونه للخارج ويذبحونه .. ورغم أن
الأمور قد تفرقت .. ودبت الخلافات بين الكتبة ورجال الحرس القديم .. وأخذت
الجارية ظلوم وأم الخليفة «شغب» تدبران شئون الحكم .. فقد ظللت صامتة محايداً ..
وأعلن ابن حمدان انشقاقه . والوزير ابو العباس وفاتك العضدى .. ومؤنس التركى ..
وجاءوا إلى .. يعرضون العرش والخلافة .. ليتنى ما قبلت .. ليتنى ما قبلت ..

وجر أقدامه إلى قصر المخرم .. ووجد الحراس نائمين .. والقناديل مطفأة .. وجاء
الفتجر أخيراً .. بدأ أول نهار من نهارات حكمه .. واحتشد القصر بالناس كأن بغداد كلها

قد استيقظت في لحظة واحدة .. ووقف يصلى بالناس .. وابتهل طويلاً .. ثم التفت إليهم وهو يقول :

- قد آن للحق أن يتضح .. وللباطل أن ينفضح ..

وهلل الجميع .. وركب ابن حمدان قائد الجيش .. وعمارويه صاحب الشرطة .. وخلفها جنود الخليفة .. توجه الجميع إلى «الحسن» لحسم الأمر .. وأخذ الخدم يجمعون أشياء الخليفة استعداداً للانتقال .. إلى القصر الجديد ..

ثم تعالت أصوات المعارك .. وبدأت سهام والكرات الملتهبة تملأ سماء النهر والمدينة .. نظر من الناظرة فرأى العشرات وهم يجرون وفي أيديهم السيوف والرايات .. ولم يعرف أى جانب يؤيدون .. وامتأل النهر بالسفن والحراقات .. وسأل عن الأخبار فلم يجبه أحد بشيء ..

واقترح بضع الجنود القصر ليقولون أن الأمور لم تحسم بعد .. وانصرفوا على عجل كما جاءوا .. وسأل عن ابن حمدان فلم يجبه أحد .. وظل «الحسن» أمامه كأنه يسخر منه .. وسار بعض العامة والدراويش والصفوية يضربون الصنوج ويهتفون :

- نصر الله الخليفة ..

أى خليفة يعنون ؟ لم يدر .. ظل حائراً .. مضطرباً .. يحاول أن يفتح القرآن . أو يمسك السيف .. وحين رفع رأسه وجد خزامى أمامه .. هل كان يجلم ؟ .. هتف بحرقة :

- خزامى لقد أحببتك دائماً .. ؟ ..

انحنيت أمامه .. مدت ذراعها كأنما تتعرض لشيء مجهول .. وهتفت :

- مولاي .. لقد مات ابن حمدان وفر جنوده ..

وهتف في حيرة :

- ماذا .. هل انهزم الخليفة .. وانتصر الخليفة ..

- عليك بالفرار سريعاً .. إنهم يطلبون رأسك ..

كانت السفن توجه مقدمتها نحوه .. وجنود الترك يطوفون الحواري . وبغداد مثل امرأة توشك أن تلد سفاحاً .. وهتف في ياس :

- ابن حمدان لم يمت .. لقد انتصر على القرامطة .. وحارب من أجل

الطولونيين .. لا يمكن أن يموت دون ثمن مناسب ..

ولم تترك له وقتاً .. جمعت ثيابه وأمواله فصرخ يريد الكتب .. ولبس عباءته وارتضى

كل منها على وجهه قناعاً كثيفاً .. وخرجاً حيث ربطت الجياد .. وكانت الشوارع مليئة بالناس والسيوف والجثث والرايات .. وابتعداً سريعاً دون أن يتعرف عليها أحد .
وسألته :

- والآن .. أين يمكن أن نذهب .. ؟ ..

ها هي النهاية مثل كف مفتوح .. مرسوم عليه الماضي والحاضر والمستقبل . مثل خط مستقيم .. ترى لماذا راهنت عليه «خزامي» بعد أن خسرت كل شيء .. أم تعشقه .. أم تعشقت الموت في الهزيمة .. امنحيني يدك يا خزامي وهبي كالرياح واعصفي بقلبي . كان العرش قديماً مليئاً بالعتة .. وكان القلب هرمأً مليئاً بالجروح ..

توجها إلى دار ابن الجصاص .. صديقه القديم . دق الباب في ياس .. وأفتح على الفور ليرى ابن الجصاص خلفه مبهوتاً .. أصفر الوجه وهو يقول .

- كنت أعلم أنك ستأتي إلى ..

تلفت في فزع ثم سمح لهما بالدخول دون ترحيب .. وبعد أن أغلق الباب التفت إليه وقال في حدة :

- انك لقاتلي .. ولكن لا أملك طردك ..

وابتسم الخادم إبتسامة صفراء وهو يهبط إليها الغرفة .. وحين أصبحت وحدهما أخيراً . استطاعت خزامي أن تجيب على السؤال الذي تأخرت إجابته طويلاً :

- وأنا أيضاً .. لقد أحببتك دائماً .

وأدرك أنه لم يفقد عرشه سدى . حتى ابن حمدان نفسه لم يكن ليتقاضى مثل هذا الثمن .. واستطاع أن يحلم بصوت مسموع ..

- سوف نرحل بعيداً .. نطارده الشمس حتى نصطادها .. ونعرف من أين تهب الرياح الأربعة .. كان من الخطأ أنني فكرت في هذا العرش المليء بالعتة ..

ويكن خزامي دون صوت .. وقالت :

- أنت بائس .. تعس يا حبيبي ..

ولم يقل ابن الجصاص شيئاً لأحد .. لم يخنه ولم يجره .. كانت السيوف العمياء تحصد كل من تمسه شبهة .. لذلك ركب جواده وهرب بعيداً .. لم يحتمل الخادم الأمر فأغلق عليها الباب .. وذهب إلى الترك ..

ولم يسمعا ضجة الفرسان إلا وهم يقتحمون باب الغرفة .. وهم يدمدمون

كالحيوانات الغاصبية .. وانكسر الباب .. وبدأ خمسة من الفرسان شاهري السيوف ..
وصرخ واحد ..

- أين عدو الله .. ؟ ..

وألقت خزامى بنفسها عليه .. وتقدم أحدهم وجذبها من شعرها وألقاها بعيداً
وحمله الآخرون وهم ينهالون عليه بالضرب .. وهتف ابن المعتز في ذهول .

- قضى الأمر .. فلا حول ولا قوة إلا بالله ..
لكن القائد لطمه على وجهه وهو يقول .

- معك امرأة ثم تذكر اسم الله ! سوف يقام عليك حد الزنا يا عدو الله
كانت هذه هى التهمة اذن .. إقتادوه .. وأشاعوها بين العامة .. وعرضوا خزامى
عارية الصدر بعد أن مزقوا ثيابها .. وأركبوه حمراً مقطوع الذيل وجلس الخليفة الغلام ..
يسأله :

- أهذه نهايتك يا عدو الله .. ؟ ..

واحنى رأسه قائلاً : قضاء الله على عبده ..
جاء القاضى مسرعاً . نفس القاضى الذى أعلن خلافته .. وأصدر فتوى
عاجلة .. ان الزانى يرجم حتى الموت .. وطاف المنادى فى الشارع . وعاد الحمار
المقطوع الذيل مرة أخرى .. وكل أنصار الأمس حملوا الحجارة وعلت اصواتهم فى زئير
جائع .. وهتف أحدهم

- يا عدو الله ..

وإرتطم الحجر الأول بوجهه .. وتداخل الناس والجنود والسيوف .. أحس بشعور
يهين .. بالغ الحدة .. وهبط على عينيه سائل لزج فتحول كل شيء إلى اللون الأحمر ..
جاء الحجر الثانى . خيل إليه أنه يلمح الطيرى يجمع أوراقه الملوثة بالمداد ويصرف .
نهالت الأحجار .. الحمار المقطوع الذيل توقف ونفضه من على ظهره .. ألقاه على
أرض مبتعداً عنه .. وتحولت المدينة إلى كائن خرافى مسعور .. أخذت الأحجار تهال
ليه .. والدم يثبت من كل مكان من جسده .. ومد يده عالياً . وتقلصت أصابعه ..
أنه يُشهد الجميع أن بيعته قد نقضت ..

تم الكتاب
بحمد الله

فهرس

- ٥ ١ - أبو الفرج الأصبهاني
عن الكتاب وعن الكاتب
- ١٣ ٢ - امرؤ القيس
أحزان الملك الضليل
- ٢١ ٣ - شهود حرب السويس
- ٤٥ ٤ - الحارث بن ظالم المرى
طائر الصدى يدرك ثاره
- ٦٣ ٥ - تأبط شرا
الدين يموتون وهم وقوف
- ٦٩ ٦ - عروة بن الورد
من يملك الكون الرحب
- ٧٧ ٧ - المنخل . المتجرده . النابغة
الصداقة . الحب . الموت
- ٨٥ ٨ - عمارة بن الوليد
بيد عمرو لا بيدى
- ٩٩ ٩ - الحسناء
من أين جاءت بكل هذه الدموع . . ؟
- ١٠٧ ١٠ - أمية بن أبى الصلت
المتوهم والمنتظر الأعظم
- ١١٥ ١١ - الحطيتة
إنسان بلا ظل

- ١٢٣ ١٢ - الرحيل إلى أرض تميم
- ١٣١ ١٣ - نائلة :
إنهم يقتلون الإمام
- ١٤٢ ١٤ - عمر بن أبي ربيعة
محاولة لتشخيص حاله
- ١٤٩ ١٥ - قيس بن الملوح
والموت في الحب
- ١٦٥ ١٦ - ديك الجن
الشراك منصوبة للشعراء
- ١٦٥ ١٧ - كثير عزة
نصيب الشعراء من العالم
- ١٧٣ ١٨ - وضاح اليمن
الموق يكتمون السر
- ١٧٩ ١٩ - قيس بن ذريح
الطلاق أو الموت
- ١٨٧ ٢٠ - الفرزدق
السائر على حافة السيف
- ١٩٥ ٢١ - عبد الله بن الزبير
مقتل المستجير بالبيت
- ٢٠١ ٢٢ - أشعب
العيش على فتات الآخرين
- ٢٠٩ ٢٣ - بشار بن برد
لا عزاء للأعمى .. لا عزاء للجميع

- ٢٤ - علية بنت المهدي ٢١٧ .
 لح بعيدا عن ضوء الشمس
- ٢٥ - عبيدة الطنبورية ٢٢٣ .
 الغناء من أجل الفقراء
- ٢٦ - فريدة ٢٢٩ .
 الموت فوق سرير الخلافة
- ٢٧ - ثم غنت عريب ٢٣٥ .
 « ألصق خلخالى بقرطى »
- ٢٨ - فضل العبدية ٢٤٣ .
 الحب صفقة خاسرة
- ٢٩ - إسحاق الموصلى ٢٥١ .
 من يبيعنى روحاً ليست بذات جروح ؟
- ٣٠ - عبد الله بن المعتز ٢٥٩ .
 خليفة ليوم واحد

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الأيداع بدار الكتب ١٩٩٠/٨٣٠٠

I. S. B. N. 977 - 01 - 2586 - 5

○ ○ لماذا كتاب الأغاني

● وقعت في عشق هذا الكتاب منذ الصبا ، كل شيء فيه كان آسراً ، ليالي السمر ، اعانى الجوارى ، مصارع العشاق ، نبل الفرسان ، هوس الشعراء ، كان مؤلفه أبو الفرج الأصفهاني كان يحاول ان يمسك في يده آخر أهداب المجد الضائع وهو يكتب مرثية طويلة لشمس الحضارة العربية الغائبة . لم يكتب عن الملوك والأمراء والقادة ، ولا عن الفتوحات العظيمة ولكنه كتب « التاريخ الصغير » تاريخ البشر العاديين في ضعفهم وقوتهم ونزواتهم الصغيرة . وظل الكتاب بلا زمن حتى وجدتني - بعد عام ١٩٦٧ - أبحث فيه عن أزمة جيلنا وزماننا ، أطرح عليه اسئلتى الملحة هل كان معدرا على الشخصية العربية ان تعيش الهزيمة الدائمة ؟ هل كانت الأمجاد السابقة مجرد وهم من الأوهام ، وقدم لي الكتاب القليل من الاجابات والكثير من الأسئلة لقد وجدت فيه الجذور الأولى للشخصية العربية بكل ما فيها من سمو وضعف وجنون . شخصيات لازالت نابضة بالحياة ، حافلة بالألم تحمل نفس الهموم المعاصرة وان اختلفت الأقنعة كل ما فعلته خلال هذه السطور اسنى قدمت فرائتى المتواضعة لهذا الكتاب الثمين واعترف ان لحظات الحب التي عشتها وانا اكتبه قد لونت كل حروف كلماتي وحولت كل سطر من سطورهِ إلى ذكرى لا تنسى مهما كان فيها من الم